

تبصرة الغافل وتذكرة العاقل

تأليف العلامة

محمد الطيب بن مسعود المريني

(ت ١١٤٥ هـ / ١٧٣٣ م)

تحقيق وضبط

المستشار توفيق على وهبه

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

الطبعة الاولى
1431هـ-2010
حقوق الطبع محفوظة للناسر
الناسر
مكتبة الثقافة الدينية
526 شارع بورسعيد - القاهرة
25922620-25938411 / فاكس: 25936277
E-mail: alsakafa_aldinay@hotmail.com

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

ابن مغيزل ، ابي الفضل عبد القادر بن الحسين
تبصرة الغافل وتذكرة العاقل
تأليف: محمد الطيب بن مسعود المرينى / تحقيق وظبط : احمد عبد الرحيم السايح ، توفيق على وهبة
القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2010

368 ص ، 24 سم

تدمك: 4-463-341-977-978

1- التصوف الاسلامى

ا- السايح ، احمد عبد الرحيم (محقق وظابط)

ب- وهبة ، توفيق على (محقق وظابط مشارك)

ج- العنوان

ديوى: 244

رقم الابداع: 2054

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

obeikandi.com

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، الذى أنزل القرآن الكريم على سيدنا محمد لإصلاح حال الخلق فى الأرض أجمعين.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وصحبه أجمعين.

أما بعد

إن الأمة وهى تتطلع إلى مجد الأسلاف، من شأن أبنائها أن يكونوا على معرفة بعلمائها الأفاضل، الذين نشروا الإسلام فى الأرض وملاؤوا القلوب بحب الله، وعلموا نفوسهم، وصدورهم بذكر الله.

إن قضايا الشريعة والطريقة والحقيقة تشد الانتباه، وتثير الاهتمام، فما أحرانا أن نكون من المنتبهين، وما أجدرنا أن نكون من المهتمين، لأن هذا الأسلوب معلم حضارى من آليات النهوض بالأمة.

وإن من الحقائق التى لا مرية فيها: أن الإنسان لا يتأتى له أن يلج بدرب الله، أو يسير فى الطريق إليه.. إلا بالعبودية الخالصة لله وحده لا شريك له..

فإذا ما تمخضت العبودية لله سبحانه، وأصبح الإنسان من عباد الله المخلصين، وحقق بذلك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن الله سبحانه لا يجعل للشيطان عليه من سبيل.

وإذا ما حقق الإنسان العبودية، فإن الله يتولاه بالإمداد بالمعرفة إنه سبحانه وتعالى يقول عن موسى وفتاه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: ٦٥].

إنه حقق العبودية، فكان ثمرة ذلك أن يغمره الله بالرحمة وأن يفيض عليه العلم، وليست المعرفة وحدها هي ثمرة التحقق بالعبودية، بل أن للتحقق بالعبودية ثمارا كثيرة سامية.

ولقد حقق سيدنا رسول الله ﷺ العبودية كاملة تامة، لقد حققها في ذروتها. . فكانت صلاته، وكانت نسكه وكانت حياته بأكملها، وكان موته لله رب العالمين، لا شريك له: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿[سورة الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

لقد حققها موفورة تامة، فاتاه الله عز وجل الدنيا والآخرة.

ولا يجهل أحد من المسلمين - ولا أحد من المستشرقين الذين عنوا بدراسة الحركات الإسلامية - أن أول متنسك في الإسلام، هو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. .

وقد ترسم كثير من الصحابة الأولين خطاه، واسترشدوا بهداه، فتنسك منهم أبو ذر، وصهيب وحذيفة، وأبو الدرداء، وأبو هريرة، وعمران الخزامي، وغيرهم. وكانوا أول الأمر يدعون بالزهاد، أو العباد، أو النساك، أو البكائين أو الوعاظ، ولم ينكر عليهم هذا أحد. . لا صاحب الشريعة ولا أصحابه. بل أقروهم على خطتهم وفضلوهم على المستمتعين المتلذذين، واعترف لهم كثير من الصحابة بكرامات ومعارف لا تتاح لكافة المسلمين.

ويواصل ابن خلدون الحديث عن الكشف والاطلاع فيقول: ثم إن هذه المجاهدة والخلوة والذكر. . يتبعها غالبا، كشف حجاب الحس، والاطلاع على عوالم من أمر الله، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها، والروح من تلك العوالم.

وسبب هذا الكشف: أن الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ضعفت أحوال الحس، وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوة وأعان على ذلك الذكر، فإنه كالغذاء لتنمية الروح، ولا يزال في نمو وتزايد، إلى أن يصير شهودا، بعد أن كان علما ويكشف حجاب الحس، ويتم وجود النفس، الذى لها من ذاتها..

وهو عين الإدراك فيتعرض حينئذ للمواهب الربانية والعلوم الربانية والعلوم الدنية والفتح الإلهى، وتقترب ذاته فى تحقق حقيقتها من الأفق الأعلى.

وهذا الكشف كثيرا ما يعرض لأهل المجاهدة، فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم. وكذلك يدركون كثيرا من الوقائع قبل وقوعها ويتصرفون بهمهم وقوى نفوسهم فى الموجودات وتصير طوع إرادتهم.

ولا يستطيع مؤمن إيمانا صحيحا الاعتراض على هؤلاء. وقد انتهلوا جميع العناصر الأولية لتنسكهم من الكتاب الكريم والأحاديث القدسية والنبوية والسنة الغراء، فاغترفوا من هذه المنابع السامية: أصول الإيمان، ومبادئ التقوى، وعناصر الذكر والفكر وقواعد التطهير البانى وقوانين السلوك العملى.

والذى لا شك فيه أن المسلمين الأولين قد طفقوا منذ فجر الإسلام يتأملون فى المثل القرآنية العليا ليتخذوا منها نبراسا يضيئون به أعماق قلوبهم ليستكشفوا فى دخالها عناصر الأحوال الروحية التى شاهدها ممثلة فى نبيهم، بعد أن ظفرت بالرضا الإلهى العميم..

ولقد ركزوا جهودهم الشخصية فى هذا التأمل، حتى بلغ عندهم من

العمق حدا لم تظفر بمثله كافة المسلمين . . وهذا الذى سماه الحسن البصرى فيما بعد «علم الخواطر والقلوب» .

ومما لا سبيل إلى الريب فيه بأى وجه من الوجوه أن المصدر الأول الذى أرشد المسلمين إلى هذا الصراط السوى ، وأنار لهم طريق الخروج إلى رب العالمين ، هو القرآن الكريم ، والأحاديث القدسية .

وأن المصدر الثانى هو أقوال النبى الجليل صلوات الله وسلامه عليه ، وأفعاله الظاهرية وأحواله الباطنية التى كانوا يرونها ببصائرهم ، ويستشفونها بقلوبهم فيتخذون منها مثلهم العليا ونماذجهم الرفيعة وشموسهم الساطعة التى تضىء لهم سبيل الحياة .

ومن هنا يتضح أن السنة المحمدية عند هؤلاء الأتقياء ، ليست هى الإحاطة بالأوامر الظاهرية ، والأفعال الخارجية واتباعها فحسب ، ولكنها أيضاً تطبيق أصول الفضائل الأخلاقية الباطنية .

فالكتاب والسنة وحياة الرسول ﷺ تطبيق نموذجى للتجربة الدينية بجميع أبعادها وأهم الأسس التى يقوم عليها التصوف .

وقد بدا لنا أن نقدم كتاب تبصرة الغافل وتذكرة العاقل للعلامة محمد الطيب مسعود المرينى لما فيه من فوائد كثيرة تمد الباحثين ، وكبار العلماء ، وطلاب العلم بالضوابط والمعالم المفيدة ،

والله من وراء القصد ، هو ولينا ونعم النصير ، ،

أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبه

ترجمة

العلامة الشيخ

محمد الطيب بن مسعود المرينى

ت ١١٤٥ = ١٧٣٢م

صاحب كتاب / تبصرة الغافل وتذكرة العاقل

من كتاب / سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس

فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس^(١)

قال الإمام محمد بن جعفر الكتانى :

ومنهم : الشيخ الفقيه الأديب لمؤرخ ، النسابة ، الأريب ، صاحب النظم العجيب ، والنثر الغريب ، العالم ، المحدث ، الصوفى ، الأنفع ، الواعظ ، المتنسك ، الأرفع ، نقيب الأشراف ، أبو عبد الله : سيدى محمد الطيب بن مسعود بن أحمد المرينى .

كان رحمه الله من كبار الأدباء الأذكياء ، النبهاء ، وأعيان الفضلاء النجباء ، الفقهاء ، وأهل الدين المتين ، والمحبة فى أهل بيت سيد المرسلين ، وأولياء الله الصالحين ، والانحياز بجانب العلماء العاملين ، عالماً ، عاملاً ، مشاركاً ، فاضلاً ، وكان من أهل الولاية ، وأصحاب التعلق بأرباب الهداية .

صحب الشيخ سيدى أحمد بن عبد الله مقرئ الأندلس ، وكان يكثر المجىء لزيارته ، وله فيه محبة قوية ، وألف تأليف فى التصوف منها :

(١) تأليف العلامة المرحوم الشيخ محمد بن جعفر بن إدريس الكتانى ج ٣ ص ١٢٢ .

- تبصرة العاقل وتذكرة الغافل:

جمع فيه من المواعظ والحكم ما ينبئ عن حاله من الفضل والعلم، رتبّه على خمسة عشر باباً، وقبله أعيان فاس، ومدحوه، وأحسنوا الثناء عليه، وعلى كتابه.

- والمقصد المحمود والمنهل المورود:

ضمّنهُ قصائد وغيرها من كلامه، واستفتحه برسالة نبوية وأرجوزة جليلة، فى المهم من الديانات، سماها: (الأيعينية فى الأحكام الدينية، وشرحها). وشرحها أيضاً بعده الفقيه النحوى، الحافظ أبو عبد الله سيدى محمد بن عبد السلام بنانى.

- وله أيضاً:

- مقامة فى مدح شيخه سيدى محمد بن عبد الله معن الأندلسى، وقصائد رفيعة تنبئ عن طول باعه.

وكان رحمه الله فى أول أمره، كاتباً مع السلطان، مولاي إسماعيل ثم ولّاه نقابة الأشراف بالمغرب، والتغريم على جميعهم، والفصل بينهم فى الخصوم فشكاه بعضهم إليه، فتغير عليه، وأمر بقتله، فأخفاه الوزير، عبد الله الروسى وأوهم السلطان أنه قتله، لما يعلمه من دينه وعلمه، احتساباً لله تعالى.

ثم لما مات السلطان المذكور، وأمن على نفسه، ولّاه أهل فاس أمر الحسبة، فحكم يوماً على جزار بالتطويف فأنكروا ذلك عليه وأطلقوا له الجزار، فغضب من أجل ذلك، وعزل نفسه، ولم يرجع لها قط روجع لتحمل الشهادة، وكان من المرجوع إليه فى الشهادات والوثائق مقصوداً،

مشهوراً، إلى أن توفي بفاس عن سن عالية عام خمسة وأربعين، وقيل اثنين وأربعين، ومائة وألف ودفن بهذا الخارج حوز سيدى مسعود الشراط بجواره، ترجمه العلمى فى الأنيس، وهو ثالث من ترجم فيه. وترجمه أيضاً فى النشر على ما فى بعض نسخه، والتقاط الدرر، والزهر الباسم، وسلوك الطريق الدارية.

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَحَلَى اللَّهِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

قَسَمٌ بِكَ الْغَافِلُ وَتَزَكَّرُ الْغَافِلُ
تَالِيَةً بِحَبْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَاللَّهُ بِمَسْجُودِ الرَّبِّ
بَارِعٌ وَنَدَامَةٌ مَسْخُوفَةٌ الرَّبِّ

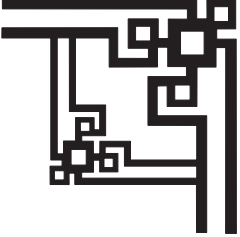
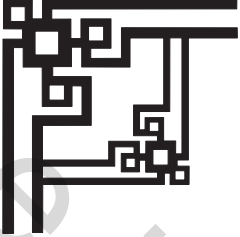
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَبَّبَ الْإِيمَانَ إِلَى عِبْدِهِ وَتَجَرَّبَ فِي آيَةِ بَعْوَارِ
الْجَمِيلَةِ وَرَوَّعَهُ. وَنَعَمَ جُودُهُ الْوَجُودِ. وَسَجَّهَ كُلَّ مَوْجُودٍ
وَأَهَمَّ مَنَاقِبَهُ الْإِسْبَاحَ بِحَمْدِهِ. وَصَوَّلَ جُلَامَ جُودِهِ. وَكَرَّمَ
مَقْصُودَهُ. وَكُلَّ نِعْمَةٍ مَنَاقِبِهِ الْإِسْبَاحَ وَالصَّلَاةَ وَالصَّلَاةَ عَلَى
سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ مِنْبِغِ الرَّحْمَةِ. وَالْوَالِدَةَ بِكُلِّ
نِعْمَةٍ. وَوَسِيلَةَ أَهْلِ بَيْتِهِ وَوَدَّاهُ. وَعَلَى آلِهِ الْكَصَّارِ. وَإِنَّمَا
بِهِ الْإِخْلَاصُ. وَحَامِلِ لَوَاهِ سُنَّتِهِ مِنْ بَعْدِهِ. وَتَعَرُّوْا لِمَا
اِيفْتِنَا بِالسُّبْحِ وَلَا زَادَهُ وَرَأَيْتُ بِطَلَاتِ عَمَّتِ الْهَلَقَ
الْأَوَّلَةَ. وَبَعَثْنَا كَمَا بَطِئَ إِدَاةُ. وَكُنْتُ الْمَسْئُولَ عَنْهُمْ
يَوْمَ الْقَعَادَةِ ذَكَرْتُ نَفْسِي وَإِيَّاهُمْ بِأَيَاتِ عَزِيمَةٍ. وَإِذَا

obeikandi.com

وله الحمد لا اله الا الله ولا حول ولا قوة الا بالله ثم مات لم
 تضعه النار وقال صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان
 على اللسان ثقيلتان في الميزان جيثار الى الله عز وجل
 الله ونحوه سبحان الله العظيم انتصر والحمد لله رب
 العالمين وصلى الله على سيدنا محمد سيد الاولين والآخرين
 ورضي الله تعالى عن الصحابة اجمعين وعن التابعين ومن تبعهم
 باحسان الى يوم الدين اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه
 وسلم تسليم

. كل نسخ او مقابلة من نسخة تحت نسخة من مؤلفه .
 . عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سبع سنين
 . في الدنيا دارنا الله خير ووفانا الله عز وجل .
 . كونه على هذا الله بالاسلام على يدنا محمد بن عبد الله
 . العربي لما له من نعمته ونعمته عليه السلام .
 . الفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة .
 . وفاريد ومستهة او مسحة في تحصيله منه واراد الجميع .
 . يدادهم اراهم صلى الله عليه وآله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

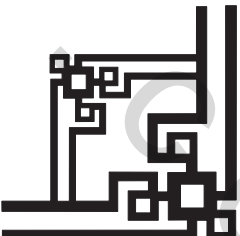
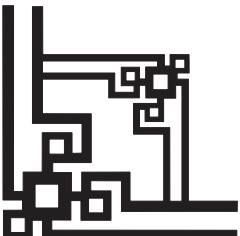
obeikandi.com



الأصل المفقود

تحقيق وضبط ومراجعة

أ.د أحمد عبد الرحيم السايح المستشار توفيق على وهبه



obeikandi.com

مقدمة المصنف

تبصرة الغافل وتذكرة العاقل

الحمد لله الذى حبب الإيمان إلى عبده، وتعرف إليه بعوارفه الجميلة
ورفده، وعم جوده الوجود، وسبحه كل موجود، ﴿وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ
بِحَمْدِهِ﴾^(١)، فهو أجل معبود، وأكرم مقصود، وكل نعمة من عنده.

والصلاة والسلام على سيدنا، ونينا ومولانا محمد، منبع الرحمة،
والواسطة فى كل نعمة، ووسيلة أهل قربه ووده.

وعلى آله الأطهار، وأصحابه الأخيار، وحاملى لواء سنته من بعده . . .

وبعد:

فإنى لما أيقنت بالسفر، ولا زاد، ورأيت بطالتى عمت الأهل والأولاد،
وغفلنا عما بنا يراد، وكنت المسؤول عنهم يوم المعاد ذكرت نفسى وإياهم
بآيات عظيمة، وأحاديث كريمة، وحكم فائقة، وفوائد رائقة، مما سمعته، أو
نقلته، : من كلام الصالحين، المرشدين الناصحين، نفعا الله بهم، وجعلنا من
حزبهم، وربما أوردت بعض الأخبار المأثورة عن الأخيار.

تنشيطاً للقارئ والسامع، وتنبيهاً على معالم الخيرات والمنافع، وتقريباً
للاستفادة، وترغيباً فى معرفة أحوال أهل السعادة، لما رجوت من بركة قوله
تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُتَنَفَّعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الإسراء - الآية رقم ٤٤ .

(٢) سورة الذاريات - الآية رقم ٥٥ .

وإن كان السكوت أليق بى وأولى ، لأنى لست لذلك أهلاً ، وإنما يرفع الحدث ، وحكم الخبث بالمطلق لا بالمضاف ، ويستدل بمحل الوفاق لا بمحل الخلاف ، ولا يتداوى بالخمر ولا بالنجاسة كما قيل :

وَعَيْرُ تَقَى يَأْمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى طَبِيبٌ يَدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ عَلِيلٌ !

[البحر الطويل]

وقال غيره :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَعْلَمُ غَيْرَهُ هَلَّا لِنَفْسِكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيمِ
أَبْدَأْ بِنَفْسِكَ فَانْهَها عَنْ غِيَّها فَإِذَا انْتَهَتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمٌ
فَهَنَّاكَ يَسْمَعُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى بِالْقَوْلِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ
لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

[من البحر الكامل]

لكن قال أبو الدرداء رضى الله عنه : (إِنِّى لَأْمُرُكُمْ بِالْخَيْرِ لَا أَفْعَلُهُ ، وَلَكِنِّى أَرْجُو بِهِ الْأَجْرَ مِنْ قَبْلِكُمْ) .

وقال بعض المشايخ رضى الله عنهم : (من احتجت إلى شىء من علومه ، فلا تنظر إلى عيوبه ، فَإِنَّ نَظْرَكَ إِلَى عَيْبِهِ ، يَحْرِمُكَ بَرَكَةَ الْإِنْتِفَاعِ بَعْلُومِهِ) كما قال الشاعر :

اعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِى عَمَلِي يَنْفَعُكَ قَوْلِي وَلَا يَضُرُّكَ تَقْصِيرِي

من ضلَّ عن الطريق ، استرشد العدوَّ والصديق ، فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ :
« الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ يَأْخُذُهَا حَيْثُ وَجَدَهَا » .

وقال بعض الصالحين رضى الله عنهم: كان سبب توبتى على يد يهودى، لقيته يسوق دابةً.

فقال لى: سرّ فى الطريق قبل أن تقع فى جرف^(١) وتنكسر، ففتح الله بسماع ذلك علىّ، ورأيت الخطاب متوجّهاً إلىّ، وأنى المقصود به، فتبت إلى الله فى الحين.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: ربما انتفع المحق بالمبطل إذا صحّ المقصد، وكان الفضيل بن عياض رضى الله عنه على حالته الأولى فسمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢) فقال: إى يا رب: وتوجّه إلى الله من حينه، وكان ذلك سبب توبته. ففتح الله على السامع ما لم يفتح على القارىء.

وقال الشيخ سيدى داود الباخرى رضى الله عنه: لا تنظر فى أفعال الواعظين تحجب عن موائد أقوالهم، ولا تنظر لذات العارفين، تحجب عن فهم إشارتهم. ولما شرعت فى هذا التقييد، سمعت قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٣) كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون^(٣) فوقع ذلك منى كل موقع.

وأتيت بعض علماء الوقت رضى الله عنهم، وأخبرته بذلك وأنى أردت تمزيق ما قيدت، فقال لى: لا تفعل، إنك مطالب بالقول، والفعل، وحيث لم تحصل فضيلة الفعل. فحصل فضيلة القول، وليس فى الآية النهى عن القول، وإنما فيها الحض على ضمّ القول إلى الفعل.

(١) جرف: شق الوادى.

(٢) سورة الحديد - الآية رقم ١٦.

(٣) سورة الصف - الآيتان ٢، ٣.

ثم تذكرت قوله ﷺ: «مُرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوهُ، وَانْهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، وَإِنْ لَمْ تَجْتَنِبُوهُ كُلَّهُ»^(١) وقوله ﷺ: «لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لَكَ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، فاستعنت بالله تعالى، وجعلته فى ستة عشر بابًا.

معتمدًا فيما نقلته من الأحاديث النبوية على صحيحى البخارى ومسلم، والجامع الصغير للإمام السيوطى، وشهاب الدين القضاعى.

ومن الكلاعى، وشمائل الترمذى، ومن كلام العارفين: على كتاب القصد للشيخ أبى الحسن الشاذلى، والتنوير، ولطائف المنن، والحكم، ومناهج الإنابة: للشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنهم، والتنبيه: للشيخ ابن عباد على الحكم، ورسائل الكبرى، والتحبير: للشيخ أبى القاسم القشبرى، وكتاب الأخلاق، والطبقات، والعهود: للشيخ الشعرانى، وعرائس البيان فى تفسير القرآن: للشيخ الورتجى.

والحلية: للشيخ أبى نعيم، والإحياء: للإمام الغزالى، والقوت: للشيخ أبى طالب المكى، وتآليف الشيخ زروق، وسيدى عبد الرحمن الثعالى، وغيرهم من المشايخ، رضى الله عن جميعهم.

وما أشرت إليه ببعض العارفين فهو ما سمعته من شيخ الوقت رضى الله عنه ومتعنا به، نقلت كلامه تارة باللفظ، وتارة بالمعنى، وما أورده من كلام بعض الحكماء، وأشعار العلماء، فهو من المحفوظات فقط.

فجاء والحمد لله بكل ألوان مزهرا، وبستانًا لكل أوان مثمرًا، وإن كان تركيبه غير مطابق، فالعذر قائم بقصور الباع، وإن تجاسرت فى هذا التقييد،

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط

وأوهمت أنه رأى رشيد، وكتاب مفيد، فجانب أهل العلم كريم، وشأنهم عظيم، ولعلو مقدارهم، واتساع جاههم، وإضاءة أنوارهم، تشبَّهتُ في ذلك بهم، وتطفَّلت عليهم، والطفيلي مقبول عند الكرام، مُتلقًى بالإكرام: ينقلب عنهم معمر الأكمام، مشكور الإمام، ورحم الله القائل:

هُمْ دَخَلُوا بَابَ الْقَبُولِ بِعَزْمِهِمْ وَحَسْبَى أَنْ أُلْقَى لَدَى الْبَابِ قَارِعَا
وَوَاللَّهِ مَالِي لِلدُّخُولِ وَسِيلَةٌ سِوَى رُؤْيَا بَابِ الْمَكَارِمِ وَأَسْعَا
[من البحر الطويل]

وأنا أعتذر لأهل القلب السليم، والطبع الكريم، وأما الغير، فالإعراض عنه أجمل، أو يأتي بأَنفَع من هذا أو أَفْضَل، ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾^(١) ورحم الله عبداً ستر لأخيه عورته، وحفظ غيبته.

ولمَّا أُنعم الله تعالى بتمامه، وطالعه من صرف إليه عنان اهتمامه سمّاه: [تبصرة الغافل وتذكرة العاقل].

والله سبحانه ولى التوفيق، : والهادى إلى أقوم طريق بمنه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الباب الأول: فى تنبيه الساهين وإرشاد اللاهين.

الباب الثانى: فى التوبة والاستغفار من الحوبة.

الباب الثالث: فى التقوى، والاعتصام بحبل الله الأقوى.

الباب الرابع: فى آداب الصلاة وفضلها، وذكر أحوال أهلها.

(١) سورة الطلاق - الآية رقم ٧.

الباب الخامس: فى شكر النعمة، وما ورد فيه من فوائد وحكمه.

الباب السادس: فى ذكر بعض ما علينا من فضل الله تعالى ورحمته، وما أنعم به علينا من توحيده ومعرفته.

الباب السابع: فى ترك التدبير مع الله، والاعتماد على سواه.

الباب الثامن: فى ذكر القدر والقضاء، وما وجب من الصبر والتسليم والرضا.

الباب التاسع: فى معرفة النفس ومثالبها وعلامة صاحبها.

الباب العاشر: فى التواضع وحسن الخلق.

الباب الحادى عشر: فى ذم الدنيا وأهلها وذكر الآخرة وفضلها.

الباب الثانى عشر: فى التعريف ببعض سيرة النبى ﷺ، وشمائله، وذكر نبذة من فضائله.

الباب الثالث عشر: فى علامة السعادة، ونصيحة أهل الاستفادة.

الباب الرابع عشر: فى القناعة، وذم الاغترار والطمع.

الباب الخامس عشر: فى التحذير من خلطة الغافلين والحض على معرفة الصالحين.

الباب السادس عشر: فى الذكر وفضيلته، والدعاء، وكيفيته.

والله سبحانه يمن علينا بالقبول، ويبلغنا من رضاه غاية القصد والسؤل، بمنه، وفضله، وجوده، : وطوله، آمين.

الباب الأول
فى
تنبيه الساهى وارشاد اللاهى

obeikandi.com

الباب الأول

فى تنبيه الساهى، وإرشاد اللاهى

عباد الله، والمتكلم، . . . انتبهوا من منامكم، وانظروا ما قدمتم فى أيامكم، وشمروا عن ساعد الجدِّ والاجتهاد، واستعدوا ليوم المعاد إلى كم تغترون بالعرض الزائل، والظلُّ القائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (١).

أما رأيتم الأيام تمر مرَّ السحاب؟ . . . والأعمار تنطوى طيَّ السجل للكتاب؟ . . . والليل والنهار ييليان كل جديد. . . ويقربان كل بعيد. . . وأنفاسكم معدودة، وأقوالكم وأفعالكم محصورة، فى صحائفكم موجودة.

قال مولانا جل ثناؤه، وتقدست صفاته وأسماءه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (١٦) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (٣)، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٥).

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ١٣٣.

(٢) سورة ق - الآيات ١٦ - ١٨.

(٣) سورة الزخرف - الآية رقم ٨٠.

(٤) سورة يونس - الآية رقم ٦١.

(٥) سورة الجاثية - الآية رقم ٢٩.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١﴾﴾.

قال ﷺ: «إن الله عند لسان كل قائل»^(٢)، فما غابت أحوالكم عن الرقيب ولا خفيت أسراركم عن السميع القريب: ﴿أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣).

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا عبادي إن كنتم لا تعلمون أني مطلعٌ عليكم. فذلك خلل في إيمانكم، وإن كنتم تعلمون أني مطلعٌ عليكم، فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟»^(٤)، أطلتم في التقصير، والعمر قصير، فما هذه الغفلة والحيرة؟... أما أدركتكم على عمركم غيرة؟...

فيا ضيعة الأعمار تمشي سبَّهلاً^(٥)

على نفسه فليبك من فات عمره وليس له فيه نصيب ولا سهم

[من البحر الطويل]

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لا شيء أعز من الكبريت الأحمر إلا ما بقي من عمر العبد.

وقال أيضاً رضي الله عنه: بقية عمر المؤمن ما لها ثمن.

(١) سورة الانفطار - الآيات ١٠ - ١٢.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٣) سورة فصلت - الآية رقم ٥٣.

(٤) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من مصادر.

(٥) سهلل: أي لا يساوى شيئاً.

ونظمه بعضهم فقال :

بَقِيَّةُ الْعُمَرِ عِنْدِي مَالَهَا ثَمَنٌ وَإِنْ غَدَا غَيْرَ مَثْمُونٍ مِنَ الزَّمَنِ
يَسْتَدْرِكُ الْمَرْءُ فِيهَا مَا أَفَاتَ وَيُحْيِي مَا أَمَاتَ وَيَمْحُو السُّوءَ بِالْحَسَنِ
[من البحر البسيط]

فالبدار... البدار... قال ﷺ: "فما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار" (١)، وتوَلَّعُكم بالدنيا يزيدُ كأنها لا تبيد، ما أصبركم على غَمِّ الحجاب!، ما أجراكم على الذنوب...!

ما أغفلكم عن يوم الحساب! أما دعيتم جهاراً؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ (٢).

أما خوطبتكم لو أنكم تسمعون ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣)، يا تائهًا فى فيافى الغفلة، كم يدعوكم الخير فلا تجيب...!، يا مريضًا بداء الشهوة، جارك طيب، وهو لك أقرب حبيب، الموت يطوى بساط الآمال، وأنت تراه بعيدًا وهو قريب، كم أيقظ نائمًا...! وأقعد قائمًا...! وما أمهله يدير لحظه...! أو يفهم لفظًا...!

آن الرحيل والسفر طويل، والزداد قليل، والحمل ثقيل، يا ليت شعرى، إلى أين المصير...؟، ومن لك يا عبدالله من الله نصير...؟ كيف بك إذا رمت الخلاص...؟.

(١) أخرجه ابن أبى الدنيا.

(٢) سورة التحريم - الآية رقم ٦.

(٣) سورة المؤمنون - الآية رقم ١١٥.

ولات حين مناص... ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يَنْبَأُ
الْإِنْسَانَ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ (١)، أتنجيك أعمالك...؟ أو يفديك مالك...؟
تف من الهجير وتتقيّه، فهلا عن جهنم قد فررت، إنها لظى نزاعة
للسوى (٢).

جاءكم النذير، ونبأكم العليم الخبير، شغلکم الأهلون والأموال،
واعترضتم بالراحة الفتن والأهوال، يغمى على المرء فى أيام محنته، حتى يرى
حسنًا ما ليس بالحسن.

قال أبو الدرداء رضى الله عنه: (لو تعلمون ما انتم راؤون بعد الموت،
ما أكلتم طعامًا على شهوة، ولا شربتم ماء على شهوة، لوددت أنى شجرة
تعضد، وهذا مقتطف من قوله ﷺ: "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً
ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولو تعلم البهائم ما علمتم ما
أكلتم منها سميناً" (٣).

قال الربيع بن خثيم رضى الله عنه: مررت بمكتب، فرأيت صبيًا يبكين
فقلت له: لم تبك؟ فقال: غداً يوم الخميس، أحتاج أن أعرض على المعلم،
ولست أحفظ، فقلت: فكيف بى إذا كان يوم القيامة وأحاسب على ما
أسلفت...؟ قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (٤).

(١) سورة القيامة - الآيات ١١ - ١٣.

(٢) الشوى: جلدة الرأس.

(٣) حديث (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً... إلخ) متفق عليه عن أنس
مرفوعاً.

(٤) سورة القيامة - الآية رقم ٣٦.

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٢) ثم كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٢).

قال أبو حازم رضى الله عنه: انظر الذى تحب أن يكون معك فى الآخرة فقدمه اليوم، وانظر الذى تكره أن يكون معك فاتركه اليوم، قال رضى الله عنه: ابن آدم، . . . بعد الموت يأتيك الخبر . . . !.

قال رسول الله ﷺ: "الناس نيامٌ، فإذا ماتوا استيقظوا".

وقال رسول الله ﷺ: "عجبت لغافلٍ ولا يُغفلُ عنه، وعجبت لمؤملٍ دنيا، والموت يطلبه، وعجبت لضاحكٍ ملء فيه ولا يدرى أأرضى الله أم أسخطه...!".

وسأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم رضى الله عنه، فقال له: ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم عمرتُم دنياكم، وخربتُم أخراكم، فأنتم تكرهون الرحلة من العمران إلى الخراب . . . ! قال: صدقت.

فقال: يا أبا حازم ليت شعرى ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله عز وجل، فقال: أين أجده فى كتاب الله عز وجل؟ قال: قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (٣).

قال سليمان: فأين رحمة الله؟ قال أبو حازم: قريب من المحسنين. قال سليمان: ليت شعرى: كيف العرض على الله غداً؟ قال أبو حازم: أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسىء فكالأبق يقدم به على مولاه، فبكى سليمان حتى علا نحيبه.

(١) سورة الجاثية - الآية رقم ٢١.

(٢) سورة التكاثر - الآيتان ٣ - ٤.

(٣) سورة الانفطار - الآيتان ١٣ - ١٤.

وقيل لحاتم الأصم: متى يكون أحدنا من أهل الاعتبار فى الدنيا؟..
فقال: إذا رأى كل شىء فى الدنيا عاقبته إلى الخراب، وصاحبه يذهب إلى
التراب.

وكان الحسن البصرى رضى الله عنه يقول: واعجباه لقوم أمروا بالزاد
ونودوا بالرحيل، وهم جلوس يضحكون!!.. فإن من كان الليل والنهر مطيته
فهو يسار به ولا يشعر.

وقال له رجل: أوصنى. فقال: لا تذب، فتلقى نفسك فى النار، مع
أنك لو رأيت أحداً يلقي برغوئاً فى النار، لأنكرت عليه، وأنت تلقى نفسك
فى النار كل يوم مرات ولا تنكر على نفسك ذلك؟!..

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: أوصنى. فقال: إياك أن
تكون ممن يخالط الصالحين ولا ينتفع بهم، ويلوم المذنبين، ولا يجتنب
الذنوب، أو ممن يلعن الشيطان فى العلانية ويطيعه فى السر.

وقال عمر بن عبد العزيز لسالم، مولى محمد بن كعب القرظى رضى
الله عنهم: يا سالم... عِظْنَا.

فقال له: آدم ﷺ عمل خطيئة واحدة خرج بها من الجنة، وأنتم تعملون
الخطايا ترجون تدخلون بها الجنة...!، قال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ
مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِينِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ
أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢) فى جنات النعيم.

فاغتنموا الوقت قبل الفوات، والحياة قبل الوفاة، إنما توعدون لآت.

(١) سورة المائدة - الآية رقم ٤٨.

(٢) سورة الواقعة - الآيتان ١٠ - ١٢.

قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ (١) الآية. وقال ﷺ: " اغتتم خمسًا قبل خمس، شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك " (٢).

عباد الله... أجيئوا داعي الله طاعةً وسمعاً، ولا تكونوا كالذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

قال ﷺ: "اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات الله، فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده" (٣)، واعتصموا بحبل الله المتين، وتمسكوا بسنة سيد المرسلين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤)، وتدبروا كلام بارئكم، واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم.

قال مولانا - تبارك وتعالى - : ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٥)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (٦).

وقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ (٧).

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٢٨١.

(٢) رواه الحاكم والبيهقي.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في الفرج، والحكيم الترمذي، والبيهقي، وأبو نعيم في حلية الأولياء عن أنس.

(٤) سورة الأعراف - الآية رقم ١٥٧.

(٥) سورة الأنعام - الآية رقم ١٥٥.

(٦) سورة الزمر - الآية رقم ١٨.

(٧) سورة الأنبياء - الآيات ١ - ٣.

وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١). وقال ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنتي" (٢).

وقال ﷺ: "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ" (٣).

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: من أراد حفظ السنة فليعمل بها، فإنها تتقيد عنده ولا ينساها.

تنبيه:

اعلموا أن الله سبحانه أوجدكم من العدم، وغذاكم بسوايغ النعم، ودعاكم لما ينجيكم، وحذركم ما يردكم، رحمةً بكم، وتفضلاً عليكم، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤) ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٥) فسبحانه من على، مجيد، غنى، حميد، لا تنفعه طاعتكم، ولا تضره معصيتكم.

قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (٦)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (٧).

(١) سورة الجاثية - الآيتان ٧ - ٨.

(٢) رواه الحاكم.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٤) سورة النحل - الآية رقم ٧٨.

(٥) سورة البقرة - الآية رقم ٦٤.

(٦) سورة يونس - الآية رقم ٢٣.

(٧) سورة الإسراء - الآية رقم ٧.

وقال جل من قائل: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)،
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (٤)، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: "... إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا، يا عبادي... كلكم ضال، إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي... كلكم جائعٌ إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي... كلكم عارٌ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي... إنكم تخطئون الليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم.

يا عبادي... لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي... لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم، وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

يا عبادي... لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل واحدٍ مسأله، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً.

(١) سورة النساء - الآية رقم ١١١.

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦.

(٣) سورة لقمان - الآية رقم ١٢.

(٤) سورة فصلت - الآية رقم ٣٦.

يا عبادى... إنما هى أعمالكم، أحصيتها لكم، ثم أوفيكُم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه" (١) انتهى .

فاسلكوا عباد الله...! سبيل المتقين، وكونوا من الرحيل على يقين، واجعلوا الموت نصب عيونكم، قال ﷺ: «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ الذَّاتِ» (٢).

وقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، قِيلَ فَمَا جَلَاؤُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ... قَالَ: ذِكْرُ الْمَوْتِ وَتِلَاوَةُ الْقُرْآنِ» (٣)، وقال الشيخ حامد اللغات (٤) رضى الله عنه: من أكثر ذكر الموت، أكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة النفس، والنشاط فى العبادة.

وقال سفيان الثورى رضى الله عنه: ما استعد للموت من ظنَّ أنه يعيش غداً، وكأنَّ الطاعات تتفرع من ذكر الموت، والمعاصى تتفرع من نسيانه.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: إنما أنت مراحل، كلما مضى يوم وليله، قطعت مرحلة، فإذا فنيت المراحل، بلغت المنزل، إلى جنة أو إلى نار، فالساعات تنقلنا، والأيام تطوينا.

كما قال بعض الحكماء: مثل العبد فى عمره، مثل رجل فى سفينة يسير وهو قاعد، كذلك العبد، يدنو من الآخرة، وهو غافل. انتهى من القوت (٥).

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد.

(٣) رواه البيهقى عن ابن عمر رضى الله عنهما.

(٤) فى المخطوط حامد الكفاف والصواب ما أثبتناه.

(٥) كتاب قوت القلوب لأبى طالب المكى.

فوجهوا عباد الله قلوبكم إلى ربكم، وسلوه تعالى التوفيق لما به أمركم، والقيام لما به كلفكم، من طاعته سبحانه، وطاعة رسوله ﷺ، وطاعة أولى الأمر، والبر بالوالدين، ولو كانا كافرين، فليقل لهما قولاً ليناً ويعاشرهما بالمعروف.

قيل لرسول الله ﷺ: "أى الأعمال أفضل؟" فقال ﷺ: "بر الوالدين" (١). وقال ﷺ: "احفظ ودَّ أبيك لا تقطعه، فيطفىء الله نورك" (٢). والآيات فى ذلك كثيرة، والأحاديث شهيرة.

وعليكم بمحبة آل النبى ﷺ وإكرامهم، والبرور بهم وتعظيمهم، والقيام بواجب حقهم. فقد قال ﷺ: "من أحبهم، فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم" (٣).

ويلحق بذلك من انتسب إليهم، إذ لعلَّ وإن نالكم منهم ما تكرهون، فهبوه لجدِّهم الذى أنتم به مسلمون، ولا يكن لكم على أحد منهم تبعه يكون بها رهيناً عن دخول الجنة، فإنهم استوجبوها بشفاعه جدِّهم ﷺ لقوله: "سألت ربي أن لا يدخل أحدٌ من أهل بيتى النار، فأعطانيه" فلهم المنَّة علينا، ولو أسأؤوا إلينا، وتعظيمهم بتعظيم النبى ﷺ.

وعليكم بمحبة الصالحين، وزيارتهم أحياءً، وأمواتاً، والتبرُّك بآثارهم، ورحم الله القائل:

أَسْرُدُ حَدِيثَ الصَّالِحِينَ وَسَمِّهِمْ فَبِذِكْرِهِمْ تَنْزَلُ الْبَرَكَاتُ

(١) روى الإمام أحمد فى مسنده.

(٢) رواه البخارى فى الأدب المفرد.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

وَأَحْضَرُ مَجَالِسَهُمْ تَلَّ بَرَكَاتِهِمْ وَقَبُورَهُمْ زُرَّهَا إِذَا مَا مَاتُوا
[من البحر الكامل]

وعليكم بمجالسة المساكين، والبرور بهم، والرحمة لهم، وموالة المؤمنين، والنصيحة لهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وحفظ غيبتهم، وذكرهم بالخير، والذب عنهم، والسعى في مصالحهم، والإحسان إليهم، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وخصوصاً ما ورد في القرآن العظيم من ذى القربى، واليتامى، والمساكين، والجار ذى القربى والجار الجنب، والصاحب بالجنب، وابن السبيل، وما ملكت أيمانكم، وارعوا الجار، ولو جار.

فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"^(٢)، وقال ﷺ: "أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمناً"^(٣).
وكونوا من الذين قيل فيهم:

لَا يَفْطَنُونَ لَعَيْبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لِحَفْظِ جَوَارِهِ فُطُنٌ
[من البحر السريع]

وقال ﷺ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره"^(٤).
وقال ﷺ: "ليس منا من لا يأمن جاره بوائقه"^(٥).

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٥.

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند.

(٣) رواه الخرائطى.

(٤) رواه الإمام أحمد والشيخان والنسائى وابن ماجه.

(٥) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

وعليكم بتوقير الكبير، ورحمة الصغير، فإنه ﷺ قال: "ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف، وينه عن المنكر" (١)، وقال ﷺ: "لا تزال أمتي بخير ما دام صغيرها يوقر كبيرها، وكبيرها يرحم صغيرها" (٢).

وعليكم برحمة الضعفاء، والمساكين، والشفقة عليهم، ومواساتهم، والاعتبار بأحوال المرضى والمجانين، والمسجونين، والمبتلين، بما عافاكم الله منه، فذلك أعون لكم على شكر نعم الله عليكم، ومن رأى مبتلى فليقل: الحمد لله الذى عافانى مما ابتلى به هذا وفضلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقال ﷺ: "انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فذلك أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم" (٣).

وعليكم بصدق الحديث، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد: فمن عقد عقدة مع الله، لا سبيل له إلى نقضها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤)، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (٥).

فراقبوا مولاكم، تسعدوا، والجؤوا إليه فى جميع أموركم ترشدوا، ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٦).

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى.

(٢) لم أجد له فيما لدى من مصادر.

(٣) رواه الإمام أحمد ومسلم وابن ماجه.

(٤) سورة الفتح - الآية رقم ١٠.

(٥) سورة الرعد - الآية رقم ١١.

(٦) سورة آل عمران - الآية رقم ١٠١.

وإذا عدتم قابلية تحصيل العلم، وإدراك الفهم، فعليكم بما أنتم مكلفون به، ومسؤولون عنه، مما لا مندوحة لمسلم، مكلف عنه، ولا رخصة في الجهل به.

من معرفة أمور الدين، وكيفية الأخذ، وسلوك طريق المهتدين بالجد والاجتهاد، وصدق النية في الطلب، وملازمة أهل العلم، للأخذ عنهم بحسن الأدب، والمواظبة على مجالسهم، وكثرة البحث، ودوام التعلم. من غير استحياء، ولا تكبر، إذ لا ينال العلم مستح، ولا متكبر، والعلم كالماء لا ينتفع به إلا في الأماكن المنخفضة عن منبعه، وقد قيل: (شعر):

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ
واستعينوا على ذلك بمطالعة الكتب، والاكباب عليها، والتفهم فيها، فقد قالوا: النظر في الكتب نعيم، وتفهمها فتحٌ عظيم، وقالوا:
هَذَا الَّذِي لَمْ أَزَلْ أَطْوِي وَأَنْشُرُهُ حَتَّى بَلَغْتُ بِهِ مَا كُنْتُ أَمْلُهُ
فَدُمَ عَلَيْهِ، وَجَانِبٌ مِنْ يُجَانِبُهُ فَالْكُتُبُ أَنْفَعُ شَيْءٍ أَنْتَ حَامِلُهُ
[من البحر البسيط]

وما أحسن قول بعضهم - على طريق اللغز -:

لَنَا جُلَسَاءُ لَا يُمَلُّ حَدِيثَهُمْ أَلْبَاءُ مَأْمُونُونَ غَيْبًا وَمَشْهَدًا
يُفِيدُونَنَا مِنْ عِلْمِهِمْ عِلْمَ مَنْ مَضَى وَعُقْلًا، وَتَأْدِيًّا، وَرَأْيًا مُسَدَّدًا
فَلَا فِتْنَةٌ تُخْشَى وَلَا سُوءُ عِشْرَةٍ وَلَا تَقَى مِنْهُمْ لِسَانًا وَلَا يَدَا
فَإِنْ قُلْتَ أَحْيَاءَ فَلَسْتَ بِكَاذِبٍ وَإِنْ قُلْتَ أَمْوَاتًا فَلَسْتَ مَفْنَدَا
[من البحر الطويل]

وقال غيره:

نَعَمْ الْمَوَانِسُ، وَالْجَلِيسُ كِتَابُكَ تَلْهُو بِهِ إِنْ مَلَكَ الْأَصْحَابُ
لَا مُفْشِيًّا سِرًّا إِذَا اسْتَوْدَعْتَهُ وَتُنَالُ مِنْهُ حِكْمَةٌ وَصَوَابُ
[من البحر البسيط]

وعليكم بالاستماع، ممن هو أهلٌ للتَّبَاعِ، والناس أربعة: عالم،
ومتعلمٌ، ومستمعٌ، ومعرض. قال ﷺ: "كن عالماً أو متعلماً، أو مستمعاً،
ولا تكن الرابع فتهلك، قيل ومن الرابع يا رسول الله؟ قال: لم يعلم، ولم
يتعلم، ولم يستمع" (١).

قال الله العظيم: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢)، وقال ﷺ:
"طلب العلم فريضة على كل مسلم" (٣)، وقال ﷺ: "من طلب العلم،
تكفل الله برزقه" (٤)، وقال ﷺ: "من سلك طريقاً يطلب فيها علماً، سلك
الله به طريقاً إلى الجنة" (٥).

وقال ﷺ: "اطلبوا العلم، ولو بالصين" (٦).

وَلَيْسَ لَجَاهِلٍ فِي النَّاسِ مَعْنَى وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأْتَى
[من البحر الوافر]

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) سورة النحل - الآية رقم ٤٣.

(٣) راجع الجامع الصغير للسيوطي.

(٤) الجامع الصغير.

(٥) راجع الترمذي.

(٦) الجامع الصغير.

وقال مولانا - تبارك وتعالى - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١).

ولا عذر للجاهل مع وجود أهل العلم فى الاقليم الذى هو فيه، لا سيما وهم بمراى منه، ومسمع.

وقد روى أن جابر بن عبدالله رضى الله عنه رحل فى طلب حديث واحد، مسيرة شهر...! فليغتنم العبد أوقاته، ويستدرك ما فاتته، وبالله التوفيق.

وتعلم الشيء فى الصغر، كالنقش فى الحجر. وقيل:

تَعْلَمُ يَا أَخِي وَالْعُودُ رَطْبٌ وَذَهْنُكَ ثاقِبٌ وَالْفَهْمُ قَابِلٌ
[من البحر الوافر]

وقالوا: إِنَّ الشيطان يخدع الجاهل مرتين، فإن كان صغيراً، يقول له: الوقت متسع، ويغره بالأمل، حتى إذا كبر، وأراد التعلم، يقول له: أما تستحي...؟

تسأل عما يسأل عنه الصبيان؟ فيمسك، ويصبر على جهله، والعياذ بالله، ويرضى بالجهل، ولا يرضى بالتعلم، نسأل الله الهداية.

وإياكم أن تكون قراءتكم للمباهاة، والشفوف^(٢)، وطلب الحظ، والجاه، فيلحقكم بذلك العجب، ورؤية المزية لكم على الغير.

فإنَّ أشقى الناس من طلب الدنيا بعمل الآخرة، فهو كمن يشتري

(١) سورة الزمر - الآية رقم ٩.

(٢) الشفوف حب الظهور.

الزبل^(١) بالياقوت، بل بالكيماء الأعظم، ويفوتكم المقصود الأهم، الذى هو الخشية والعمل، والرغبة فى الآخرة. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢).

ودليل ذلك، إيثار الدنيا بالميل إلى أهلها، والإذعان إليهم، وتعظيمهم لأجلها، والاعتناء بما يصرف وجوههم إليكم، ويحظيكم عندهم.

من علم الأدب، والتاريخ، والنوادر، والأخبار، والاقتصار على ما يرجو نفعه فى العاجلة، ويبدأ أحدكم بقراءة القرآن، ثم يتركه، : ويشغل عنه، بما هو عنده أكثر مما يوصله إلى غرضه الدنيوى، وينسى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (٣).

وهذه الآية - وإن كانت نزلت فى الكافرين - فإنها تجر ذيلها على عصاة المؤمنين، وذلك مصداق قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ (٤).

ومن شقاوة الطالب - والعياذ بالله - أن يصرف همته عن قراءة الحديث، والتوحيد، وأحكام الديانات، وأدب الباطن، ومعرفة الطريق، وحفظ السنة النبوية.

(١) قال فى المختار: (الزبل) السرجين وموضعه (مزيلة).

(٢) سورة الشورى - الآية رقم ٢٠.

(٣) سورة طه - الآيات ١٢٤ - ١٢٦.

(٤) سورة القيامة - الآيتان ٢٠ - ٢١.

والعمل بها، ويعترض بسوء عقله على أهل الله، الواقفين على حدود الله، القائمين بسنة رسول الله ﷺ، ويغض منهم، وينكر عليهم فعل المباح، ولا ينكر على نفسه الباطل الصراح، ويعتد بالكرامة، ولا يعتبر بالاستقامة، ويقيس من غير مساواة.

وأحرى إذا لم يكونوا من جنس الطلب، فيقول: فلان يرى الخصوصية، وهو لا يصلح لسانه، وما سمع قول بعضهم وقد أحسن رضى الله عنه:

وَمَا يَنْفَعُ الْإِعْرَابُ إِنْ لَمْ يَكُنْ تُقَى وَمَا ضَرَّ ذَا تَقْوَى لِسَانٌ مُعْجَمٌ
[من البحر الطويل]

ويحتج بقولهم: ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا علمه، لظنه أن المراد بالعلم، المعقول والمنقول.

وليس الأمر كذلك، وإنما هو العلم بالله تعالى وافهم قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)، وهذا هو المعبر عنه عند الخاصة بعلم الأذواق، والعلم الموهوب، والعلم اللدنى.

وأما علم الأوراق، فهو الذى ينال بالتعلم، فشتان ما بينهما. وسبب الاعتراض على الأولياء رضى الله عنهم الجهل بما فتح الله سبحانه على قلوبهم من أنوار حبه، وخلع لهم من ملابس قربيه، فاستراحوا من كد المجاهدة، واستغرقوا دقائق أعمارهم، وحقائق أسرارهم، فى المراقبة، والمشاهدة.

(١) سورة يوسف - الآية رقم ٢٢.

حتى قال قائلهم: لو غاب عنى الله سبحانه طرفة عين، ما عدت نفسى من المسلمين. فأين من هؤلاء من تمسك بظواهر العلوم، وتحقيق الفهوم، ليشار إليه، ويعتمد عليه...؟ وقد قالوا: شتان ما بين من همته الحور والقصور، ومن همته كشف الستور، ودوام الحضور...!

لا سيما من كانت همته مزاحمة أرباب الصدور، ولما لم يهتدوا لتلك المسالك، ولا علموا ما هنالك، أنكروا ما لم يعلموا، ومن جهل شيئاً عاداه، كما قيل:

قَدْ تُنْكِرُ الْعَيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ مِنْ رَمَدٍ وَيُنْكِرُ الْفَمُ طَعْمَ الْمَاءِ مِنْ سَقَمٍ
[من البحر البسيط]

ومن كانت هذه حالته، فيا ليت له لم يكن طالباً...! فما عليه أضرُّ من طلبه. ورحم الله التجيبي القائل:

إِذَا مَا الْعِلْمُ لَمْ يَنْفَعَكَ أُخْرَى فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهِلْتَا
وَأَنْ أُوتِيَ فِيهِ طُولَ بَاعٍ وَقَالَ النَّاسُ: أَنْ قَدْ سَبَقْتَا
فَلَا تَأْمَنُ سَوَالُ اللَّهِ عَنْهُ بِتَوْبِيخٍ: عَلِمْتَ، فَهَلْ عَمِلْتَا؟..
[من البحر الوافر]

قال عليه السلام: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة، عالم لم ينفعه الله بعلمه" (١)، وأخبر عليه السلام عن أقوام يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم (٢)، فهم الذين حاقت بهم البلوى، وتحكمت فيهم الدعوى، وأعرضوا عن الآخرة

(١) رواه الطبرانى.

(٢) رواه الإمام أحمد فى المسند.

كل الإعراض، وسددوا لأولياء الله تعالى سهام الاعتراض، فأعقبتهم طرداً، وحرماناً، وغضباً من الله وخسراً، وهى سنة الله تعالى فيمن آذى أولياءه، ففى بعض الأحاديث القدسية: "من آذى ولياً، فقد بارزنى بالمحاربة" (١).

وقد ذكر الشيخ الشعرانى (٢) رضى الله عنه فى رسائله الكبرى، جماعة من الأكابر الذين سلبوا علمهم بالإنكار على المجاذيب، فما ظنك بمن ينكر على العارفين بالله تعالى...؟!.

كان بعض الفقهاء ينكر على شيخ وقته رضى الله عنه فمرض الفقيه مرة وعاده الشيخ، وكنت معه، فوجد عند رأسه وسادة مطرزة بالحرير، فعاتبه على ذلك.

وقال له الفقيه: لا يوسع على نفسه، فيغتر العامة، لأن زلة عالم يزل بها عالم، ثم دعا الشيخ بمنديل، وغطاها به، والفقيه يعتذر: ويقول: يا سيدى، النساء غلبتنا، فظهرت مزية العارف على العالم، ورحم الله القائل:

هل يستوى الناس قالوا كلنا بشر فالمنزل الرطب والطرף أعواد
قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: وماذا يضرك أن تكون
عبدالله، ولا علوم، ولا أحوال، ولا معارف...؟! فيكفيك من المعرفة،
العلم بالوحدانية، ومن العلم: محبة الله، ورسوله، والأنبياء، والصالحين،
وما زاد ففضل من الله.

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: قلت يوماً لشيخ كان يدرس العلم
بالجامع الأزهر: أراكم تعلمون الناس الوضوء، ولا تعلمونهم الصلاة...؟.

(١) لم نقف عليه.

(٢) الإمام عبد الوهاب الشعرانى، راجع الطبقات الكبرى بتحقيق الدكتور أحمد السايح
والمستشار توفيق على وهبه.

فقال: كيف ذلك. قلت له: إنكم تعلمون الناس العلم، ولا تحضونهم على ثمرته، التي هي العمل، فقال لى: صدقت، أرشدتني - جزاك الله خيراً - .

وقال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: رأيت شخصين جلسا يتجادلان فيما إذا ولدت الجارية ما نصفه جمل، ونصفه آدمى، هل تصير به أم ولد من بكرة النهار إلى الظهر؟ .

ولو قال أحدهم: لا إله إلا الله مرة واحدة، كان أفضل له. وقال رضى الله عنه: كان داود الطائى رضى الله عنه يقول: طالب العلم كالمحارب، إذا أراد المحاربة، جمع الآلات، فإذا أفنى عمره فى جمع الآلات، فمتى يحارب؟

وكذلك العلم، إنما هو آلة للعمل، فإذا أفنى الطالب عمره فى جمعه، فمتى يعمل؟ والعلم ليس له قرار يقف العبد عليه، ثم يرجع إلى العمل به .

وحكى أن أبا عصمة البغدادى، بات عند الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه لطلب الحديث، فوضع له الإمام أحمد، إداة فيها ماء للوضوء فى الليل .

فلما خرج الإمام أحمد لصلاة الصبح، وجد أبا عصمة نائماً، والإداة لم تستعمل، فقال: يا أبا عصمة، أتريد أن أحدثك بحديث رسول الله ﷺ وأنت تنام الليل لم تتهجد، اذهب إلى سبيك، ولم يحدثه شيئاً .

وقال فى العهود الكبرى: سمعت شيخنا، شيخ الإسلام زكريا، يقول: كل فقيه لا يجتمع بالقوم فهو كالحبز الحافى بلا إدام. وسمعت سيدى على الخواص رضى الله عنه يقول: لا يكمل طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد

من أشياخ الطريق، ليخرجه من رعونات النفوس، ومن مضرات تلبس النفوس.

ومن لم يجتمع على أهل الطريق، فمن لازمه التلبس غالباً، ودعوى العلم بلا عمل، وكل من نسبه إلى قلة العمل، أقام له الأدلة التي لا تقبل عند الله، ومن شك في قولي هذا، فليجرب، انتهى.

وقال بعض الفقهاء للشيخ سيدى محمد بن عبد الله رضى الله عنه: أوصنى فقال له: أوصانا الله تعالى، بقوله فى كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ (١).

ثم قال له: وإياك أن تكون طالباً صرفاً. يشير رضى الله عنه إلى الاختصار على معرفة جزئيات ظاهر العلم، وقصور الهمة عن طلب ما عند الله من المعارف، بالتعرض لنفحات رحمته، والتعلق بأهل خصوصيته، والتملق بين يديهم، والتخلق بأخلاقهم، فهم القوم لا يشقى بهم جليسهم:

قوم إذا عبث الزمان بأهله كان المفر من الزمان إليهم
قلوبهم سليمة، ومعرفتهم غنية، قد صفت قلوبهم من الأغيار،
وطهرت من دنس الأكدار، التصديق بهم ولاية، والاعتراض عليهم جناية.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: والإيواء إليهم عناية، وذكرهم من الأهوال وقاية، من رآهم ذكر الله، ومن أحبهم أسعده الله، ورحم الله القائل:

لى سادة من حبهم فوق الجباه

إن لم أكن منهم فلى فى ذكرهم عز وجاه

(١) سورة النساء - الآية رقم ١٣١.

وليس المراد بالقراءة مجرد الطلب، وإنما المراد القيام بما وجب، فليسلك العبد سبيل نجاته، وليتعلم ما ينفق بعد وفاته.

فائدتان:

الأولى: قال الشيخ ابن عباد رضى الله عنه: العلم النافع هو العلم بالله تعالى، وصفاته، وأسمائه، والعلم بكيفية التعبد له، والتأدب بين يديه، وقد استعاذ رسول الله ﷺ من علم لا ينفع. وقال الجنيد رضى الله عنه: العلم أن تعرف ربك، ولا تعدو قدرك. وقال فى التنبيه للشيخ سيدى محمد ابن عباد رضى الله عنه فكل علم لا خشية معه، لا خير فيه.

الفائدة الثانية: قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه فى التنوير، فى قوله ﷺ: (طالب العلم تكفل الله له برزقه)^(١).

اعلم أن العلم حيثما تكرر فى كتاب الله العزيز، وفى السنة، إنما المراد به العلم النافع الذى تقارنه الخشية، وتكتنفه المخافة. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢) فبين أن الخشية تلازم العلم.

وقال فى لطائف المنن: فشاهد العلم الخشية لله، وشاهد الخشية: موافقة الأمر. وأما العالم الذى تكون معه الرغبة فى الدنيا، والتملق لأربابها، وصرف الهمة لاكتسابها والجمع، والادخار، والمباهاة، والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد منك العلم.

ثم قال: ومثل من هذه الأوصاف أوصافه، كمثل الشمعة، تضىء على غيرها، وتحرق نفسها، وقد جعل الله علم من هذا وصفه، حجة عليه، وتكثيراً للعقوبة لديه، كما قيل:

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا.

(٢) سورة فاطر - الآية رقم ٢٨.

إِذَا الْعِلْمُ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ كَانَ حُجَّةً عَلَيْكَ وَلَمْ تُعْذَرْ بِمَا أَنْتَ قَائِلُهُ
[من البحر الطويل]

وكان الشيخ أبو العباس المقرئ رحمه الله يدرس العلم بالجامع الأزهر
حين ارتحل من فاس، واشتهر صيته في مصر، وانصرفت وجوه الناس إليه،
فلما فرغ المجلس يوماً، دنا منه رجل في أطمار بالية، كأنه من الفلاحين،
وأنشده سرّاً:

العلم لا ينفع إلا إذا عَمِلْتَ افهم كلام العُبيدِ
لو كان بالعلم الفتى صالحاً لكان إبليس نظير الجنيدِ
[من البحر الراجز]

فعلم أنه من أولياء الله تعالى. قال في الحكم: (العلم إن قارنته الخشية
فلك، وإلا فعليك) وقال رجل للشعبي: أيها العالم...! فقال: اسكت إنما
العالم من يخشى الله تعالى.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى رضى الله عنه:

كل علم لا يورث صاحبه الخشية، والتواضع، والنصيحة للخلق،
والشفقة عليهم، ولا يحمله على حسن معاملة الله، ودوام مراقبته، وطلب
الحلال، وحفظ الجوارح، وأداء الأمانة، ومخالفة النفس، ومباينة الشهوات،
فذلك هو العلم الذى لا ينفع.

تنبيه: قال سفيان الثوري رضى الله عنه: إنما يُتَعَلَّم العلم لِيَتَّقَى به الله،
فإن اختل هذا المقصد، وفسدت نية طالبه بأن يستشعر به التوصل إلى منال
دنيوى، من مال أو جاه، فقد بطل أجره، وحبط عمله، وخسر خسراً
مبيناً.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾^(١)، وقال الحسن البصري رضى الله عنه: إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره، ونهيه، وقال بعض الصالحين رضى الله عنهم: الفقيه، كل الفقيه، الذى لا يَقْنُطُ الناس من رحمة الله، ولا يُؤْمِنُهُمْ من عذاب الله، ولا يَرْخُصُ لهم فى معاصى الله. ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى غيره، وما على الفقيه وغيره أضر من ارتكاب الرُّخص، والتهاون بالمتشابه، فضلاً عن الحرام، فذلك يحدث فى القلب القساوة، ويصدّه عن قبول الخير، ومراقبة الله سبحانه. والله ولى التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١) سورة الشورى - الآية رقم ٢٠.

obeikandi.com

الباب الثاني
في
التوبة والاستغفار من الحوبة

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الثانى

فى التوبة... والاستغفار من الحوبة

التوبة: الرجوع من أفعال مذمومة، إلى أفعال محمودة.

وشرط صحتها: - ردُّ المظالم.

- واجتناب المحارم.

- والنية أن لا يعود.

قال ﷺ: "ردُّ درهم إلى ربه، أعظم عند الله من سبعين صلاة مقبولة"^(١)، فليندم التائب على ما فات من المخالفات، وليجزم أن لا يعصى الله أبداً، والأمر بعد ذلك إلى الله سبحانه، والمقضى كائن، والله غالب على أمره.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى بِجَدِّهِ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَلْقَى نَجَاحًا^(٢)
[من البحر الوافر]

والأعمال بالنيات، والتوبة واجبة من الكبائر والصغائر، ومستحبة من الشهوات الجائزة، وتأخيرها ذنب تجب منه التوبة، وثمرتها وفائدتها: التهيؤ للدخول لحضرة الملك سبحانه وهى منزهة عن دخول المصرين، ومحرمه عليهم.

(١) هذا الحديث لم نقف عليه فيما بين أيدينا من مصادر.

(٢) وهناك فى المعنى نفسه وعلى أن أسعى وليس على إدراك النجاح.

فائدة:

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: حضرة الله تعالى، محرم دخولها على كل من عليه تبعة لآدميين من مال، أو عرض، أو دم، يقدر على الوفاء بها؛ بدليل عدم صحة الصلاة لمن ترك من أعضاء الطهارة لمعة لم يغسلها.

وسياتى إن شاء الله أن بعض المشايخ أجاب عن مثل هذا بقوله: المكاتب عبد ما بقى عليه درهم.

وقد أمر الله سبحانه عباده بها، فى غير ما آية من كتابه الحكيم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(٣).

وكفى التائب شرفاً الفوز بحب الله تعالى لأنه سبحانه قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٤)، وقال ﷺ: "الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من أحدكم بضالته إذا وجدها"^(٥)، وفى رواية: "الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من الضال إذا وجد، والعقيم إذا ولد، والظمان إذا ورد"، وقال ﷺ: "الندم توبة"^(٦)، وقال ﷺ: "من ساءت سيئته، فهو مؤمن"^(٧).

(١) سورة التحريم - الآية رقم ٨.

(٢) سورة النور - الآية رقم ٣١.

(٣) سورة الحجرات - الآية رقم ١١.

(٤) سورة البقرة - الآية رقم ٢٢٢.

(٥) رواه الترمذى وابن ماجه.

(٦) رواه الحاكم والبيهقى.

(٧) رواه الطبرانى والحاكم.

ومن أعوزته التوبة فليعلم أن الله سبحانه تعرف إليه بوصفه القاهر، ليرجع العبد إلى التحقق بالعجز، والضعف، والافتقار، فيدعو ربّه من مقام العجز: يا قادر، ومن مقام الضعف: يا قوى، ومن مقام الفقر: يا غنى كما قال فى الحكم: (تَحَقَّقْ بِوَصْفِكَ يُمَدُّكَ بِوَصْفِهِ)، ﴿لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، فعلى العبد اللّجأ إلى مولاه فى تيسيرها، والجد فى طلبها، بترك المخالفات، والمصارعة إلى نوافل الخيرات.

فائدة:

قال بعض العارفين: رضى الله عنه من عَسُرَتْ عليه التوبة فليكثر من قوله: (اللهم... إنى أسألك بحق: بسم الله الرحمن الرحيم، تُبْ عَلَى إَنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ).

وهذا مع الأخذ فى السبب، بامتثال الأوامر، واجتناب النواهى، وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: قيل لى: (إن أردت كرامتين فعليك بطاعتى، والإعراض عن معصيتى، فإن زلت بغلبة الشهوة، وعظيم القدرة، فاعلم قُربى منك، ونظرى إليك، وإحاطتى بك، وقدرتى عليك، وقل: يا موجود... قبل كل موجود، وهو الآن على ما هو عليه موجود، يا أوَّلُ... يا آخرُ، يا ظاهرُ، يا باطن...).

ضاقَت على الأرض بما رَحِبَتْ، وضاقَت على نفسى، ولا منجا منك إلا إليك، فَتُبْ عَلَى لَأَتُوبَ، إَنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ).

وقال الشيخ سيدى أحمد زروق رضى الله عنه: مما يُعِين على التوبة، ويؤيِّد فيها، كثرة ذكر الله، والصلاة على رسول الله ﷺ، وأقرب ما يتوسَّل به المنقطعون: الاستغفار.

(١) سورة الطلاق - الآية رقم ١٢.

مع الصلاة على رسول الله ﷺ، هذا لمن رغب فيما عند الله تعالى وتعلقت همته بطلب رضاه، واشمأز قلبه من معصية الله، فijتهد فى الدعاء، وزيارة الصالحين، والتعرض لنفحات الله، وحضور مجالس الخير، وزيارة القبور، لتليين قسوة القلب، ومجاهدة النفس بمخالفتها.

ومن عرف ما قصد، هان عليه ما فقد، فمن طلب التوبة، سعى لها سعيها، ورجا مولاه الذى بيده ملكوت كل شىء، كما يطلب الرزق وهو مجتهد فى أسبابه.

وكان دعاء بعضهم رضى الله عنهم: (اللهم اغفر لى فإنى لا أقدر على التوبة)، قال الشيخ أبو القاسم القشيرى رضى الله عنه فى التعبير: ليس العجب من السآرة حيث طلبوا الماء، فوجدوا يوسف عليه السلام إنما العجب من عاص طلب المغفرة، فوجد الله غفوراً رحيمًا!!.

وافهم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١).

وأنشدوا:

وَلَوْ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَمَّا طَغَى وَقَالَ عَلَى اللَّهِ إِفْكًا وَزُورًا
أَنَابَ إِلَى اللَّهِ مُسْتَغْفِرًا لَمَّا وَجَدَ اللَّهَ إِلَّا غَفُورًا
قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢).

وقال ﷺ: "من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب" (٣).

(١) سورة النساء - الآية رقم ١١٠.

(٢) سورة المزمل - الآية رقم ٢٠.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده والحاكم فى مستدركه.

وقال ﷺ: "ما أصرَّ من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة" (١)،
والاستغفار واحد الأمنين لهذه الأمة. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٢).

فائدة:

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: إذا توجهَّ ولى
فى حاجة مكروب، ولم تُقَضَّ، فليرشد المكروب إلى الإكثار من الاستغفار،
فإنه يطفىء الغضب الإلهى ويبطل عنه العقوبات.

وقال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: فى كتاب الله آيتان، ما أصاب
أحد ذنباً فقرأهما، ثم استغفر الله إلا غفر الله له، وهما: قوله تعالى:
﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ
إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) أولئك جزاؤهم مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا﴾ (٤).

وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه: ما من عبد يقول: أستغفر الله الذى
لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه، إلا غفرت ذنوبه ولو فرَّ من الزحف.
قاله أبو نعيم فى حليته فى ترجمة زبيد.

(١) رواه أبو داود والترمذى فى سننه.

(٢) سورة الأنفال - الآية رقم ٣٣.

(٣) سورة آل عمران - الآيتان ١٣٥ - ١٣٦.

(٤) سورة النساء - الآية رقم ١١٠.

وأخرج أبو نعيم أيضاً: أن النبي ﷺ ضرب شجرة بعصا كانت بيده فتحات أوراقها، وقال: إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، تسقط الذنوب كما تسقط هذه الشجرة ورقها^(١).

وأفضل الاستغفار ما ذكره البخاري رضى الله عنه فى صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: (سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)^(٢).

وليحذر المكروب أن يطلب التفريج عنه بزيارة قبور الأولياء وهو مُصرٌّ على ذنوبه، فإن ذلك لا يكفى حتى يتوب، ويستغفر الله من ذلك. وكان بعضهم يقول إذا تسلّط عليه أحد: اللهم اغفر لى الذنب الذى سلّط به علىّ هذا.

ومن فوائد الاستغفار: تفريج الكروب، وتكفير الذنوب والتطهّر لدخول حضرة المحبوب، ونيل المراد، وتوالى الإمداد.

قال تعالى: حاكيا عن نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴿٤﴾﴾.

(١) روى الترمذى فى كتاب الدعوات.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده، والنسائى.

(٣) سورة نوح - الآيات ١٠ - ١٢.

(٤) سورة هود - الآية رقم ٣.

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام سأله بنو إسرائيل أن يستسقى لهم فرفع يديه إلى السماء، وقال: يا ربنا اغفر لنا، يا ربنا... اغفر لنا، يا ربنا اغفر لنا، فقال له قومه: يا نبي الله... سألناك أن تستسقى لنا، فطلبت المغفرة...! فأحى الله تعالى إليه: يا موسى... قل لهم: إذا غفرت لعبادى، أصلحت لهم دينهم، ودنياهم.

وقال أحد العارفين بالله تعالى رضى الله عنه: الاستغفار أنفع العبادات لأهل هذا الوقت الذى كثرت فيه المخالفات.

وفى الخير: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له، والمستغفر من الذنب وهو مُصِرٌّ عليه، كالمستهزئ بآيات الله عز وجل)^(١).

وقد كان بعضهم يقول: استغفر الله من قولى: استغفر الله، أى من غير توبة، وندم بالقلب. وقد قيل فى الخبر: (الاستغفار باللسان عن غير توبة، وندم بالقلب، توبة الكذابين)^(٢).

وكانت رابعة العدوية تقول: استغفارنا هذا يحتاج إلى استغفار.

نسأل الله تعالى أن يَمُنَّ علينا بغفرانه، ويعاملنا بدوام فضله وإحسانه آمين... وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

(١) رواه البيهقى وابن عساكر.

(٢) لم نقف عليه.

obeikandi.com

الباب الثالث
فى التقوى والاعتصام
بجبل الله الأقوى

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الثالث

فى التقوى...

والاعتصام بحبل الله الأقوى

التقوى: هى اتقاء عذاب الله سبحانه بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، ومن اتقى شيئاً، جعل بينه وبينه وقايةً.

والعبد يتقى عذاب سيده بطاعته، والتقوى: فرع الإيمان، ودليل الإيقان، ومفتاح السعادة، وسبب الفتح والزيادة، والمعارف والإفادة.

وهى فعل الواجبات المعلومة، وترك المحرمات المشهورة، قاله الشيخ زروق.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بها، فى كثير من آيات القرآن العظيم، كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا فَاتَّقُونِ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِنَنْظُرْ نَفْسًا مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٤١.

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٩٧.

(٣) سورة لقمان - الآية رقم ٣٣.

(٤) سورة الحشر - الآية رقم ١٨.

(٥) سورة الأنفال - الآية رقم ١.

وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾^(٣)... إلى غير ذلك من الآيات الكريمة، الواردة بالأوامر العظيمة، ولكثرة الترغيب فيها، ذكرها الله تعالى في نحو مائتى موضع، قاله السَّائى فى شرح المختصر، وقيل:

ولا عيشَ إلا مع رجالٍ قُلُوبُهُمْ تُحَنُّ إِلَى التَّقْوَى وَتَرْتَاحُ لِلذِّكْرِ
[من البحر الطويل]

قاله ذو النون المصرى.

فمن أراد أن يفتح الله عليه بركات من السماء والأرض، ويجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ويكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجراً.

ويجعل له من أمره أسراً، ويكون معه، ويحبّه، وينجيّه، ويكون من الفائزين: فليَتَّقِ اللَّهَ، فإن الله تعالى قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾^(٥) ويرزقه من حيث لا يحتسب^(٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً﴾^(٦)، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾^(٧).

(١) سورة الحشر - الآية رقم ١٨.

(٢) سورة المائدة - الآية رقم ٩٦.

(٣) سورة النساء - الآية رقم ١٣١.

(٤) سورة الأعراف - الآية رقم ٩٦.

(٥) سورة الطلاق - الآيتان ٢ - ٣.

(٦) سورة الطلاق - الآية رقم ٥.

(٧) سورة الطلاق - الآية رقم ٤.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿وَيَنْجِي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغَافَاتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٥).
نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

قال الشيخ الورعجي^(٦) رضى الله عنه على طريق الإشارة فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾^(٧) الآية.

قل معناه: لو أنهم صدّقوا وعدى، واتقوا مخالفتى، لنورت قلوبهم بمشاهدتى، وهى بركة السماء، وزينت جوارحهم بخدمتى، وهى بركة الأرض وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾^(٨).

فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثاره، وهى الموافقة، والقلب المظلم يظهر على الجوارح آثاره، وهى المخالف، وليكن مقصود العبد بالتقوى موافقة أمر الله العظيم، وإجلاله تعالى عن مخالفة أمره.

(١) سورة التوبة - الآية رقم ٤.

(٢) سورة النحل - الآية رقم ١٢٨.

(٣) سورة النور - الآية رقم ٥٢.

(٤) سورة الرعد - الآية رقم ٣٥.

(٥) سورة الزمر - الآية رقم ٦١.

(٦) لم نعثر على ترجمة له.

(٧) سورة الأعراف - الآية رقم ٩٦.

(٨) سورة الأعراف الآية رقم ٥٨

لا لجلب مصلحة منه فإنه إن كان يتقى الله، لجلب مصلحة فقط، كان المتقى ممن يعبد الله على حرف.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: إذا اجتمعت النفوس على ترك المعاصي، جالت في الملكوت، وعادت بطرائف الحكمة. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ (١).

وقال أبو تراب النخشبى (٢) رضى الله عنه: إذا أجمع الرجل على ترك الذنوب أتته الأوراد من الله من كل جانب.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: إذا ترك العبد لله معصية، عوّضه الله منها طاعة، ثم يثيبه على تلك الطاعة، بطاعة أخرى، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقال جعفر بن محمد رضى الله عنهما: من أخرجته الله من ذلّ المعصية، أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وأنسه بلا بشر. وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: على قدر الخروج من الذنوب، تكون الإفاقة للقلوب.

وفى بعض الكتب المنزلة: ما أنصفتنى عبدى، أستحى أن أعذبه، ولا يستحى أن يعصينى، ألم يعلم بأن الله يرى...؟!.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: أبى الله إلا أن يُذلّ من عصاه فى الدنيا والآخرة بين الناس، وما أذنب عبد فى الليل، إلا أصبح ومذلته على وجهه.

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٢٨٢.

(٢) هو الإمام العارف بالله تعالى، زاهد عصره عسكر بن الحصين النخشبى أبو تراب، اشتهر بكنيته هذه حتى لا يعرف إلا بها وهو من أهل نخشب من بلاد ما وراء النهر.

وفى المعصية من الآفات ما لا يحصى :

منها: تسليط الظلمة: فقد قال بعضهم: من ارتكب معصية، سلَّط الله عليه ظلاماً.

ومنها: قلَّة البركة وتعسير الرِّزْق والاحتقار فى العيون:

قال ابن السَّمَّاك^(١): رضى الله عنه: لو لم يكن فى المعصية إلا النكارة فى الوجه، والظلمة فى القلب، واللعة فى الذكر، والإسقاط للشهادة، والخوف على النفس، لكان فى ذلك كفاية، ولو لم يكن فى الطاعة إلا ظهور نور الوجه، وبهاؤه.

والمحبة فى القلوب، والقوة فى الجوارح، والأمن على النفس، والتجوز للشهادة، لكان فى ذلك كفاية. قاله فى العهود.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه حين وجهه أميراً إلى العراق: يا سعد، سعد بنى أهيب، عليك بتقوى الله، فإن الله لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، ولا يغرنك أنك يقال: صاحب رسول الله ﷺ، وخال رسول الله.

فإن الله عز وجل ليس بينه وبين أحد سبب إلا طاعته، فالناس شريفهم، ووضيعهم، فى ذات الله سواء، الله ربهم، وهم عباده، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، ألم تسمع لقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَرْعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ ٨٩ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ (٢).

(١) هو أبو العباس محمد بن صبيح العجلي مولا هم، الكوفى، ابن السَّمَّاك.

(٢) سورة النمل - الآيتان ٨٩ - ٩٠.

وقال له أيضاً: رضى الله عنه: واعلم أن خشية الله تجتمع لك فى أمرين: فى طاعته، واجتناب معصيته، وإنما أطاعه من أطاعه بحب الآخرة، وبُغض الدنيا، وعصاه من عصاه، بحب الدنيا، وبُغض الآخرة.

وقال ﷺ: "إذا أراد الله بعبد خيراً استعمله، فقل: كيف يستعمله يا رسول الله..؟ قال: يوفقه لعمل صالح قبل الموت".

وقال ميمون بن مهران رضى الله عنه: إن الرجل ليلعن نفسه وهو لا يشعر.

قل له: كيف؟ فقال: يقرأ (ألا لعنة الله على الظالمين) وقد ظلم نفسه بالمعاصى وظلم الناس بالوقوع فى أعراضهم.

وقيل لرابعة العدوية رضى الله عنها: أتحيين الموت؟ فقالت: لو عصيت آدمياً، لخرجت من لقائه...! فكيف وقد عصيت ربى عز وجل...؟!

وسئل الشبلى^(١) رضى الله عنه عن مكر الله تعالى...؟ فقال: مكره بهم تركه إياهم على ما هم عليه...!، وقال غيره: لا يأمن من المكر، إلا من هو غريق فى المكر، فلا يرى المكر به مكرًا...!.

وأما أهل اليقظة، فإنهم يخافون المكر فى جميع الأحوال، إذ السوابق جارية، والعواقب خفية، قاله الشيخ الورعجى رضى الله عنه.

والحسنة تستدعى حسنة أخرى، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾^(٢) والسيئة مانعة من فعل الحسنات، وهى مفتاح باب السيئات،

(١) شيخ الطائفة أبو بكر الشبلى البغدادى قيل اسمه دُلف بن جحدر ولد بسامراء وأصله من الشبلية قرية - كان فقيهاً عارفاً عارفاً بمذهب مالك وكتب الحديث عن طائفة وقال الشعر وله ألفاظ وحكم وحال وتمكن.

(٢) سورة مريم - الآية رقم ٧٦.

فمن فتح على نفسه باب معصية، هانت عليه الخطايا، وتوالت عليه السيئات.

وقال بعضهم: بقدر الاتِّباع، يكون الانتفاع.

وقال في الحلية: قيل لمالك بن دينار^(١) رضى الله عنه:

أوصنى... فقال: اتق الله في خلواتك، وحافظ على أوقات صلواتك، وغضَّ طرفك من لحظاتك، تكن عند الله مقبولاً في حالاتك.

فائدة:

قال بعض الصوفية رضى الله عنهم: ما تطبَّع أحد بشيء أربعين يوماً إلا تخلق به.

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه: مثقال ذرة من برٍّ مع تقوى، ويقين، أفضل، وأعظم، وأرجح، من أمثال الجبال من عبادة المغترِّين.

وقال إبراهيم بن أدهم^(٢) رضى الله عنه: أثقل الأعمال في الميزان، أثقلها على الأبدان، ومن وقَّى العمل، وقَّى الأجر، ومن لم يعمل، رحل إلى الآخرة صفر اليدين.
ولله درُّ القائل:

تُرِيدُونَ إِدْرَاكَ الْمَعَالَى رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ
[من البحر الطويل]

(١) هو مالك بن دينار البصرى.

(٢) سيد الزهاد أبو إسحاق العجلي إبراهيم بن أدهم، حلية الأولياء - الأصفهاني، الشذرات.

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه: من عرف وحشته فى القبر، طلب ما يؤنسه فيه، وليس إلا صالحُ عمله، ومن عرف وقوفه بين يدى الله، استحيا منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه: رأيت فى بعض الكتب المنزلة: يا عبدى... أظننى فيما أمرتك، ولا تعلمنى بما يصلحك، إني عالم بخلقى. إنما أكرم من أكرمنى، وأهين من هان عليه أمرى، ولست بناظر فى حق عبدى، حتى ينظر عبدى فى حقى.

وقال حذيفة بن اليمان رضى الله عنه: ما استخف قوم بحق الله سبحانه، إلا بعث الله عليهم من يستخف بهم وبحقهم.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: إذا ثقل الذكر على لسانك، وكثر اللغو من مقالك، وانسبطت الجوارح فى شهواتك، وانسد باب الفكرة فى مصالحك.

فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك، أو لكمون إرادة النفاق فى قلبك، فليس لك طريق إلا التوبة، والإصلاح والاعتصام بالله، والإخلاص فى دين الله تعالى ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، فتأمل هذا إن كنت فهيماً.

وقال رضى الله عنه: ومن أخلد إلى أرض الشهوات، واتبع الهوى، ولم تساعده نفسه على التخلّى، وغلب عن التحلّى، فعبوديته من أمرين:

أحدهما: معرفة النعمة من الله تعالى، فيما وهب له من الإيمان، والتوحيد، إذ حبّبه فى قلبه، وزيّنه، وكرّه إليه الكفر، والفسوق،

(١) سورة النساء - الآية رقم ١٤٦.

والعصيان، فيقول يا رب... أنعمت علىَّ بهذا، وسميتني راشداً، فكيف أياأس منك؟..

وأنت تمدني بفضلك...؟ وإن كنت متخلفاً فأرجو أن تقبلني وإن كنت زائغاً!.

والأمر الثاني: اللجأ إلى الله تعالى، والافتقار إليه دائماً، ويقول: يا رب... سلّم، سلّم، ونجّني، وأنقذني.

فلا طريق لمن غلبت عليه الأقدار، وقطعته عن العبودية المحضة لله تعالى، إلا هذان الأمران، فإن ضيَّعهما، فالشقوة حاصلة، والبعد لازم - والعياذ بالله -.

قال الشيخ أبو العباس سيدي أحمد زروق رضى الله عنه: يستحق أن يكتب بماء الياقوت، لموافقته أحوال أمثالنا، ودلالته على ما يصلحنا، وفقنا الله تعالى للعمل ورزقنا الإيمان بالعبودية، بمنّه، وكرمه، وجوده، وفضله.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه فى لطائف المنن: وما أكرم الله تعالى العباد فى الدنيا والآخرة كرامة بمثل الإيمان بالله، والمعرفة بربوبيته، لأن كل خير من خير الدنيا، والآخرة.

فإنما هو من فرع الإيمان بالله، من أحوال، ومقامات، وأوراد واردة، وكل نور، وعلم، وفتح، ونفوذ إلى غيب، وسماع مخاطبة، وجريان كرامة، وما تضمّنته الجنة من حور وقصور، وأنهار وثمار، أو كان به أهلها فيها من رضى عن الله عزّ وجلّ، ورؤية لله.

فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان، ووجود آثاره، وإمداد أنواره، جعلنا الله وإياكم من المؤمنين بربوبيته، ومنّ علينا بالإيمان، الذى رضىه لخاصّة عباده، وبسطنا وإياكم بالتسليم له فى مراده... آمين. انتهى.

فائدة:

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: جمع الله سبحانه لعبده المؤمن، أنواع الخيرات والبركات، والأنوار، والمواهب، والفتوحات، وخير الدنيا والآخرة، فى حرفين: أن يعرف معبوده ويعبده.

وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه من تحقق برتبة الإيمان، علم أن جميع المراتب تصاحب الإيمان، كمصاحبة الواحد لمراتب الأعداد، الجزئية، والكلية، إذ هو أصلها الذى تَبَتُّ عليه فروعها، وثمارها، فحقُّ على من ألبسه الله حلة الإيمان، أن يحفظها من دَرَنِ العصيان، وأولى ما يستعين به العبد على ترك المعاصى، تذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٢).

وسئل بعضهم، عما يستعين به العبد على حفظ البصر؟ فقال: يستعين عليه بعلمه أن رؤية الله عزَّ وجلَّ، سابقة إلى نظره إلى ما ينظر إليه. وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ (٣).

وقال سيدى، أبو العباس المرسى رضى الله عنه: إن الله جعل آدمى ثلاثة أجزاء، لسانه جزء، وجوارحه جزء، وقلبه جزء، وقد طلب من كل جزء وفاء، فوفاء القلب: أن لا يشتغل بهم رزق، ولا كِبَر، ولا حسد. ووفاء اللسان: أن لا يغتاب، ولا يكذب، ولا يتكلم فيما لا يعنيه.

(١) سورة يونس - الآية رقم ٦١.

(٢) سورة الحديد - الآية رقم ٤.

(٣) سورة النور - الآية رقم ٣٠.

ووفاء الجوارح: أن لا يسارع بها فى معصية، ولا يؤذى بها أحداً من المسلمين، انتهى.

وفى المعاصى أيضاً آفتان: زوال النعمة، وحلولُ النعمة. ورحم الله القائل:

إذا كنت فى نعمة فارعها فإن المعاصى تزيل النعم

وكل معصية تحدث فى القلب ظلمة، فإذا كثرت المعاصى،: استولت الظلمة على القلب، وطُمت البصيرة، والعياذ بالله.

وقال ﷺ: "من خاف الله أخاف الله تعالى منه كل شىء، ومن لم يخف الله، أخافه الله من كل شىء" وقال ﷺ: "من رضى من الله عز وجل باليسير من الرزق، رضى الله منه باليسير من العمل"^(١).

وقد جعل الله سبحانه أصناف الموابه فى أنواع الطاعات، فمن فاته نوع من أنواع الطاعات، فاته صنف من أصناف الموابه. كما قيل:

عَلَى قَدْرِ تَقْوَى اللَّهِ تَأْتَى الْمَوَابِهُ وَتَأْتَى عَلَى قَدْرِ الذُّنُوبِ الْمَصَائِبُ
[من البحر الطويل]

قال وهب بن منبه رضى الله عنه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود.. من غصَّ طرفه، وصان فرجه، وحفظ لسانه، فهو عندى من المقرَّبِينَ. يا داود.. من لقينى وهو يراعى غيرى دونى، سقط من عين رعايتى يا داود..

ما عظمنى من عصانى، يا داود.. انقطعْ إلىَّ، أنكسْ لك رؤوس الملوك، وألبس وجهك المهابة. يا داود.. طهر ثيابك الباطنة، وأما الظاهرة فلا تنفعك عندى.

(١) رواه البيهقى فى سننه.

وقال الشيخ القشيري رضى الله عنه: اعلم... أن القلوب مجبولة على أن تتحمل المشاق من الأكابر، والأعزة، والانقياد لأحكام من تجلُّ رتبته بمواطاة القلب.

ولهذا قيل: إنما يعرفه عزيزاً من أعزِّ أمره، وطاعته، فأما من استهان بأوامره، فمن المحال أن يكون متحققاً بعزّه.

ومن هذا المعنى، ما حكى أن رجلاً قال لبعض العارفين: كيف الطريق إليه؟

فقال: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، فقال: لا أعبد من لا أعرفه. فقال المسؤول: أتعصى من تعرفه؟! فبهت السائل.

وصاحب التقوى محفوظ في حياته، ويحفظ الله تعالى أولاده بعد وفاته.

قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(٢)، وهو الجد السابع.

وقال تعالى: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾^(٣)، وقد ورد في الحديث: "إن الله يحفظ الرجل الصالح في أهله وولده، فيحفظه به إذا شهدته، وينوب عنه إذ فُقد" ^(٤).

وأخرج أبو نعيم في حليته، في ترجمة مجاهد: إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده. وعنه: أن عيسى عليه السلام قال: طُوبى للعبد

(١) سورة النساء - الآية رقم ٩.

(٢) سورة الكهف - الآية رقم ٨٢.

(٣) سورة مريم - الآية رقم ٢٨.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ وإنما له شواهد في معناه تؤيده.

الصالح، طُوبَى له . . . كيف يَخْلُفُهُ الله فيمن ترك بخير. وذلك يرجع - عند العلماء - إلى مصالح الدنيا، ومنافعها، قاله في الممتع عن الشيخ أبي المحاسن رضى الله عنه.

والعبد الصالح يعاقب بفعله أحفاده: فقد ورد في بعض الكتب المنزلة: (أنا الربُّ الودود، أعاقب الأحفاد بما منع الجدود).

والظلم من أعظم المعاصي: وهو لغة: وضع الشيء فى غير محله. وظلم كل واحد بحسبه.

قال ﷺ: "الظلم تحت جناح كل أحد، القدرة تظهره، والعجز يخفيه" (١) ونظمه المتنبي فقال:

وَالظُّلْمُ مِنْ شَيْمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجَدُّ ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لَا يَظْلَمُ

[من البحر الكامل]

فالْمُؤْمِنُ تمنعه التقوى، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلَمْ مِّنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ (٢).

قال ﷺ: "الظلم ظلمات يوم القيامة" (٣).

وقال ﷺ: "اتقوا دعوة المظلوم فليس بينها وبين الله حجاب" (٤).

وروى ابن مسعود رضى الله عنه: أن النبي ﷺ قال: "يؤخذ بيد العبد

(١) لم نقف عليه.

(٢) سورة الفرقان - الآية رقم ١٩.

(٣) رواه البخارى والترمذى.

(٤) أخرجه أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى المسند.

يوم القيامة على رؤوس الأشهاد، فينادى مناد: ألا منك له حق على هذا فليأخذه" (١).

وقيل: لا يكون شيء أشدَّ على أهل القيامة من أن يرى من يعرفه مخافة أن تكون له عليه تبعة.

والظلم على أنواع، وكلها ترجع إلى الإضرار بالناس، كمَطل الغنى، وإلقاء الأذى فى الطريق، فما فوق ذلك من الغيبة، والنميمة، والقذف، وأكل أموال الناس بالباطل، والتعدى، والسخرية، وغير ذلك من المنهيات.

وقد قال وهب بن منبه رضى الله عنه: أعظم الذنوب بعد الشرك بالله السُّخْرية بالناس. وفى ذلك قيل:

كُنْ كَيْفَ شِئْتَ فَإِنَّ اللَّهَ ذُو كَرَمٍ وَمَا عَلَيْكَ إِذَا تَلَقَّاهُ مِنْ بَاسٍ
إِلَّا اثْنَيْنِ فَلَا تَقْرِبُهُمَا أَبَدًا الشَّرْكُ بِاللَّهِ وَالْإِضْرَارُ بِالنَّاسِ

[من البحر البسيط]

وقلَّ ما خلتُ معصية عن الإضرار بالناس.

قال سيدى أبو المواهب رضى الله عنه: من ادَّعى أنه بر فلا يؤذ الذر وكثيراً ما ورد من النهى عن ذلك فى آيات عظيمة، وأحاديث كريمة، لمن وفقه الله سبحانه لفهم كلامه، واتباع أحكامه.

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: مثل الذى يقرأ القرآن، ويعمل به، والذى يقرأه ولا يعمل به كمثلى قوم، ورد عليهم كتاب من الملك، يأمرهم فيه بكذا، وينهاهم عن كذا، فتلقته طائفة منهم بالإجلال، والتعظيم،

(١) لم نقف عليه.

والمبرّة، والتكريم، ومراعاة رسوله، وأداء حقّه من التوقير، والتشريف، والمحبة له، والفرح به.

ورأوا نفوسهم أحقرّ من مواجعتهم بخطاب الملك الجليل، ولم يكونوا من قبل شيئاً، فأقلعوا فى الحين عمّا نهاهم عنه، وسارعوا إلى ما أمرهم به، وعملوا بمقتضى الكتاب، وتفهموا ما تضمنه من شريف الخطاب، ولم يزالوا يعظّمون الرسول بتعظيم المرسل، ويراجعون الكتاب، ويتعاهدونه، خوف التقصير فى العلم بما جاء به، فهم بين فرح بالملك، والرسول إليهم، وخوف من عدم القيام بالواجب عليهم، وشكر نعمته لديهم.

فلما رأى الملك صدق نيّتهم، ومجاهدتهم فى خدمتهم، خلع عليهم ملابس قربه، وسقاهم من شراب حبه، فلهجوا بذكره، وقاموا بواجب شكره، فرحين بالمرسل والرسول، لكونهم سعدوا بطلعته الكريمة، وشرفوا بواسطته التى هى الغنيمة العظيمة، فباعوا أنفسهم وأموالهم فى رضاه، وهان عليهم كلُّ ما سواه، فكانوا به قائمين، وبحبه هائمين، فرضى عنهم الملك، ورضوا عنه...

وأما الطائفة الأخرى، فإنهم تناولوا الكتاب، بيد كسلان، وقرؤوه قراءة العجلان، ونبدوه وراء ظهورهم، واشتغلوا عنه بمصالح أمورهم، لكنهم يتعاهدونه للمباهاة، والافتخار.

من غير تدبر كلماته، ولا اعتبار، يمرون عليها وهم عنها معرضون، كم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه، فأعقبهم ذلك قطيعة وبعداً، وإهانة، وطرداً، فأصمّمهم، وأعمى أبصارهم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (١).

(١) سورة محمد ﷺ - الآية رقم ٢٤.

شغلهم الأهلون، والأموال، وخاضوا بحار الفتن، والأهوال، أولئك الذين خسروا أنفسهم، وجعلوا بزينه الدنيا أنسهم ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

قال الشيخ سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه فى رسائله الكبرى: العبد إذا انصرف على باب مولاه، بعد أن أَلَفَه ووالاه، لا يبعث المولى وراءه ورسولا، ولا يلفظ له فى إشهداه ما يوجب له رجوعاً، وقبولاً، بل يُحَلَّى له حالته التى اختارها لنفسه، ويحسن له ضلالته إلى أوان حلوله فى رمسه: **أَرْضَ لِمَنْ غَابَ عَنْكَ غَيْبُهُ فَذَاكَ ذَنْبٌ عِقَابُهُ فِيهِ** والذنب فى القرب، ليس كالذنب فى البعد، فهذا يرجى له الغفران، وذلك يوجب الطرد والحرمان، قاله بعض المشايخ.

وإذا كان المولى سبحانه يتقرب ذراعاً لمن تقرب منه شبراً، وباعاً لمن تقرب منه ذراعاً، ويأتى هرولة لمن يأتيه مشياً (٢) ذلك يفعل مع من تباعد عنه، واختار بدلاً منه، سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم. اللهم اجعلنا من عبادك المتقين، الراشدين، الموفقين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١) سورة الأنعام - الآية رقم ٨١.

(٢) رواه البخارى.

الباب الرابع
فيما ورد في
الصلاة وفضلها وذكر أحوالها

obeikandi.com

الباب الرابع

فيما ورد فى الصلاة وفضلها وذكر أحوال أهلها

الصلاة أم العبادات، وأساس الخيرات، وطهرة القلوب، ومفتاح الغيوب، وكفارة الذنوب، ووسيلة المحب إلى رضى المحبوب.

وقال ﷺ: " الصلاة نور المؤمن " (١).

وقال ﷺ: " الصلاة عماد الدين " (٢)، وقال ﷺ: " الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد " (٣)، وقال ﷺ: " عَلمُ الإيمان الصلاة " (٤) وقال ﷺ: " أول ما يحاسب به الصلاة "، وقال ﷺ: " خمس صلوات كتَبهنَّ الله على عباده، فمن جاء بهنَّ كاملة لم يضيعَ منهنَّ شيئاً استخفافاً بحقهنَّ، كان له عند الله عهداً أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهنَّ كاملة لم يكن له عند الله عهدٌ " (٥).

وقال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: ورد فى الحديث: " أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه سائر أعماله، وإن وجدت ناقصة ردَّ عليه سائر عمله ".

وفى الحديث أيضاً: " من لم يتم ركوعها، ولا سجودها، ولا خشوعها، خرجت وهى سوداء مظلمة تقول لصاحبها ضيَّعك الله كما ضيَّعتنى ".

(١) انظر الكنز.

(٢) رواه البيهقى فى سننه.

(٣) الحديث بتمامه: (موضع الصلاة من الدين كموضع الرأس من الجسد) رواه الديلمى عن ابن عمر رضى الله عنهما. (الكنز ٧ / ٣٠٠).

(٤) لم نقف عليه.

(٥) رواه الإمام أحمد فى المسند.

وكان عبدالله بن مسعود رضى الله عنهما يقول: ركعتان مع حضور قلب، خير من ألف ركعة والقلب ساه. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ (١).

وقال فى لطائف المنن: إذا صلّى المؤمن صلاة فتقبلت منه،: خلق الله تعالى من صورته صورةً فى ملكوته رابعةً، ساجدة، إلى يوم القيامة، وثواب ذلك لصاحب الصلاة.

وشأن المصلى أن يشاهد عظمة المولى جلّ جلاله ويقطع نظره عن كل ما سواه، ويستحضر خطاياها، وذلك هو الحامل على الحياء، والخوف، واعتبر ذلك بوقوف الجانى بين يدى الوالى، هل يسعه الالتفات عنه، وإشغال خاطره بغير ما هو بصدده؟..

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه: كلُّ توجّهٍ لا يشعر صاحبه بعظمة الربوبية، وذلّ العبودية، فهو تلاعب.

وقد أخبر سبحانه أنّ المراد من الصلاة الذكر، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (٢)، وقد روى معنى ذلك عن النبى ﷺ: "إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ، وأمر بالطواف، وأشعرت المناسك، لإقامة ذكر الله".
فلذلك، كانت قرّة عين حبيب الله ﷺ (٣).

وفى بعض الأخبار: (أن العبد إذا قام إلى الصلاة، رفع الحجاب بينه وبينه، وواجهه بوجهه، أى وجه قلبه، وقامت الملائكة من لدن منكبیه إلى الهواء، يصلون بصلاته، ويؤمنون على دعائه، وإن المصلّى لينتشر عليه البرُّ من عنان السماء، إلى مفرق رأسه، وينادى مناد: لو يعلم المناجى من يناجى، ما

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٤٥.

(٢) سورة طه - الآية رقم ١٤.

(٣) لقوله ﷺ: «وجعلت قرّة عيني فى الصلاة».

انفتل...!، وإن أبواب السماء تفتح للمصلى، وإن الله تعالى يباهى ملائكته، بصفوف المصلين).

وقال ﷺ: "ما التفتَ عبدٌ قطُّ في صلاته، إلا قال له ربه: أين تلتفت يا ابن آدم؟.. أنا خيرٌ لك مما تلتفت إليه".

وقال سيدى - داود الباخلي - رضى الله عنه: ما من عبد يتوجه إلى الله تعالى بعمل من غير حضور قلب، إلا وينادى عليه: أين قلب هذا العبد؟. أثبتوا ديوان عمله حيث كان قلبه.

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه: ما حضرت صلاةً مكتوبةً قطُّ، حتى ينادى مناد: يا بنى آدم... قوموا إلى نيرانكم التى أجتموها على أنفسكم، فأطفئوها^(١) بصلاتكم.. كذلك فى كل صلاة.

وقال لقمان رحمه الله لابنه: يا بنى.. أصلح صلاتك التى فرضت عليك، فإنَّ مثلَ الصلاة المفروضة، كمثّل السفينة فى البحر، إن سلمت، سلّم من فيها، وإن هلكت، هلك من فيها.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: اطلبوا اللذة فى ثلاثة أشياء فى الصلاة، والذكر، والقراءة، فإن لم تجدوا ذلك، فاعلموا أن الباب مغلق.

والمطلوب من العبد، إقامة الصلاة، لا صورة الصلاة، وما كلُّ مصلٍّ مقيم، ولذلك... كان أكثر مما ورد فى القرآن من لفظ (الصلاة)، مقروناً، بلفظ الإقامة. قال تعالى: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(٢)، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾^(٣)، ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾^(٤)، ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾^(٥)، ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(٦).

(١) الصحيح: فأطفئوها.

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ٣.

(٣) سورة النساء - الآية رقم ١٦٢.

(٤) سورة الأنبياء - الآية رقم ٧٣.

(٥) سورة الإسراء - الآية رقم ٧٨.

(٦) سورة البقرة - الآية رقم ٣.

قال فى لطائف المنن: كُلُّ موضع ذكر فيه المصلون فى معرض المدح، فإنه جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، أو بمعنى يرجع إليه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾^(١)، ﴿يَا بَنِي آدَمَ الصَّلَاةَ﴾^(٢)، ﴿وَإِقَامَ الصَّلَاةِ﴾^(٣)، ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾^(٤)، ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ﴾^(٥).

ولما ذكر المصلين بالغفلة، قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾^(٦)، وقال الشيخ الورع رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾^(٧).

يراقبون الصلوات، لاستنشاق نَفَحَاتِ الصفات، وإقامة الصلاة: حفظ آداب العبودية، فى جناب الربوبية، بنعت الافتقار، إلى مشاهدة الملك الجبار، لأن فى الصلاة قرّة عيون العارفين، ومناجاة المحبين، ومشاهدة الحق للشائقين.

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه: إقامة الصلاة، حفظ حدودها مع حفظ السر مع الله، أن يختلج بصره سواء.

وقد ورد فى التوراة: ابن آدم.. لا تعجز، أن تقوم بين يدي مصلياً، باكياً، فأنا الله الذى ارتقتبُ على قلبك، وبالغيب رأيتَ نورى. انتهى.

(١) سورة إبراهيم - الآية رقم ٤٠.

(٢) سورة لقمان - الآية رقم ١٧.

(٣) سورة الأنبياء - الآية رقم ٧٣.

(٤) سورة البقرة - الآية رقم ٤٣.

(٥) سورة النساء - الآية رقم ١٦٢.

(٦) سورة الماعون - الآيتان ٤ - ٥.

(٧) سورة البقرة - الآية رقم ٣.

وكانوا يرون أن تلك الرقة، والبكاء، وتلك الفتوح التي يجدها المصلّي في قلبه، من دنو الربّ من القلب.

وقال ثابت البناني رضى الله عنه: الصلاةُ خدمةُ الله في الأرض، ولو علم الله تعالى شيئاً أفضل من الصلاة، لما قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحْرَابِ﴾^(١).

وقال محمد بن علي الترمذی^(٢) رضى الله عنه: دعا الله تعالى الموحدّين إلى هذه الصلوات الخمس، رحمةً منه عليهم، وهياً لهم فيها ألوان الضيافات، لينال العبد من كل قول، وفعل، شيئاً من عطاياه، فالأفعال كالأطعمة، والأقوال كالأشربة، وهى عروس الموحّدين، هيأها رب العالمين، لأهل رحمته في كل يوم خمس مرات، حتى لا يبقى عليهم من دنس الأغيار.

وقال أبو طالب المكي^(٣) رضى الله عنه: حَدَّثْتُ أَنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا تَوَضَّأَ لِلصَّلَاةِ، تَبَاعَدَتْ عَنْهُ الشَّيَاطِينُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ، خَوْفاً مِنْهُ، لِأَنَّهُ يَتَأَهَّبُ

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ٣٩.

(٢) هو الإمام، الحافظ، العارف، الزاهد، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذی من علماء القرن الثالث الهجرى، كان رضى الله عنه صاحب فضائل ومصنفات، وذا رحلة ومعرفة وله حكم ومواعظ جلييلة تنم عن عميق معرفة ودراية منها قوله: (من جهل أوصاف العبودية فهو بنعوت أوصاف الربوبية أجهل).

وقال أيضاً: (صلاح خمسة في خمسة: صلاح الصبي في المكتب، وصلاح الفتى في العلم، وصلاح الكهل في المسجد، وصلاح المرأة في البيت، وصلاح المؤذى في السجن).

راجع: الحكيم الترمذی الدكتور أحمد السايح.

(٣) صاحب قوت القلوب، شيخ مشايخ السادة الصوفية.

للدخول على الملك، فإذا كَبُرَ حُجْبُ عَنْهُ إِبْلِيسَ، وضرب بينه وبينه سُرَادِقٌ لا ينظر إليه، وواجهه الجبار بوجهه.

فإذا قال: الله أكبر اطلع الملك في قلبه، فإذا كان ليس في قلبه أكبر من الله، فيقول المَلَكُ: صدقت، الله في قلبك كما تقول. قال: فيتشعشع في قلبه نورٌ، يلحق ملكوت العرش، فينكشف له بذلك النور ملكوت السموات والأرض، ويكتب له حشو ذلك النور حسنات.

قال: وإن الغافل الجاهل إذا قام إلى الوضوء، احتوشته^(١) الشياطين، كما يحتوش الذباب على نقطة العسل، فإذا كبر، اطلع الملك في قلبه، فإذا كان كل شيء في قلبه، أكبر من الله عنده، فيقول الملك: كذبت، ليس الله في قلبك كما تقول.

قال: فيثور من قلبه دخانٌ، يلحق بعنان السماء، يكون حجاباً لقلبه، عن الملكوت، قال: فيرد ذلك الحجاب صلاته، ويلتقم الشيطان قلبه، ولا يزال ينفخ فيه، وينفث فيه، ويوسوس إليه، ويزين له، حتى ينصرف من صلاته لا يعقل ما كان فيه، انتهى، من التنبيه، للشيخ سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه على الحكم.

وقال سيدى إبراهيم التيمى رضى الله عنه، وهو من أكابر التابعين رضى الله عنهم: إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه.

ولعظم قدر الصلاة، شرعت الإقامة لها، استجماعاً للفكر، واستحضاراً للقلب.

وقال بعض العلماء بكراهية الكلام بعد إحرام الإمام، لثلاث يفوته تكبيرة الإحرام.

(١) أى اجتمعت عليه والتفت حوله.

وإذا علم المصلّي أنه يناجى ربه، واقفًا بين يديه، على بساط المراقبة، يخاطبه بقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١).

ويطلب منه الهداية للصراط المستقيم، ويعمر الأركان بالذكر، والقراءة، والتسبيح، والدعاء، فكيف يمكنه جولان خاطره فى التعلقات الدنيوية، حتى تتقضى الصلاة وهو لا يعقل؟ فما هو إلا كمن استدعاه الملك لحضرته، بقصد إكرامه، فهرب منه لسياسة الدواب.

وقد جمع الله سبحانه للمؤمن فى الصلاة، أنواعاً من عبادات الملائكة؛ من التكبير، والتسبيح، والدعاء، والقراءة، والذكر، والمراقبة، والطهارة، والاستقبال، والخشية، والتضرع، والقيام، والركوع، والسجود، فما افترق فى كثير من الملائكة، اجتمع للمؤمن فى الصلاة.

وقال بعض العلماء رضى الله عنهم: اشتملت الصلاة على قواعد الإسلام، وزيادة، وذلك أن المصلّى يتلفظ بالشهادتين، ويشترى الماء إن احتاج إليه، والثوب إذا لم يكن عنده ما يجزئه، ويمسك عن الأكل والشرب، ويتوجه للكعبة، ويجاهد النفس بالحضور والخشوع.

ولجلالة قدرها، وعظم خطرها، كان على بن أبى طالب رضى الله عنه، إذا قام إلى الصلاة، اصفرَّ لونه، وارتعدت شفتاه، فقليل له فى ذلك، فقال: أما تعلمون أنه وقت أمانة، عرضها الله تعالى على أهل السموات، والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها فحملتها...؟ فلا أدري؛ هل أحسن ما حملت أم لا؟.

وإذا شرع المصلّى فى صلاته، فليراقب عظمة مولاه، الذى أمره بها، ولينظر... هل أتى بها كما أمره؟..

(١) سورة الفاتحة - الآية رقم ٥.

وليعلم أن الله سبحانه مطلعٌ على سرّه، وجهره، ومحيط بجميع خطراته، وذلك سبب الخشوع، والخشوع سبب الفلاح. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ^(١).

ومن أحرم بالصلاة، فقد دخل حضرة الملك، ومن وقف بين يدي الملك، ولم يتأدب استوجب الطرد. نسأل الله تعالى السلامة والتوفيق.

قال أبو سليمان الداراني^(٢) رضى الله عنه: من قام إلى الصلاة، فافتتح القراءة فوجد لها لذة، فلا يرجع، ولا يسجد، وإذا وجد في السجود، فلا يقرأ.

ولا يرفع فالوجه الذى يفتح له فيه يلزمه ثم، قال: هل رأيت أحداً يطلب شيئاً، فإذا وجده تركه؟ ثم بعد ذلك يطلبه!.. قاله الشيخ الثعالبي رضى الله عنه.

وكان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه إذا كان في الصلاة، كأنه ثوبٌ ملقى وكان مسلم بن يسار رضى الله عنه يصلى، فسقط المسجد، وخرج من كان فيه هارباً إلى السوق، وهو لم يشعر.

وقطعت رجل عروة بن الزبير رضى الله عنه لضرر كان به، وهو في الصلاة، وحُسمَت بالنار وهو لم يشعر.

ودخل عود في عين رابعة العدوية رضى الله عنها وهى تصلى، فما شعرت به حتى سلّمت من الصلاة.

(١) سورة المؤمنون - الآيتان ١ - ٢.

(٢) هو الإمام سيدى أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد وقيل ابن عطية الداراني. ولد رضى الله عنه سنة ١٤٠هـ.

فائدة:

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: من أراد أن يعرف حقيقته عند الله، وحاله مع الله، فليُنظر إلى الصلاة، إما بالسكون والخشوع، أو بالغفلة، والعجلة، فإن لم تكن بالوصفين الأولين، فاحثُ التراب على رأسك.

قال رحمته الله: "إذا أحسن الرجل الصلاة، فأتمَّ ركوعها، وسجودها، قالت الصلاة: حفظك الله كما حفظتني، فترفع، وإذا أساء الصلاة، فلم يتم ركوعها وسجودها، قالت الصلاة: ضيعك الله كما ضيعتني، فتَلَفُ كما يُلَفُ الثوب الخَلَقُ، فيضرب بها وجهه" انتهى.

ويعرف حال المؤمن في الصلاة بمراعاة أوقاتها، وسرعة النهوض إليها، وإيثارها على شغل نفسه ووجود النشاط فيها، والتأهب لها قبل وقتها، وتعلق القلب بها، وانتظارها، ولإقامتها بشروطها الواجبة لها، وإذا سلَّم منها لا يكاد يلتفت.

ولا ينحرف عن القبلة، ولا يتكلم مع أحد، وإنما يبقى عليه آثارها، لم ينفصل عن هيئتها لبقايا لذتها، من نفحات المناجاة، فيَتَّبِعُها بالذكر الوارد في ذلك.

ثم بالتنفُّل وقت جوازه، ولا يسرع النهوض منها، والخروج من المسجد كالمتفَلَّت من وثاق، فإن المقام الذى هو فيه أشرف، وأكد من كل ما يسارع إليه.

وفى صحيح البخارى: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تزال الملائكة تستغفر للمصلى ما دام فى المسجد".

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: المؤمن فى المسجد، كالسمكة فى

الماء، : والفاجر فى المسجد، كالطير فى القفص . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ﴾ (١) الآية .

قال ﷺ : " بشر المشائين فى ظلم الليل إلى المسجد بالنور التام يوم القيامة " (٢) . وقال ﷺ : " من ألف المسجد، ألفه الله تعالى " ، ومعناه : قربته، وأكرمه كما لزم بيته، جزاء وفاقاً .

قال سعيد بن المسيب رضى الله عنه : ما أذن المؤذن منذ ثلاثين سنة إلا وأنا فى المسجد .

وقال سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه : ورد فى الحديث : " المساجد بيوت المتقين " ومن كانت المساجد بيته ، ضمن الله له الروح ، والراحة ، والجواز على الصراط .

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه لولا البول ما خرجت من المسجد فى ليل ، ولا نهار ، وقال رضى الله عنه : بلغنى أن الله عز وجل يقول : إني لأهملُّ بعذاب عبادى ، : فأنظر إلى عمار المساجد ، وقراء القرآن ، وولدان الإسلام ، فيسكن غضبى .

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : لولا من يؤدى فرائضى فى أوقاتها ، لصابت البلاء على من يؤخرها عن وقتها صبا .
وروى : " من رأيتموه فى المسجد ، فظنوا به خيراً " .

وعمارة المسجد ، إنما تكون بالذكر ، والقراءة ، : والتهيؤ إلى الصلاة ، وأما إذا كان مشغلاً بالكلام فيما لا يعنى فإخراجه من المسجد ، والقيام عنه

(١) سورة التوبة - الآية رقم ١٨ .

(٢) لم نقف عليه .

واجب، فقد ورد: (يأتى فى آخر الزمان، ناسٌ من أمتى، يأتون المسجد، ويقعدون فيه حلَقًا، ذكرهم الدنيا، لا تجالسوهم، فليس لله بهم حاجة).

وقال عمر رضى الله عنه: المصلون أحق بالسوارى من المتحدثين إليها. رواه البخارى.

والمؤمن لا يشغله التكسُّبُ، والتَّمَعُّشُ، عن طلب الخير، والقيام بالواجب، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (١).

وقال عليه السلام: "لا بارك الله فى شغل ألهى عن الصلاة". وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: والله... إن فوات صلاة الجماعة، أعظم عندي من موت ولدى البالغ، العاقل، العالم، الصالح.

وقال محمد بن واسع رضى الله عنه: أشتهى من الدنيا شيئين، أنخاً صالحاً، وصلاة الجماعة.

وكان الربيع بن خثيم رضى الله عنه: يخرج فى مرضه للصلاة، يهادى بين رجلين، فقليل له: إن الله رخص لك. فيقول: فما أصنع فى منادى ربى، وهو يقول: حى على الصلاة؟..

وقال سعيد بن المسيب رضى الله عنه: ما فاتتني تكبيرة الإحرام منذ خمسين سنة. وقال سفيان بن عيينة رضى الله عنه: ائتوا الصلاة قبل النداء، ولا تكونوا كالعبد السوء، لا يأتى إلى الصلاة حتى يدعى إليها...!

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة، فلا تعباً به.

(١) سورة الجمعة - الآية رقم ١١.

فإذا سمع العبد الأذان؛ يتذكر قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (١) الآية، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ (٣) قالت عائشة رضى الله عنها: كان رسول الله ﷺ فى بيته يخصف النعل، ويعين الخادم، حتى إذا نودى للصلاة، قام كأنه لا يعرفنا.

وعن عبدالله بن المبارك رضى الله عنه: كنا مع أصحاب رسول الله ﷺ نتحدث، وربما نمازح، فإذا تعين حق من حقوق الله تعالى دارت حماليقهم فى رؤسهم.

خَلِيلَى.. لا والله، ما أنا مِنْكُمْما إذا عَلِمَ مِنْ آلٍ لَيْلَى بَدَا لِيَا
[من البحر الطويل]

وهكذا ينبغى أن يكون المؤمن، معظماً حُرُمَاتِ الله، واقفاً على حدود الله، : تاركاً لحظوظ نفسه، لأجل عقوق مولاه، فلا يشغله عنه شاغل، فإذا كان فى الصلاة، راقب عظمة الأمر العلى، وعلم أنه لا طاقة له بالقيام بها على ما ينبغى فيرى نفسه كما قيل:

على كُلِّ حالٍ فى هَوَاهَا مُقَصِّرٌ

فحسبه حُضُور القلب، واجتماع الفكر، وإخلاص النية، والحياء، والخوف، والمراقبة، ورحم الله القائل:

رفعوا الأنامل للصلاة وكبروا وبدا الخشوعُ بخوفهم يترنم
وبدت سواكب دمعهم مسبولة خوفاً لما قد أחרأ أو قدّموا
هذى صلاة المتقين، وغيرهم نائى الفؤاد، وألسنٌ تتكلم

[من البحر الكامل]

فائدة:

قال ﷺ: "ما من مسلم يتوضأ، فيحسن الوضوء، ثم يقوم، فيصلى ركعتين، مقبلاً عليهما بقلبه^(١)، ووجهه، إلا وجبت له الجنة" رواه مسلم في صحيحه.

والمصلى يقرع باب الملك، فيفتح عليه، من المعارف، والأسرار، والمواهب، والأنوار، وما لا تفهمه العقول، ولا يستوفيه مقول، فلا يسعه إلا الخشية، والإنابة، والمباعدة عن المخالفات. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾^(١).

وقال ﷺ: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم تزده من الله إلا بُعداً".

وقد مثل العلماء رضى الله عنهم الأعمال إذا خلت عن سرّ الإخلاص فيها، بمن أهدى للملك جارية، ميتة، أتراه يقبلها؟ أو يضرب بها وجه صاحبها، ويستوجب العقوبة عليها؟..

قال فى الحكم: الأعمال صورٌ قائمة، وأرواحها وجود سرّ الإخلاص فيها. وما زال الموفقون يواظبون على الصلاة، ويجدون فيها راحتهم، ولا يتركونها ليلاً ولا نهاراً، لمالهم فيها من لذة الأنس، وحلاوة المناجاة.

وقد كان ﷺ يقول: "وجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فى الصلاة".

وكان يقول ﷺ: "أَرِحْنَا بها يا بلال".

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه.

(١) سورة العنكبوت - الآية رقم ٤٥.

ومن هذا المعنى، قول الشيخ أبى المحاسن الفاسى رضى الله عنه فى مرض موته: ما بقى فى خاطرى شىء، إلا الحضور فى الصلاة.

وعادة المحبين ملازمتها ليلاً أكثر، طلباً للستر، واستجماعاً للفكر ويتباعدون عن جميع الأنام، ويهجرون لذى المنام، قال تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ (١).

وقيل على لسان الحق تعالى: كذب من ادعى محبتي؛ فإذا جَنَّهُ الليل، نام عنى، وخصوصاً فى الثلث الأخير، فقد ورد فيه فضل كبير، وخير كثير، قال ﷺ: "ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى الثلث الأخير، فيقول: من يدعونى فأستجيب له، من يستغفرنى، فأغفر له، من يسألنى، فأعطيه" (٢).

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى هذا الحديث: فلا يقضى تعالى إلا حاجة من كان مستيقظاً، وأجابه، وأما من كان نائماً، فهو محروم.

ثم قال رضى الله عنه: وحكم من نام فى هذا الوقت، ثم طلب بعد ذلك حاجة من الله تعالى - ولله المثل الأعلى - حُكْمٌ من تأخر من أصحاب الحوائج، حتى انقضى موكب السلطان فى القلعة، وانفضت دست المملكة كلهم، واحتجب الملك، وترك رفع القصص، فتقول الحاشية لذلك الذى ينام، ما بقى لك قضاء حاجة، ولا سماع قصة، إلا فى موكب آخر، فيرجع بلا قضاء حاجة.

فإن ترتيب حضرة عالم الغيب، كترتيب حضرة عالم الشهادة، بالنسبة لملوك الدنيا. ثم قال: ونوم العبد فى الثلث الأخير، علامة على طرده عن حضرة الله، والسلام.

(١) سورة السجدة - الآية رقم ١٦.

(٢) رواه البيهقى.

وقال الشيخ أفضل الدين رضى الله عنه: قيام الثلث الأخير من الليل يلحق بالفرائض فى كونه لا يتخلف عنه إلا مطرودٌ، ممقوت، انتهى. وبالله التوفيق.

ورؤى الجنيد رضى الله عنه فى النوم، فقال: طاحت تلك الإشارات، وفنيت تلك العبارات، ولم يبق إلا ركيعات، كنا نركعها فى السَّحر.

تنبيه:

قال فى التنوير: اعلم... أنه يجب عليك أن تأمر أهلك بالصلاة، من زوجة، أو أمة، أو ابنة، أو غير ذلك، ولك أن تضربهم على تركها، وليس لك عند الله حجة أن تقول: أمرتهم فلم يسمعوا، فلو علموا أنه يشق عليك.

كما لو أفسدوا لك طعاماً، أو أهملوا من مهماتك أمراً، ما تركوها، بل اعتادوا منك أن تطالبهم بحفظ نفسك ولا تطالبهم بحقوق ربك، فلاجل ذلك أهملوها.

ومن كان محافظاً على الصلاة، وعنده أهلٌ لا يصلون، وهو غير آمرٍ لهم بها، حشر يوم القيامة فى زمرة المضيعين للصلاة.

فإن قلت: قد أمرتهم، فلم يفعلوا، ونصحتهم، فلم يقبلوا، وعاقبتهم على ذلك بالضرب، فلم يكونوا لها فاعلين، ولا لأمرى ممثلين، فكيف أصنع؟

فالجواب: إنه ينبغى لك أن تفارق من تمكن مفارقتَهُ، ببيع، أو طلاق، والإعراضُ عمن لا يمكن بينوته عنك بذلك، وأن تهجرهم فى الله، فإن الهجر فى الله، يوجب الصلّة العائدة.

والله المستعان، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

obeikandi.com

الباب الخامس
فى
شكر النعم
وما ورد فيه من الحكم

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الخامس

فى شكر النعم

وما ورد فيه من الحكم

الشكرُ أفضل الطرق إلى الله تعالى . وحقيقته: أن لا يُعصى الله بنعمه، وهو صرفُ العبدِ جميعاً ما أنعم الله به عليه من الجوارح فى طاعته .

قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه: لو علم الشيطان اللعين أنَّ ثمَّ طريقاً، توصل إلى الله تعالى، أفضل من الشكر؛ لوقف عليها، ألا ترى كيف قال: ﴿ثُمَّ لَا تَنبَهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (١)؟! . .

ومعناه، ما قال سهل بن عبدالله التستري رضى الله عنه جوارحك من نعم الله عليك، فلا تعصه بشيء منها. وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢): يُمدِّهم بالنعم، ويُنسيهم الشكر عليها، فإذا ركنوا إلى النعمة، وحُجِّبوا عن المنعم أخذوا.

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه كلما أحدثوا خطيئة، جددنا لهم نعمة، وأنسيناهم الاستغفار من تلك الخطيئة.

وقيل: الشكر: الاعتراف بنعم الله تعالى، واستعمال الجوارح فى طاعته. ومن لم يكن من الشاكرين، فهو من الكافرين. قال تعالى:

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ١٧ .

(٢) سورة القلم - الآية رقم ٤٤ .

﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾^(٣).

وقد أثنى الله سبحانه على الخليل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ﴾^(٤)، وعلى نوح عليه السلام بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(٥).

والمؤمن لا يخرج عن مقام الشكر، فهو مطالب به في كل لحظة، لتوالى نعم الله عليه.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود في كل شعرة منك نعمة يجب عليك شكرها، فقال: يا رب.. كيف أطيق شكر هذه النعم كلها؟..

فقال سبحانه: إذا علمت أنها مني، فذلك شكرها.

ومن الشكر التحدثُ بالنعم على وجه الإقرار بفضل الله من غير استحقاق، لا على وجه الافتخار، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾^(٦)، وفي الحديث: "إن الله إذا أنعم على عبده نعمة، أحب أن ترى عليه"^(٧).

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ومن شكرها، فقد قيدها بعقلها.

وقال بعضهم رضى الله عنه: الشكر قيد الوجود، وصيد المفقود.

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٥٢.

(٢) سورة الإنسان - الآية رقم ٣.

(٣) سورة إبراهيم - الآية رقم ٧.

(٤) سورة النحل - الآية رقم ١٢١.

(٥) سورة الإسراء - الآية رقم ٣.

(٦) سورة الضحى - الآية رقم ١١.

(٧) رواه البيهقي في سننه عن أبي هريرة رضى الله عنه.

وقالوا: النّعم إذا روعيت بالشكر فهي أطواق، وإذا روعيت بالكفر فهي أغلال، وليس الشكر أداء الفرائض فقط. . بل الشكر واجب في كل لحظة.

قال الله العظيم: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ (١).

والأمانات: هي سائر الجوارح، القلب، وما سواه، فمراعاتها شكر، وهو لازم لها، والشكر نعمة ثانية، يجب شكرها، فلا يقوم العبد بالشكر للزوم التسلسل فيه كما قيل:

إذا كان شكرُ نعمة الله نعمةً علىَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتسع العمر
[من البحر الطويل]

فحسب العبد الإقرار بالنعمة، والحياء من المنعم.

ولا يكون الشكر لطلب الزيادة الموعود بها، فيكون معلولاً، وإنما يكون امتثالاً لأمر الله تعالى.

كما قال سيدي أبو المواهب رضى الله عنه: احذر أن يكون شكرك لأجلك، بل اجعل شكرك امتثالاً لأمر ربك.

قال في عرائس البيان: قال مجاهد، ومكحول في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ (٢): هو الشراب البارد، وظلُّ المساكن، وشبَعُ البطون، واعتدالُ الخلق، ولذة النوم. انتهى.

ومن الناس من يتقلب في نعم الله تعالى ظهراً لبطن، في ليله ونهاره،

(١) سورة المؤمنون - الآية رقم ٨.

(٢) سورة التكاثر - الآية رقم ٨.

وهو غافل عن ذلك كله، كأنه استوجب أعظم من ذلك، وما حصل عنده إلا النزر القليل من حقه، ويكثر التشكى، وطلب الفضول.

ولو سُلِّطَ عليه السَّهْرُ لاختلَّ عقله، ولو تحرَّك عليه ضرْسٌ، ما طاب له عيش، والله على كل شيء قدير، وينام الليلَ ملء عينيه، وينهض ناشطاً في طلب شهواته، وإن تعدَّرت، يقول: أجزنا على الله، كمن ضاع حقه.

كان سيدى إبراهيم الجعبرى رضى الله عنه يقول:

خَبِرْ وَمَاءٌ وَظِلٌّ هَذَا النِّعِيمُ الْأَجَلُ
جَحَدْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قُلْتُ: إِنِّي مُقِلُّ

وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه: لا ينبغي لأحد أن يشكو من ضيق الحال وعنده ثوب زائد، أو إناء، أو فراش، أو شيء من أمتعة البيت.

ثم قال: وأقرب شيء إلى حصول التوسعة على العبد، قوله فى حال الضيق: نحن بخير، وإكثاره من مدح ربه على نِعَمِهِ التى لا تُحصى، فلا يزال هذا يقول: نحن بخير، حتى يكون أوسع الناس حالاً.

ولا يزال من هو فى سَعَةٍ، يقول: نحن بِشَرٍّ، حتى يكون أضيق الناس معيشةً، وذلك لأن تشكيه سؤال، والنبي ﷺ قال: "ما فتح رجل على نفسه باب مسألة، إلا فتح الله عليه باب فقر".

والشاكِرُ يستحى من الله تعالى أن يوجه سؤاله إلى غيره، لأنه كما تقدم على أن النِّعَمَ كلها من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (١)، فكيف يترك مَنْ الخيرُ كُلُّه بيده؟ ويسأل من هو محتاج مثله لا يقدر على شيء...!

فاعرف أيها العبد... قدر ما عليك، واشكره كما تقدم امتثالاً لأمره.

(١) سورة النحل - الآية رقم ٥٣.

واعلم أن الشكر على ثلاثة أوجه: شكرٌ بالقلب، وشكرٌ باللسان،
وشكرٌ بسائر الجوارح.

فشكر القلب: أن يعلم أنَّ النعم كلَّها من الله تعالى: قال الله العظيم:
﴿وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (١).

وشكر اللسان: الثناء على الله تعالى بما هو أهله، من أوصاف الجلال،
والجمال، ونعوت الكمال، وكثرة الحمد، والمدح له، ويدخل فيه التحدث
بالنعم، وإظهارها، ونشرها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ
عَلَيْكُمْ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٣).

وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: تذاكروا النعم، فإنَّ ذكرها
شكرٌ، ومن شكر اللسان أيضاً، شكر الوسائط بالثناء عليهم، والدعاء لهم.

وفى الخبر أن رسول الله ﷺ قال: "من لم يشكر القليل لم يشكر
الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله" (٤)، وشكرُ الوسائط إنما هو من
حيث كونهم سبباً فى وصول منَّة الله إلى العبد، فالمشكور فى الحقيقة هو الله
سبحانه.

ولا يقف الشاكر مع الواسطة،: فيُحجَّبُ عن شهود منَّة الله تعالى،
ولا يترك شكرها، فيفوته الحظُّ الأوفر، ويكون مخالفاً لأمر الشرع.

ولذلك قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة أم المؤمنين رضى الله
عنها: اشكرى رسول الله ﷺ، حين نزلت براءتها من الإفك، فدلَّها على
المقام الأكمل.

(١) سورة النحل - الآية رقم ٥٣.

(٢) سورة فاطر - الآية رقم ٣.

(٣) سورة الضحى - الآية رقم ١١.

(٤) رواه الإمام أحمد فى المسند.

وقال ﷺ: " أشكرُ الناسَ لله، أشكرُهم للناس " (١).

وشكر سائر الجوارح: أن يعمل بها العمل الصالح، قال تعالى:
﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ (٢).

وروى: أن النبي ﷺ قام حتى تورمت قدماه، فقبل له: يا رسول الله
تفعل هذا، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر...؟! فقال: أفلا
أكون عبداً شكوراً؟.

انتهى من التنبيه، بالمعنى، وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا
محمد وآله وسلم.

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل.

(٢) سورة سبأ - الآية رقم ١٣.

الباب السادس

ذكر بعض ما علينا من فضل الله
تعالى ورحمته وما أنعم به علينا
من توحيده ومعرفته

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب السادس

**فى ذكر بعض ما علينا من فضل الله تعالى ورحمته
وما أنعم به علينا من توحيدہ ومعرفته**

الفضلُ: إعطاء الشيء بلا عوض، ولا سبب، وليس ذلك إلا لله تعالى.

فقد أعطانا سبحانه قبل وجودنا ما لم تحمله العقول، ولا يستوفيه مقول، من غير استحقاق، ولا سؤال، ولا يطمع أحد أن يخطر له ببال. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَاتَّكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣)، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُونَ﴾ - الآية إلى قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٤).

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: فهل عودك إلا حسناً؟ وهل أسدى إليك إلا منناً؟ وقال رضى الله عنه:

(١) سورة لقمان - الآية رقم ٢٠.

(٢) سورة إبراهيم - الآية رقم ٣٤.

(٣) سورة فاطر - الآية رقم ٣.

(٤) سورة الواقعة - من الآية رقم ٥٨ إلى الآية رقم ٩٦.

أَنعمَ أولاً: بالإيجاد، وثانياً: بتوالى الإمداد، فلا ينقطع إحسانه القديم، ولا يزال امتنانه العميم، نِعْمُهُ تعالى متواليه، وأمداده على خلقه جارية، منها: نعمة الإيمان، والإسلام، والإحسان، والعلم، والمسرة، والتوفيق، والهداية، والعقل، والفهم.

والإدراك، والقوة، والعافية، والحركات، والسكنات، والإمساك، :
والإرسال، والنسل، والذوق، والشم، والسمع، والبصر، والاحساس،
والنوم، والراحة، : والشبع، والرى، والهضم، والالتذاذ، والاستحسان
للأمور المحموده، والاستقباح للأمور المذمومة.

والأخلاق، والمحبة، والشوق، والاستقامة، والخوف، والرجاء،
والعبودية، والرحمة، والتؤدة، والحزم، والشجاعة، إلى غير ذلك مما لا
يحصى، ولا يحصر، ولا يجهل، ولا ينكر.

من نظر إلى صنعه تعالى فى خلقه، من تيسير المنافع، والمرافق، وتأمل
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ .. إلى قوله سبحانه:
﴿أَلْفَافًا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ﴾^(٢) الآية. استدل بذلك على
بديع صنعته، وعظيم قدرته.

قال الله العظيم: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ﴾^(٣).

ومن بديع حكمته تعالى أن جعل فى العين ماء مليحاً لئلا تنتن، إذ هى

(١) سورة النبأ - الآية رقم ٦ - إلى الآية رقم ١٦ .

(٢) سورة البلد - الآية رقم ٨ .

(٣) سورة الذاريات - الآيتان ٢٠ - ٢١ .

شحمة، وجعل فى الأذان مرارة، لئلا تدخلها الحشرات، وفى الأنف حرارة لجذب الهواء للدماغ، وحلاوة الفم يعرف بها عذب المذاق، ومره، وجريان مائه ليسينغ الطعام، ويتأتى الكلام، فسبحانه من حكيم عليم.

فإذا فتح الله تعالى بصيرة عبده، شاهد أثر التوحيد فى جميع الموجودات، وتجلت له أسرار القدرة، فى جميع الكائنات.

قال فى شرح المباحث^(١): من لم يفهم صرير الباب، وطنين الذباب، ونبج الكلاب، وحشرات التراب، وجريان السحاب، ولمع السراب، فليس من ذوى الألباب، ولا يفهم إشارة الأحباب.

ورحم الله القائل:

أيا عجباً كيف يُعصى الإلهُ أم كيف يجحدهُ الجاحدُ
ولله فى كل تحريكة عليك وتسكينة شَاهِدُ
وفى كل شىء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ

قال الشيخ أبو عبد الله الشطيبى^(٢) رضى الله عنه فى شرح المباحث الأصلية: لما خلق الله ابن آدم، وفضله على غيره من كثير من الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٣)، فجعله نسخة الوجود، وجعله يحاكي بصورته كل موجود، ففيه جسم كثيف، وروح لطيف، نصفه

(١) وهو كتاب الإشارة السنية فى شرح بعض معانى المباحث الأصلية من جملة الطريقة الصوفية وهى منظومة لأحمد بن محمد بن يوسف التجيبى المعروف بابن البناء السرقسطى الأندلسى والشرح لمحمد بن على الشهير بالحاج الشطيبى البرجى الأندلسى المتوفى سنة ٩٦٣هـ - ١٥٥٥م.

(٢) انظر: سلوة الأنفاس - الكتانى ج ٢ ص ٢٥٨.

(٣) سورة الإسراء - الآية رقم ٧٠.

ساكن، ونصفه متحرك، نصفه نور، ونصفه ظُلمة، وجعل فيه الاسطقسات^(١) الأربع .

واستودع فيه قوة الجلبِ والدفع، والضرر والنفع، وجعل قلبه خزانة سرِّ المؤتمن، ولسانه على ذلك ترجماناً، وعينه حارسين، وأذنيه مخبرين، ورجليه مطيتين، ويديه خادمين، وجعل رأسه عرشه وصدره كرسيه، وجنابه شرقية وغربية .

وجعل حركته كحركات الشمس، والقمر، والنجوم، وتركيبه على تركيب العالم المعلوم، وجعل فى ظهره أربعاً وعشرين فقارةً، على عدد الساعات، وفى جسده ثمانية وعشرين مفصلاً، على عدد المنازل، وفى جوفه اثنى عشر أمعاءً على عدد البروج والشهور .

وفيه ثلاثمائة وستون عرقاً نابضاً، ومثلها ساكنة، على عدد أيام العام، وجعل معدته بيت ماله، وكبدته مسامه، : ومرارته مرّه، وهى ملحّة .

ولولاها لنتن الجسد، وجعل لحمه كالتراب، وعظامه كالجماد، وشعره كالنبات، وعروقه كالأنهار، وجواهره معادن، وهى تسعةٌ: جلدٌ، ولحمٌ، وعظمٌ، وعصبٌ، ومخٌ، وشحمٌ، فهذه الستة خفية .

وثلاثة ظاهرة: وهى الجلد، والشعر، والظفر، وفيه اثنا عشر عنصراً سبعة فى الرأس، وخمسة فى الجسد، وفى الرأس: العينان، والأذنان، والمنخران، والفم، والتى فى الجسد: اليدان، والمخرجان، والسرة .

إلى غير ذلك مما لا يكيّفه العقل، ولا يدركه الوهم، ولا ينتهى لغايته الفهم، إذ لو أراد العقل، إدراك جرى النفس، أو حصر حركات الحواس، أو

(١) الاسطقسات: هى الأشياء المفردات التى تلتئم منها ويكون باجتماعها الأشياء المركبات .

ضبط معنى جارحة واحدة لانذهل وانقطعت الفكرة، وسقط تميزه عن إدراك ذرة من شعره، بل يقع فى مهامه^(١) المحيرة، ويتيه فى سباسب^(٢) الحسرة، ويرجع لا محالة، لتنزيه صاحب القدرة، وتسليمه له، فى تدبير عالم خلقه، وعالم أمره. قال الله العظيم: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣)...

أيها الغافل عن حقيقته ومعناه، الجاهل.. بدايته.. ومنتهاه... اعلم أن الله تعالى قد جعل لك خمس حواس ظاهرة، وخمس حواس باطنة، فالظاهرة: السمع، والبصر، والشم، والذوق، واللمس.

والباطنة: الذكر، والفكر، والوهم، والخيال، والحس المشترك، وإنك لو أردت ضبط حالة واحدة، لانبهر عقلك، وضل إدراكك، وانقطع فهمك، وغاب تمييزك، وعجزت قوتك.

هذه حاسة العين، والبصر المستودع فيها سر الرؤية، والنظر فى شكلها، كالجوزة، وفيها عشر طبقات، بعضها رطوبات، وبعضها أغشية، وبعضها كنسج العنكبوت، وبعضها كالمشيمة وبعض تلك الرطوبات، كأنها بياض البيض وبعضها: كأنه الخمر.

بل لكل واحد من العشر طبقات صفة، وصورة، وشكل، وهيئة، وعرض، وتديير، وتركيب لا يشبه غيره، ولو اختلفت طبقة واحدة. أو صفة من صفاتها، لاختل البصر، وتغير النظر، وعجز عنه الأطباء، وتوقف فيه الحكماء، هذا...

(١) هى المفازة البعيدة.

(٢) هى المفازة أيضاً أو الأرض المستوية البعيدة.

(٣) سورة الذاريات - الآية رقم ٢١.

مع ما فى نوره من سرّ الإدراك، وفى أهذابها من نفى القذى، وفى فتحها من نهار البسط، وفى سدّها من ليل القبض، ولو أراد العبد حصر شىء من ذلك لعجز!! هذا فى حاسة واحدة، فما بالك بجميع الجوارح، وأسرارها، وكيفياتها، ومنافعها، ومضارها.

فلا سبيل للإحاطة بشىء من الجسد، ولا بنفس واحد لأحد، قال الله العظيم: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١).

وسرُّ الغذاء، وكيفية تكوينه، بعد تسخير العوالم كلها فيه، من شمس، وقمر، ونجوم، وسماء، وأرض، وملائكة، وسحاب، وهواء، ومطر، ثم زرع، ثم حصد، ثم درس، ثم طحن، ثم طبخ، ثم مضغ، ثم هضم.

ثم صير الأجزاء لدم، ولبن، وفرث، وغير ذلك مما يطول ذكره، كما ذكر أن الرغبة الواحد لا يصل إلى اليد حتى يعمل فيه ما يزيد على ثمانية عشر ألف صانع، أولهم ملك السحاب، وآخرهم طرحه فى الغياب، وكذلك سائر الأقوات، وتدبير كل حيوان، أو معدن، أو نبات، فسبحان من أحاط بكل شىء علماً...! وأحصى كل شىء عدداً، انتهى محل الحاجة منه.

وفى ذلك عبرة للمعتبرين، وآية للمستبصرين، وزيادة قوة فى إيمان الموحدين والله سبحانه ولى التوفيق، فسبحان الحى الذى أحيا كل شىء حياً، القيوم، الذى قام بكل شىء، وبه قام كل شىء، العرش وما حوى، الغنى عن الوجود، المفتقر إليه كل موجود، البرّ، الحليم، حين لا يغنى صديق ولا حميم، العزيز: الذى لا تدركه العقول، والأفهام، ولا تحيط بأمره الأفكار

(١) سورة الإسراء - الآية رقم ٣٦.

والأوهام، كما قال فى التحبير^(١): لا يرتقى إليه وهمٌ، طمعاً فى تقديره، ولا يسمو إلى صمديته فهمٌ، قصداً إلى تصويره.

وقال فيه أيضاً رضى الله عنه: ضلّت العقول فى بحار تعظيمه، وحارت الأبواب دون إدراك نعيمه، وكلت الألسن عن استيفاء مدح جلاله، ووصف كماله، وأنشدوا:

فَكُلُّ مَنْ أَغْرَقَ فِي مَدْحِهِ أَصْبَحَ مَنْسُوبًا إِلَى الْعِىِّ

وقال سيدى داود الباخرى رضى الله عنه: كيف تعرفه بشيء هو خلقه فيك؟ إذ كل مُدْرِكٍ، له سلطان على ما أدركه ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٢).

فائدة:

قال سيدى على الخواص رضى الله عنه: إن الله تعالى ما جعل الخواص الظاهرة والباطنة، طريقاً إلا إلى معرفة المحسوسات، لا غير، والعقل منها بلا شك فلا يدرك الحق به، لأن الحق ليس بمحسوس، ولا معقول.

وسئل ذو النون المصرى رضى الله عنه عن التوحيد ما هو؟ فقال: هو أن تعلم أن قدرة الله فى الأشياء بلا مزاج، وصنعه للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه، ولا علة لصنعه.

وليس فى السماء العلى، ولا فى الأرضين السفلى، مُدَبِّرٌ غير الله تعالى وكلُّ ما تصور فى وهمك، فالله بخلاف ذلك. وهو العظيم الذى يصغر كل شيء عند ذكر عظمته، ويخضع كل متكبر، جبارٍ لعزته.

(١) انظر كتاب التحبير وشرح أسماء الله الحسنى للإمام القشيرى يجرى تحقيقه بمعرفة الدكتور

أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبه.

(٢) سورة الأنعام - الآية رقم ١٨.

فائدة:

كل تسبيح، وتنزيه، وتقديس، إنما ذلك راجع لاعتقاد العبد، وإلا فالله تبارك وتعالى غنيٌ عن التسبيح، والتمجيد، والتنزيه، والتوحيد.

تنبيه:

من أراد أن يعرف ربه، فليعرف نفسه، فإن من عرف نفسه، عرف ربه، فكل حالة من أحواله، تدلُّ على صفةٍ من صفات ربه تعالى، فالحدوث: على القدم.

والفناء: على البقاء، والجهل: على العلم، والعجز: على القدرة، والضعف: على القوة، والفقر: على الغنى،: والذلُّ: على العز، والنقص: على الكمال.

ومن عظمته تعالى خلقُ السموات والأرض، والملائكة المكرمين، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون.

قال ﷺ: "أطَّت السماء، وحقَّ لها أن تئط، ما فيها موضع قدم إلا وفيه ملك راکع، أو ساجد، إلى يوم القيامة" (١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيَسْخِرُ الرُّعْدَ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةَ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ۝١٣﴾ (٢)، ﴿وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ۝١٤﴾ (٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٢) سورة الرعد - الآيتان ١٢ - ١٣.

وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١﴾ ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ (٢) .

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه: سئل بعض المشايخ
رضى الله عنهم عن عظمتة تعالى فقال: ما تقول فيمن له عبد يسمى
جبريل، له ستمائة جناح، لو نشر منها جناحين، لسد ما بين الخافقين؟! .

وقال رضى الله عنه: روى أن ملكاً من الملائكة قال: يا رب... إني
أريد أن أرى العرش، فزِد في قوتي حتى أطيّر، لَعَلِّي أدرك العرش، فخلق
الله له ثلاثين ألف جناح، فطار ثلاثين ألف سنة، فقال الله سبحانه وهو
أعلم: هل بلغت إلى العرش؟ فقال: لم أقطع بعدُ قائمة العرش، فاستأذن أن
يعود إلى مكانه، فأذن له .

وروى أن موسى عليه السلام أراد أن يرى السمك الذى عليه العالم،
فأمره الله أن يأتى شاطئ البحر، فصعد سمكة من البحر، فأخذ يصعد نحو
السماء، فلم يزل يصعد ثلاثة أيام، فقال موسى: إلهى أهو مثل هذا السمك؟
فأوحى الله إليه: إنه يأكل كل يوم ألف سمكة أمثال هذا .

فسبحانه من عزيز حكيم، إِنَّ شَأْنَ رَبِّنَا لعظيم، وما قدروا الله حق
قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه
وتعالى عما يشركون، وهو السميع الذى لا تختلف عليه أصوات خلقه، على
اختلاف لغاتهم فى ملكه، وملكوته .

البصير الذى يبصر الذرة فى الظلماء، وما فوق العرش وما تحت الماء،

(١) سورة النور - الآيتان ٤٣ - ٤٤ .

(٢) سورة النور - الآية رقم ٤١ .

العليم الذى أحاط بكل شىء علماً، وأحصى كل شىء عدداً، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، ويعلم سرّكم، وجهركم، ويعلم ما تكسبون، يعلم ما يلج فى الأرض، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء، وما يعرج فيها، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلِمَ مَا تُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١)، فيا له من قرب ما أعظمه!!، وجوار ما أكرمه؟!

فائدة:

قال سيدى على الخواص رضى الله عنه: إنما أخبر الحق سبحانه بأنه أقرب جارٍ لنا، بشارةً بإفاضة فضله، ورحمتهم علينا قبل كل أحد من الخلق، فنحن أقرب إلى عفوه، ومغفرته، ومسامحته، لأنه أولى مَنْ وَفَى بِحَقِّ الجوار، وإن كنا نحن لم نعرف به، وهو الملك القدوس، الذى تنزه عن صفات الحدوث، وحدوث الصفات، وعن الكيف والأين.

والتحيز فى جهة من الجهات،: ليس كمثله شىء وهو السميع البصير، ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين، نعم المولى ونعم النصير، الرحمن الرحيم الذى وسع كل شىء رحمةً وعلماً.

قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٢).

وفى بعض الأحاديث: "إن الله تعالى كتب كتاباً، قبل أن يخلق الخلق بألفى عام، فهو عنده فوق العرش، إن رحمتى سبقت غضبى"^(٣).

(١) سورة ق - الآية رقم ١٦.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ١٥٦.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ.

وقال ﷺ: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعاً وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة، لم ييأس من الجنة" (١).

وقال ﷺ: "إن لله في الآخرة رحمةً يطمع فيها إبليس" (٢)، ورأى النبي ﷺ امرأة ترضع ولدها، وهي تقيه حرَّ الشمس، بظهرها، فقال: "أرأيتم هذه طارحةً ولدها في النار؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: الله أرحم بعبده المؤمن من هذه بولدها" (٣).

ومن رحمته تعالى أن جعل الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها، كُتِبَتْ له حسنة (٤).

تنبيه:

أفهم قوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥)، فقد وصف نفسه تعالى بالرحمة، والمغفرة، ووصف عذابه بأنه أليم.

وتأمل أسماءه تعالى الحسنى، وصفاته العلى، فإنَّك تجد أكثرها دالاً على فضله العظيم، ورحمته الواسعة، وإحسانه القديم، إلا البعض منها، كالقهار، والمتقم، وكل اسم من أسمائه تعالى لا بدَّ أن يظهر أثره في الوجود.

(١) رواه الشيخان عن أبي هريرة رضى الله عنه.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) رواه البخارى وابن ماجه.

(٤) روى الإمام أحمد فى مسنده.

(٥) سورة الحجر - الآيتان ٤٩ - ٥٠.

فلذلك كانت أوقات الرحمة أوسع، وأكثر من أوقات العذاب، والعبد يعرف ذلك من نفسه، إذا تأمل أيام البلاء، من أيام العافية، ومعاملة مولاه معه فى جميع أحواله.

قال فى التحبير^(١): من لطفه سبحانه بعباده، أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة.

وقال بعضهم رضى الله عنه: صلاة يومك لم يقبضها منك دفعة واحدة، وأعطاك منك الرزق ما يكفيك لسنين كثيرة، وأنت تشكو، وتتهمهم...!

وتأمل رحمته بخلقه فى قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

قال عليه السلام خبراً عن الله تعالى: "يا عبدى... ما خلقت لأربح عليك، إنما خلقتك لتربح على، فاتخذنى بدلاً من كل شىء، فأنا خير لك من كل شىء"^(٣).

وقال عليه السلام: "يد الله ملأى، لا تغيضها نفقة، سحاء"^(٤) الليل والنهار، رأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما فى يده"^(٥).

وكان صالح المرى رضى الله عنه يتكلم يوماً، فقال: من أدمن قرع

(١) التحبير فى شرح أسمائه الحسنى للإمام القشيرى تحقيق الدكتور أحمد السايح والمستشار توفيق على وهبه.

(٢) سورة المائدة - الآية رقم ٦.

(٣) لم نجده.

(٤) سماء من السح، والسح: الصب والسيلان من فوق.

(٥) رواه الشيخان وأحمد فى مسنده والترمذى.

الباب، يوشك أن يُفْتَحَ له، فقالت له امرأة: وهل أغلق بابه تعالى قط؟؟..
فقال صالح: امرأةٌ عقلت، وشيخ جاهل.

وفى صحيح البخارى رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١): يغفر ذنباً، ويكشف كرباً، ويرفع قومًا، ويضع آخرين.

وقال جلال الدين المحلى فى قوله تعالى ﴿فِي شَأْنٍ﴾: فى أمر، يظهره على وفق ما قدره فى الأزل، من إحياء، وإماتة، وإعزاز، وإذلال، وإغناء، وإعدام، وإجابة داع، وإعطاء سائل، وغير ذلك.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: عنايته فيك لا لشيءٍ صدر منك، وأين كنت حين واجهتك عنايته، وقابلتك رعايته؟؟..

لم يكن فى أزاله إخلاص أعمال، ولا وجود أحوال، بل لم يكن هنالك إلا محضُ الإفضال، وعميمُ النوال، وهو الذى فتح لعباده أبواب المواصله، وهياً لهم أسباب المعامله، فما وصلوا إلى فضله إلا به، ولا فازوا إلا بأيوائهم لعلّى جنباه.

فهدى من وفقه بفضله، وأضلّ من خذله بعدله، وهو الذى يعطى ويمنع، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويعزّز ويذل، ويغنى ويفقر، ويحيى ويميت، وييده الحلّ والعقد، والقبول والردّ، ولا يملك غيره ضراً، ولا نفعاً، ولا جلباً، ولا دفعاً، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه.

قال سفيان الثورى رضى الله عنه: اجتمعت مع حبيب البدوى رضى الله عنه فقال لى: يا سفيان... ما رأينا خيراً قطُّ إلا من الله تعالى فما لنا [لا] نُقبلُ على مَنْ لا نرى الخير إلا منه؟!..

(١) سورة الرحمن - الآية رقم ٢٩.

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود... أنا أولى لك من الناس ، : لأنى أستر عليك زلاتك إذا وقعت فيها ، ولا أفضحك بها على رؤوس الأشهاد إذا غضبت عليك ، بخلاف الناس . انتهى .

فما للعبد إلا مولاه :

مَنْ أَتَاكَ الْفَضْلُ مِنْهُ لَا تَفْكُ الْقَصْدَ عَنْهُ

الله ربكم ، ورب آبائكم الأولين ، من توكل عليه كفاه ، ومن سألَه أعطاه ، ومن استغنى به أغناه ومن استجار به آواه ، ومن رضى عنه أرضاه ، يغفر الخطايا ، ويجزل العطايا ، العبد يخطىء ويهفو ، وهو سبحانه يصفح ويعفو .

يرحم من جفاه ، ويغيث من عصاه ، ويحيب من دعاه ، ويقبل من أتاه ، ويحب التائبين ، ويتعرف للجاهلين ، إحسانه قديم ، وجوده عميم ، وفضله عظيم ، وهو أرحم الراحمين ، وخير الفاتحين ، وخير الرازقين .

قال ﷺ فى بعض الأحاديث القدسية : " أنا عند ظنِّ عبدى بى ، وأنا معه إذا ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ، ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء ذكرته فى ملاء خير منه ، وإن تقرب منى شبراً ، تقربت منه ذراعاً ، وإن تقرب منى ذراعاً ، تقربت منه باعاً ، وإن أتانى يمشى ، أتيتُهُ هرولة " (١) .

وهو الذى عمَّ الإنسان بالإحسان ، وابتدأه بالإنعام ، وهو فى ظلمات الأرحام ، حيث لا عقول ، ولا أفهام ، ورياه بإكرامه ، وغذاه بإنعامه ، إن ربك لذو فضل على الناس . ولكن أكثر الناس لا يشكرون .

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد وابن ماجه .

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكى من يشاء والله سميع عليم، والحمد لله الذى هدانا لهذا، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

قال عليه السلام: " كان الله ولا شيء معه " (١)، وقال عليه السلام: " أصدق كلمة قالها الشاعر ألا كل شيء ما خلا الله باطل " (٢).

قال الله العظيم: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٣).
وقال تعالى: ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (٤).

ورحم الله القائل:

الله قُلْ، وذَرِ الوجودَ وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغَ كمالِ
فالكلُّ، دون الله إن حققته عدمٌ على التفصيل والإجمالِ
واعلم بأنك، والعوالمَ كلَّها لولاهُ فى محو وفى اضمحلالِ
مَنْ لا وجودَ لذاته من ذاته فوجوده، لولاهُ عينُ محالِ
فَالعارِفُونَ فنَّوا، ولما يشهدوا أحداً سوى المتكبر المتعالِ
ورأوا سواه على الحقيقة هالِكاً فى الحالِ، والماضى: والاستقبالِ
[من البحر الكامل]

(١) رواه الطبرانى .

(٢) رواه الشيخان وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) سورة القصص - الآية رقم ٨٨ .

(٤) سورة الأنعام - الآية رقم ٩١ .

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: قيل لسيدى على الخواص: يا سيدى... كل شىء مجهولٌ، ومعدوم إلا الحقن فإنه معروف موجود، فمن أين جاء للعبد أن يألف، أو يركن إلى الجهل، والعدم، دون المعرفة، والوجود.

فقال: الجهل، والعدم، أصل لظهورنا، والمعرفة، والوجود، أصل لظهور الحق، وما حصل بأيدي عبادهم، من المعرفة، والوجود، ففضلٌ منه ورحمة، وما حصل بأيديهم من الجهل، والعدم، فعدلٌ منه، ونعمة، ولا يظلم ربك أحداً، ثم إلى ربهم يحشرون.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: لا حجاب للعبد عن ربه إلا الوهم، إذ لو كان حجابٌ، لكن أقرب إلى العبد، وهو سبحانه أقرب إليه من حبل الوريد.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: ما حجبك عن الله وجودٌ موجود معه ولكن حجبك توهم موجود معه.

ورحم الله القائل:

مَذْعَرَفْتُ الْإِلَهَ لَمْ أَرْ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيْرُ عِنْدَنَا مَمْنُوعٌ

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: إِنَّ لِنَنْظَرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِيَصَائِرِ الْإِيمَانِ، وَالْإِيقَانِ.

فأغنانا ذلك عن الدليل، والبرهان، وصرنا نستدل به تعالى على الخلق، هل فى الوجود شىء سوى الملك الحق؟ فلا نراه، وإن كان لأبد، فنراهم كالهباء فى الهواء إنك فتشتهم لم تجدهم شيئاً.

لَقَدْ ظَهَرَتْ، فَمَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمَه لَا يَبْصُرُ الْقَمَرَا

لكنْ بطنَتْ بما أظهرتْ محتجِباً فكيف يُعرَفُ مَنْ بِالْعِزَّةِ استترا؟
وقد يكون من شدة الظهور الخفاءُ، كما قال بعضهم: الجليات إذا طلبت
صارت معتاصة^(١)، وقيل:

وليس بَصَحُّ في الأذهان شَيْءٌ إذا احتاج النهارُ إلى دليل
[من البحر الوافر]

قال في لطائف المنن: وأشبه شَيْءٌ بوجود الكائنات، إذا نظرت إليها
بعين البصيرة، وجودُ الظلال، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب
الوجود، ولا معدوم، باعتبار جميع مراتب العد، وإذا أثبتَ ظليَّةُ الآثار، ولم
تنسخ أحدية المؤثرات.

إذ الشَيْء إنما يشفع بمثله، ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً، من شهد
ظلية الآثار لم تعقه عن الله تعالى فإن ظلية الأشجار في الأنهار، لم تعق
السفن عن التسيار. انتهى.

ومن ذلك تفهم قول الشاعر:

وما أبينت لك المعالمُ إلا لتراها بعين من لا يراها
فارقَ عنها رقى من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاها

فائدة:

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: إذا عَظَّمَ الرَّبُّ في القلب، صَغُرَ
الخلق في العين. كما قال بعض الشعراء رحمة الله عليه:

فليتك تحلو، والحياةُ مريرةٌ وليتك ترضى، والأنام غضابُ
وليت الذى بينى وبينك عامرٌ وبينى والعالمين خرابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ، فَالْكَلْ هَيْنَ وَكُلْ الَّذِي فَوْقَ التَّرَابِ، تَرَابُ
[من البحر الطويل]

كان بعض المشايخ رضى الله عنهم إذا ذُكِرَ عنده هذا البيت، ينكر قول
الناظم (إِذَا صَحَّ) لتحقيقِ بثبوت الود، ولا يعتبر ما قال النحاةُ في (إِذَا) أنها
للتحقيق، فكان يجعل مكان (إِذَا) (لقد صح منك الودُّ)، وأعظم شاهد عليه،
نِعْمَةُ الْإِيمَانِ.

وإذا كانت المحبوبات، والمستلذات، والمستحسّناتُ من المذوقات،
والمرئيات، والمسموعات، والمشمومات، والملموسات، والمكتسبات،
والمستفيدات كلها هو الذى حسنّها، وأودع فيها ذلك المعنى الذى انجذبت إليه
القلوب، فكيف لا تنجم بكليتها على بديع جماله، وتستغرق الأفكار فى
عظمته، وجلاله، قال الشيخ أبو المحاسن الفاسى رضى الله عنه: كلُّ حُسْنٍ،
وجمالٍ يظهر، إنما هو أثر حسنه وجماله.

وقال رضى الله عنه: لا تستحسن غيره، فتحجب عنه، لأن ذلك
الغير، إنما ظهر به، ومنه، ولولا هو لم يظهر، والحب الطبيعى ينشأ عن
أمرين: الإحسان، والجمال. وأى محسنٍ غير الله تعالى؟. وكل جمال فهو
فرعٌ عن جماله، فليحب العبد الأصل، ولا يلتفت للفرع.
وقد قيل:

وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا ففى وجهٍ مَنْ تَهْوَى جَمِيعَ الْمَحَاسِنِ
[من البحر الطويل]

وقال غيره:

كَانَتْ لِقَلْبِي أَهْوَاءٌ مَفْرَقَةٌ فَاجْتَمَعَتْ مُذْ رَأَيْتُكَ الْعَيْنَ أَهْوَائِي

وصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مُذْ صِرت مولاتي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بحبك، يا ديني، ودنيائي
من أحسن إليك مرةً واحدةً، وجب عليك شكره، واستعبدك خيره.
قال ﷺ: "جُبِلَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حَبٍّ مِنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا".
وقيل: ولطالما استعبد الإحسانُ إنساناً.

فكيف بمولى لم يزل إحسانه إليك كثيراً؟، إنَّ فضلَهُ كان عليك كبيراً.
يا واصلى... لما جفاني غيره يا قائماً بي، والأنامُ رُقُودُ
تالله لا زلتم لنا... وبيالنا ما دام فى الشجر المورق عود
[من البحر الكامل]

وصلى الله على سيدنا محمد، وآله وسلم.

obeikandi.com

الباب السابع
فى
ذم التدبير مع الله
والاعتماد على سواه

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب السابع

فى ذم التدبير مع الله والاعتماد على سواه

التدبير: هو النظر، والاختيار برأى النفس، والهوى.

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه: هو تقدير شؤون يكون عليها فى المستقبل مما يُرجى، أو يُخاف، بالحُكم، لا بالتفويض، وهو سوء أدب مع المدبّر، الحكيم سبحانه.

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: لا ينبغي التدبير إلا لمن يعرف عواقب الأمور، وليس ذلك إلا لله تعالى.

فَمَنْ استشعر عظمة جلاله تعالى غضَّ طرفه عن ملاحظة نفسه، ودينياه، وبَتَّ طلاق مراده، وهواه، ولم يسعه تدبير، ولا اختيار، ولا اعتراض على ما جرت به الأقدار.

قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ (١).

قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ (٢)، والخلق فى دار الله تعالى. تحت حُكم ضيافته، والضيف لا ينبغي له أن يعول همًّا مع ربّ المنزل، فسلموا الأمر إليه، واعتمدوا فى جميع شؤونكم عليه، ومن أحسن دينًا من أسلم وجهه لله...؟

(١) سورة القصص - الآية رقم ٦٨.

(٢) سورة الأحزاب - الآية رقم ٣٦.

ولا تدبروا معه أمراً، ولا تختاروا عليه، فما تعرفون خيراً ولا شراً.
 قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

وأصل التدبير ضعف الإيمان، وقلة الثقة بالمدير، إذ لو اكتفى بتدبير مولاه، ما شاركه فيهن وربك لا شريك له، لا أنت، ولا غيرك، فمن شاركه في تدبير أمرك وأنت في بطن أمك؟.. وقبل ذلك؟، ويوم (ألست) (٢) يشهد بانفراده.

وهل شاركتني في الملك حتى غدوت منازعي والرشد باد.
 قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٣).

وصاحب التدبير لا يهنأ له عيش. لجريان أحواله على خلاف مراده.
 يُرِيدُ الْمَرْءُ أَنْ يُؤْتَى مِنْهُ وَيَأْبَى إِلَهُ اللَّهِ إِلَّا مَا أَرَادَا
 [من البحر الوافر]

قال في التنوير: مثل المدير مع الله، كمن بنى بناء على شاطئ النهر، كلما اجتهد في بنائه، كرت عليه الأمواج، فتداعى من جميع نواحيه، كذلك المدير مع الله تعالى، يبني مباني التدبير، وتهدمها إرادات المقادير، ولذلك قيل: يدبرُ المدير، والقضاء يضحك. قال الشاعر:

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٢١٦.

(٢) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الأعراف - الآية رقم ١٧٢ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

(٣) سورة يس - الآية رقم ٧٧.

متى يبلغ البنيان يوماً تامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

[من البحر الطويل]

قال الشيخ الشاذلي رضى الله عنه: مَنْ لَمْ يُدَبِّرْ دَبْرَ لَهُ، وَمَنْ دَبَّرَ وَكُلَّ إِلَى نَفْسِهِ، انْتَهَى. وَمَنْ وَكَلَ إِلَى نَفْسِهِ، أَلْقَتْهُ فِي الْمَهَالِكِ، كَمَا هُوَ مُشَاهِدٌ، وَمَعْلُومٌ، وَالْحَقُّ سَبْحَانَهُ قَالَ: مَنْ وَكَلْتَهُ إِلَى مَلِكٍ، وَمَنْ وَكَلْتَهُ إِلَى نَفْسِهِ هَلَكَ... اللَّهُمَّ لَا تَكُنَّا إِلَى أَنْفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ.

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: لَمَّا قُلْتُ: طَرْفَةَ عَيْنٍ، قِيلَ لِي، قُلْ وَلَا أَقْلَ مِنْ ذَلِكَ. فَكَمْ مِنْ أُمَّةٍ هَلَكَتْ فِي أَقْلٍ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ!.

فعلى العبد أن يكل الأمر لمولاه، ويرفض تدبيره، وهواه، علماً منه، أن الأمر قام به القادر، القوى، وما قام به غيرك عنك لا تقم به أنت، لنفسك،: وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً.

قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه: العلم كُلُّهُ فِي كَلِمَتَيْنِ، لَا تَتَكَلَّفُ مَا كَفَيْتَ، وَلَا تَضِيعَ مَا اسْتَكْفَيْتَ.

قيل لبعضهم: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: بِنَقْضِ الْعَزَائِمِ.

وقيل: يَخِيرُ اللَّهُ لِعَبْدِهِ وَهُوَ كَارِهِ.

وفى بعض الكتب المنزلة: يَا عَبْدِي... تَرِيدُ، وَأَرِيدُ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا مَا أَرِيدُ، فَإِنْ أَسْلَمْتَ لِمَا أَرِيدُ، أُعْطَيْتَكَ مَا تَرِيدُ، وَإِنْ لَمْ تُسَلِّمْ لِمَا أَرِيدُ، أَتَعْبَتِكَ فِيمَا تَرِيدُ، ثُمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا أَرِيدُ.

وقال فى التنوير، دخلت على الشيخ أبى العباس رضى الله عنه فشكوت له بعض أمرى فقال: إِنْ كَانَتْ نَفْسُكَ لَكَ، فَاصْنَعْ بِهَا مَا شِئْتَ، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ أَبَدًا.

وإن كانت لباريها، فسلّمها لباريها، يصنع فيها ما يشاء، ثم قال:
الراحة في الإسلام إلى الله تعالى، وترك التدبير معه هو العبودية. انتهى.

ورحم الله القائل:

وكم رمتُ أمراً أخرتَ لى فى انصرافه فما زلتَ بى منى أبرّ وأرحمًا

[من البحر الطويل]

فانظر أيها العبد.. كم بين اختيار الله سبحانه لعباده، واختيارهم لأنفسهم، فإنه تعالى اختار لبنى إسرائيل المن والسلوى، واختاروا لأنفسهم البقل، والقث.

واختار لنا الآخرة، فاخترنا الدنيا، وهو سبحانه وتعالى قال فى كتابه العزيز: ﴿وَلِلدَّارِ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١)، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٢)، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٣)، ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ (٤).

وشرّفنا سبحانه لما أعدّ لنا فى الجنة من الرضوان، والنعيم المقيم، ورؤية وجهه الكريم، فاخترنا الدنيا والعياذ بالله، واقتصرت همتنا على طلبها، والحرص عليها، مع عدم حصولها، واعواز المراد فيها، بعد أن حذرنا منها، وعرفّنا معاييبها، وذوّقنا مصائبها، ليهون علينا فراقها، فلم نر لها عيباً كما سيأتى فى وصفها.

فرغبنا فيها، وزهدنا فى الآخرة، وعدلنا عن طريق الجنة، إلى طريق النار، نسأل الله السلامة والعافية.

(١) سورة الأنعام - الآية رقم ٣٢.

(٢) سورة القصص - الآية رقم ٦٠.

(٣) سورة الأعلى - الآية رقم ١٧.

(٤) سورة الضحى - الآية رقم ٤.

قال ﷺ: "إني آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تتقحمون فيها تقحم الفراش" (١).

وقد أمرنا مولانا تبارك وتعالى بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (٢)، ونهانا بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ (٣).

وأخبرنا سبحانه بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٤)، ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٥)، ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (٧)، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (٨)، فعدلنا عن الطريق، واقتحمنا من شومط رأينا كل مضيق، ومع هذا... لم ننكر على أنفسنا التدبير، ولو أدى إلى التدمير، فهذا أمر ظاهر، عوار، لا يسعنا إنكاره.

وأهل الصدق في العبودية، والرضى بأحكام الربوبية بربهم فرحون، ولأحكامه مستحسنون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، فكل تصرفاته تعالى تعريفات لأهل السعادة.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند.

(٢) سورة الأنفال - الآية رقم ٢٤.

(٣) سورة النور - الآية رقم ٢١.

(٤) سورة المجادلة - الآية رقم ٢٢.

(٥) سورة المجادلة - الآية رقم ١٩.

(٦) سورة فاطر - الآية رقم ٦.

(٧) سورة يوسف - الآية رقم ٥٣.

(٨) سورة ص - الآية رقم ٢٦.

قال فى الحكم: متى أعطاك أشهدك برّه، ومتى منّعك أشهدك قهره، فهو فى كل ذلك متعرفٌ إليك، ومقبلٌ بإحسانه عليك، فلم يبق إر رُدُّ الأمر لمولاه، والرضى بما يختار، ويرضاه.

قال الشيخ الورعجى رضى الله عنه فى (عرائس البيان فى حقائق القرآن) عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾^(١)؛ الإسلام هو الرضى بمراد الحق، وإمضاء قدره، وقضائه.

وقال الشيخ ابن عطاء الله^(٢) رضى الله عنه: المسلم من أسلم نفسه لله.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: ما طلب منا ربنا هو الذى طلبنا منه، طلب منا أن نكون عند أمره، ونهيه، فطلبنا منه مثل ذلك.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: يا هذا لا تدخل همَّ غدك أو ستتك على يومك، فإن عشتَ، فسيأتيك الله برزق جديد، وإن مت فلا تشغل وقتك بهمَّ ما لا تلحقه.

وقيل لبعضهم: من أين تأكل؟ قال: من خزانة لا تدخلها اللصوص، ولا يأكلها السُّوس، ومن تأمل وجد رزقه قبل وقت التدبير أيسر، وأسهل منه بعد التدبير.

فإن الشارع ﷺ جعل نفقة الصغير على والده، إلى أن يبلغ قادراً على الكسب، فلا تزال نفقته عليه حيث لم يقدر على التمتعش، فسبحان المدبر الحكيم، إنه بكل شىء عليم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ١٩.



obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الثامن

فى القَدَر، والقضاء، والصبر، والتسليم، والرضا

القدر: كل ما يصيب العبد من خير، : أو شر، الإيمان به ركنٌ من أركان الإيمان، وهو أن تعلم: أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن. قال تعالى: ﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ (١)، وكُلُّ ما يصيب العبدَ فهو مراد الله تعالى فإن كان خيراً، فهو مطالب فيه بالشكر، وإن كان شراً، فهو مطالب فيه بالصبر.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (٢) تعالى أن يكون فى ملكه ما لا يريد، وكل ذلك جارٍ على ما سبق فى الأزل، جَفَّ القلمُ لما هو كائن. سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه عن القَدَر، فقال: هو أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فلو اجتمع الخلائق كُلُّهم على أن ينفعوك بشيء لم يرده الله تعالى، ما قدرُوا.

قال ﷺ: "واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك" (٣)، والأمر لله وحده، وكُلُّ ما سبق فى الأزل، لم تنفع فيه الحيل، قال ﷺ: "لا يغنى حذر من قدر" (٤)، وقال ﷺ: "الإيمان بالقَدَر يُذهبُ الهمَّ، والحزن" (٥).

(١) سورة التوبة - الآية رقم ٥١.

(٢) سورة التغابن - الآية رقم ١١.

(٣) رواه الطبرانى.

(٤) رواه الحاكم.

(٥) رواه الحاكم فى تاريخه.

فإذا علمت أيها العبد... أن الأمور كلها بيد الله سبحانه ومصدرها عن قضائه، ولا تتحرك ذرة إلا بقدرته تعالى، وأن مولانا تعالى حكيم، وأفعاله تعالى جارية على مقتضى مراده، ولا تخلو عن حكمة.

فاعلم أنه سبحانه يختبر عبده بما يشاء، من شرٍّ، أو خير.

قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ هُمُ السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾^(٣).

قال لقمان الحكيم لابنه: يا بُنَيَّ... الذهب والفضة، يُختبران بالنار، والمؤمن يختبر بالبلاء.

فائدة:

المصيبة تردُّ العبد لمولاه، وتدعوه للتعلق به، والدخول في حماه، حيث لم يجد أحداً سواه، فمصيبة تردُّك إليه، خيرٌ من عافية تشغلك عنه، ومن لم يرجع إلى مولاه طوعاً، رجع إليه في حالة الاضطرار كرها.

وهذه حكمته تعالى فيمن أعرض في حالة العافية، واشتغل بها، وكان معتنى به، فإن الله سبحانه لا يتركه كذلك، رحمةً به، فيردهُ إليه من حيث لا يدري. قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٤).

(١) سورة الأنبياء - الآية رقم ٣٥.

(٢) سورة العنكبوت - الآيات ١ - ٣.

(٣) سورة محمد - الآية رقم ٣١.

(٤) سورة الأعراف - الآية رقم ١٦٨.

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ
الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ (٢).

وقد قيل: المرء إن مسه وصف الضرُّ، عرف ربه بغير نُكر.

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: من لم يُقبلْ على الله،
بملاطفات الإحسان، قيدَ إليه بسلاسل الامتحان.

فقد بان لك معنى ما قيل: إن فى البلى أسراراً خفايا.

ومنك ذلك قول بعض المشايخ رضى الله عنهم: حمدتُ منك البلى،
ما لم نحمدُ من العافية، والمن فى طيِّ المحن، والمحن تأديبٌ من الله، كما
قيل:

فربَّما صَحَّتِ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

[من البحر البسيط]

وكم من نعمة فى طيِّ النِّقمة! وكم من نقمة فى طيِّ النعمة...! ولذلك
قيل:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلَوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَتَلَى اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ

[من البحر البسيط]

قال أبو حازم رضى الله عنه: كل نعمة لا تقرُّبُ من الله، فهى بلية،
والمصيبة إما تحصين للذنوب، أو تخصيص للمحسوب، أو عقوبة للمكروب.

(١) سورة الزخرف - الآية رقم ٤٨.

(٢) سورة الروم - الآية رقم ٤١.

وعلامة التمهيد: وجود الصبر، والاستسلام، وطمأنينة النفس، والسكون للأقدار، حتى تنكشف.

وعلامة التخصيص: الرضا. وعلامة العقوبة: التسخُّط، والجزع، والشكوى إلى الخلق. انتهى من الطبقات الكبرى، بالمعنى.

وقال سيدى على بن وفا رضى الله عنه: لا تُعِبْ أخاك بما أصابه من مصائب الدنيا، فإنه فى ذلك إما مظلوم، لينصرنه الله؛ أو مذنَّبٌ عوقب، فطهره الله، أو مُبتَلًى، قد وقع أجره على الله.

وقال ﷺ: "من أصاب ذنباً فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده".

وقال ﷺ: "أمتنا هذه أمةٌ مغفور لها، حسابها الزلازل، والفتن"، وفى رواية أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: "أمتى، أمةٌ مرحومة: لا عذاب عليها فى الآخرة، عَجَّلَ عقوبتها فى الدنيا، فى الزلازل والفتن، فإذا كان يوم القيامة، دُفِعَ إلى كل واحد من أمتى رجلٌ من أهل الكتاب، فقيل: هذا فداؤك من النار".

وقال ﷺ: "إن عذاب هذه الأمة، جُعِلَ فى دنياها" (١).

وأول ما يطالب به العبد عند نزول المصيبة، الصبر، وهو تجرُّع المِراة من غير تعبٍس قاله الجنيد رضى الله عنه.

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه: الصبر، الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقال رويم: الصبر، ترك الشكوى.

(١) لم نجده.

وقال ذو النون المصرى: هو الاستعانة بالله، والرضى فوق ذلك، وهو تلقى البلاء بالوجه الضاحك.

وقال عبد الواحد بن زيد رضى الله عنه: الرضا باب الله الأعظم، وجنة الدنيا.

قال القشيري رضى الله عنه: واعلم أن العبد لا يكاد يرضى عن الحق سبحانه وتعالى إلا بعد أن يرضى عنه الحق جلّ وتعالى لأن الله عز وجل قال: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾^(١).

وكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه: أما بعد . . .

فإن الخير كله فى الرضا، فإن استطعت أن ترضى، وإلا فاصبر. وأوحى الله إلى داود عليه السلام إن أسرع الناس مروراً على الصراط، الذين يرضون بحكمه.

ومن الناس من يتلقى المصائب بالشكر، وهذا أرفع المقامات المذكورة وهو مقام المحبين الذين يستعذبون العذاب، ويستسهلون الأمور الصعاب، كما قال معاذ بن جبل رضى الله عنه: اخْنُقْ خَنْقَكَ فَإِنِ أَحْبَبَكَ.

وقيل: إن عتبة الغلام، بات ليلة إلى الصباح، يقول: إن تعذبني فأنا لك محب، وإن ترحمني فأنا لك محب.

وقال عمران بن حصين رضى الله عنه لما طالت به عنته، نحو ثلاثين عاماً: أحبه إلى الله، أحبه إلىَّ.

قال فى التحبير: حُكِيَ أَنَّ الشُّبْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جُرَّ مَرَّةً، فَحُبِسَ فِي

(١) سورة البينة - الآية رقم ٨.

المارستان، فدخل عليه قوم، فقال: من أنتم؟ قالوا: أحبابك، فأخذ يرميهم بالحجارة، ففروا، فقال: يا كذبة، لو صدقتم في ولائي، ما هربتم من بلائي.

وفى بعض الأحاديث القدسية: "من لم يرض بقضائي، ولم يصبر على بلائي، فليخرج من تحت سمائي وليتخذ إلهاً غيري" (١).

وفى بعض الأخبار: أول ما كتب الله عز وجل في اللوح المحفوظ: أنا الله، لا إله إلا أنا، من لم يستسلم لقضائي، ولم يصبر على بلائي، ولم يشكر نعمائي، فليطلب رباً سوائى.

وقال أبو على الدقاق رضى الله عنه: من علامة التأييد، حفظ التوحيد في أوقات الحكم.

وقد قيل: عند نزول المصائب يتأكد حسن الظن بالله تعالى. ورحم الله ابن وفاء القائل:

وفى حالة السخط لا فى الرضا بيان المحب من المبغض

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: فهنيئاً لمن عرفك، فرضى بقضائك، والويل لمن لم يعرفك،: بل الويل ثم الويل لمن أقرّ بوحدانيتك، ولم يرض بأحكامك. وقد تقدم أن أول ما يطالب به العبد فى المصائب، الصبر، ووعد الله سبحانه عليه جزيل الأجر.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ وإنما ورد فى الطبرانى: (من لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي فليتمس رباً سوائى).

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١﴾ ، ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ
وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (٢) .

قال محمد بن علي الباقر رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿وَجَزَاهُمْ
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ (٣) الآية ، قال : بما صبروا على الفقر ، ومصائب الدنيا .

وقد ذكر الله سبحانه فى كتابه العزيز ، للصابرين ثمانية من الكرامات :

أولها : المحبة : قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٤) .

والثانية : النصر ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٥) .

والثالثة : قوله تعالى : ﴿أُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ (٦) .

والرابعة : الأجر الجزيل ، قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ

حِسَابٍ﴾ (٧) .

وأربعة : مجموعة فى آية واحدة ، وهى البشارة ، والصلوات ، والرحمة ،
والهداية ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ﴾ (٨) .

(١) سورة البقرة - الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٧٧ .

(٣) سورة الإنسان - الآية رقم ١٢ .

(٤) سورة آل عمران - الآية رقم ١٤٦ .

(٥) سورة البقرة - الآية ١٥٣ .

(٦) سورة الفرقان - الآية رقم ٧٥ .

(٧) سورة الزمر - الآية رقم ١٠ .

(٨) سورة البقرة - الآيات ١٥٥ - ١٥٧ .

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ (٤).

وقد ورد فى القرآن فى نيف وسبعين موضعاً. فالصبر مظنة النجاح،
وسبب الفلاح، وأفضل العدة، والصبر عند الشدة.

قال ﷺ: "انتظار الفرج بالصبر عباده".

وقيل:

إن الأمور إذا انسدت مسالكها فالصبر يفتح منها كل ما ارتجأ
أخلق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ

[من البحر البسيط]

وعدم الصبر مصيبة ثانية، أعظم من الأولى، لفوات الأجر، وحصول
الوزر، زيادة على ما هو فيه. كما قيل:

عَظُمَتْ مُصِيبَةٌ مُبْتَلًى لَا يَصْبِرُ

[من البحر الكامل]

وقيل:

وَعَوِضْتَ أَجْرًا مِنْ فَقِيدٍ فَلَا يَكُنْ فَقِيدُكَ لَا يَأْتِي وَأَجْرُكَ يَذْهَبُ

[من البحر الطويل]

ولولا الصبر، ما ثبت الأجر. قال بعضهم: أثقل الأعمال فى الميزان،
أثقلها على الأبدان.

كما قيل:

تُرِيدُونَ إِذْرَاكَ الْعَالَى رَخِيصَةً وَلَا بُدَّ دُونَ الشُّهْدِ مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ
[من البحر الطويل]

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: الصبر مطيئة لا تكبو
وقال رضى الله عنه: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد.
ومن ثم، قال ابن عيينة رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَمَةً
يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾^(١)، لما أخذوا برأس الأمر، جعلناهم رؤوساً..
وفى بعض الأحاديث القدسية: "بعينى ما يتحمل المتحملون
لأجلى"^(٢).

وقال بعض العلماء فى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾^(٣)، الصبر
الجميل: أن يكون صاحب المصيبة فى القوم، لا يُدرى من هو...!
وإذا علم العبد، أن وقوع غير مراد الله تعالى محال، فعلام النزاع،
والجدال؟ لا يسأل عما يفعل، ولا معقب لحكمه، والحكم لله العلى الكبير،
الرب ربُّ، والعبد عبدٌ.

قال الشيخ سيدى داود الباخرى رضى الله عنه: من غفلة العبد، وعمى
قلبه، نسبة الأشياء لغير ربه. فإذا أقرَّ الإنسان بما لله عليه من الإحسان، وآمن
بأنه حكيم، علم أن ما يصيبه من مُرِّ القدر هو كالكى للمريض، والتعالج
بالصبر.

(١) سورة السجدة - الآية رقم ٢٤.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٣) سورة الماعرج - الآية رقم ٥.

وَكُلُّ مَا أَلَمَ النَّفْسَ، وَقَهَرَهَا، فَهُوَ خَيْرٌ لَهَا، وَلَوْ قَهَرَهَا جَبْرُ الْقَدَرِ،
 لَطَغَتْ فَإِنْ فَرَعُونَ لَمَا طَالَتْ عَافِيَتُهُ، ادْعَى الرُّبُوبِيَّةَ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ طَغْيَى﴾
 أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْنَى^(١)، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ
 إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾^(٢).

فائدة:

قال الشيخ أبو المحاسن رضى الله عنه: الرزق اثنان، مُعَجَّلٌ، ومُؤَجَّلٌ،
 فما يلائم العبد حظ معاشه، وما يؤلمه رزق معاده، فاختر ما يبقى، على ما
 يفنى، والآخرة خيرٌ وأبقى، انتهى.

والمؤمن لا يخلو من قلة، أو علة، أو ذلة، ومع الذلة تكون النصرة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(٣).

وقال عبدالله بن المبارك رضى الله عنه: ليس للمؤمن دولة في الدنيا،
 إنما دولته في الآخرة.

وكان سيدى أحمد الزاهد رضى الله عنه إذا أتاه أحدٌ بولده، يدعو له
 يقول: اللهم... لا تجعل لهذا الولد، كلمة، ولا حرمة، فى هذه الدار.

وقيل: إن الحسن بن ذكوان رضى الله عنه رأى فى النوم بعد موته،
 بسنة، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: أنا محبوسٌ فى إبرة استعرتها، فلم
 أردّها. فقيل له: أى القبور أكثر إضاءة؟ فقال: قبور أهل المصائب فى الدنيا.

(١) سورة العلق - الآيتان ٦ - ٧.

(٢) سورة الشورى - الآية رقم ٢٧.

(٣) سورة آل عمران - الآية رقم ١٢٣.

فائدة:

قال ﷺ: "والله، لا يقضى الله لعبده المؤمن قضاء إلا كان خيراً له" (١).

وقال ﷺ: "من يُرد الله به خيراً يُصب منه" (٢).

وقال ﷺ: "إن الله يتلى عبده المؤمن، وما يتلىه إلا لكرامته عليه" (٣).

وقال ﷺ: "إن الله ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء، كما يتعاهد الوالد ولده بالخير".

وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: إذا أحب الله عبداً أكثر همّة. فقد بان لك، أن قضاء الله تعالى خيراً على كل حال، وهو سبحانه المحسن على الإطلاق، وإذا كان إحسانه جارياً على أعدائه، فكيف لا يجريه على أودائه...؟ وما قطع مدده عن العصاة...، فكيف يقطعه عن المطيعين؟ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤).

يا صاحبي... يا صاحبي ليس الفلاح بسائب

قال ﷺ: "حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات" (٥).

ورحم الله القائل:

لا تحسب المجد تمرّاً أنت آكله
لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه الإمام البخارى وأحمد فى مسنده.

(٣) رواه الحاكم.

(٤) سورة البقرة - الآية رقم ١٤٣.

(٥) رواه البخارى ومسلم والترمذى والإمام أحمد.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه: خمسٌ من لم يكن فيه شيء منها فلا إيمان له: التسليمُ لأمر الله، والرضا بقضاء الله، والتفويض إلى أمر الله، والتوكل على الله، والصبر عند الصدمة الأولى.

فعلى العبد أن يحسن ظنه بمولاه، ويعتقد الخير فيما به ابتلاه، وأنه تعالى مُطَّلَعٌ عليه، وناظر إليه. قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (١).

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: ليخفَّ ألم البلاء عليك، علمك بأنه سبحانه هو المبتلى لك، فالذى واجهتك منه الأقدار، هو الذى عودك حسن الاختيار. وقد قيل:

كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ فِيمَا مَضَى كَذَلِكَ يَحْسِنُ فِيمَا بَقِيَ
وقيل:

إِنَّ رَبًّا كَفَاكَ مَا كَانَ بِالْأَمْسِ سَيَكْفِيكَ فِى غَدٍ مَا يَكُونُ
وقيل:

مَا عَوَّدَ الرَّحْمَنُ إِلَّا بِفَضْلِهِ وَبِفَضْلِهِ يُبْقَى لَنَا مَا عَوَّدَا
وقيل:

لَا عَتَبَ يَلْحَقُهُمْ فِيمَا بِهِ حَكَمُوا حَسْبَى جَمِيلٌ الثَّنَا يَا لَيْتَهُمْ قَبَلُوا
مَا عَوَّدُونِى أَحَبَّائِى مُقَاطَعَةً بَلْ عَوَّدُونِى إِذَا قَاطَعْتُهُمْ وَصَلُوا
وقيل:

وَإِنِّى لَأَرْجُو اللَّهَ حَتَّى كَأَنِّى أَرَى بِجَمِيلِ الظَّنِّ مَا اللَّهُ صَانِعُ

(١) سورة الطور - الآية رقم ٤٨.

قال فى الحكم: إن لم تحسن ظنك به لأجل وصفه، حسن ظنك به لأجل معاملته معك، فهل عودك إلا حسناً، وهل أسدى إليك إلا منناً؟ . وانظر ما نسبة النقم، مما لله تعالى علينا من النعم؟ .

تنبيه:

قال الحسن البصرى رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾^(١): قال: يعدُّ المصائب، وينسى النعم، وكم من مصيبة تطيش لها الأحلام.

وتدهش منها الأعلام، تنزل بالمؤمن مصحوبة بلطف خفى، ممن هو بعبده خفى، فتجلى كمر السحاب، وتعقبها الراحة والثواب:

فلا دهشٌ وحامى الحى حى ولا عطشٌ وساقى القوم باق
[من البحر الوافر]

ومن نظر إلى حسن تدبيره تعالى وحكمته، ولطيف صنعه، ورحمته، صحَّ عنده الخبر، وألقى السلاح للقدر، ورجع بالتضرع لمولاه، والاستكانة لما قضاه.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾^(٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا؟^(٢).

فمن وفقه الله سبحانه يرجع عند نزول القدر لمولاه، بالتضرع، والانكسار، ويسكن تحت مجارى الأقدار، ويعلم أنه مستوجب العذاب الأليم، لولا ما عامله به مولاه الستار العليم.

(١) سورة العاديات - الآية رقم ٦.

(٢) سورة الأنعام - الآيتان ٤٢ - ٤٣.

ويتأدب بآداب القرآن العظيم، ويقول: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(١)، ويذكر قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾^(٣).

ورحم الله القائل:

على قَدَرِ تقوى الله تأتى المواهب وتأتى على قدر الذنوب المصائب
[من البحر الطويل]

وأضرُّ ما على العبد فى هذا العبد فى هذا الباب، أن يرى نفسه كالمظلوم، ومولانا تعالى قال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾^(٤)، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾^(٥).

قال عبدالله بن مسعود رضى الله عنه: لأن يقبض أحدكم على جمره حتى تنطفئ، خيرٌ من أن يقول لأمر قضاءه الله: ليت هذا لم يكن.

تنبيه...

قال الشيخ الشعرانى رضى الله عنه: لا يجوز للعبد قط أن يطلب تأخير ما عجل الله، ويقول لربه عز وجل غير ما سبق به علمك، وجرى به قلمك لأجل خاطرى. بل... لو أطلع الله تعالى هذا العبد، على بعض ملائكته، ما استطاع من هيئته أن يقول له مثل ذلك.

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة الشورى - الآية رقم ٣٠.

(٣) سورة فاطر - الآية رقم ٤٥.

(٤) سورة الكهف - الآية رقم ٤٩.

(٥) سورة فصلت - الآية رقم ٤٦.

وقد تجلّى لموسى عليه السلام من عظمة الله عز وجل مقدار سمّ الخياط
فى رأى العين فذكّ الجبل، خرّ موسى صَعَقًا.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: كرامةُ الله فى الرضا،
تلهيك عن المصائب إلى يوم اللقا.

وقال فى الحِكمَ: ما تجده النفوس من الهموم، والأحزان، فلاجل ما
منعت من وجود العيان.

وقال الشيخ الورّجى رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ
حُبًّا لِلَّهِ﴾^(١)، لأن أهل الإيمان، والتوحيد، سمعوا خطاب قوله تعالى:
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾^(٢)، بالسمع الخاص فى سابق الدهر، ورأوا مشاهدة جلاله،
قبل وقوع البلىا.

فبقى فى قلوبهم لذة المشاهدة، والخطاب، فيستعذبون مرارة بلائه،
وغُصص امتحانه، فيقبلون منه ببذل نفوسهم، وترك حظوظهم، والوفاء
بصدق عهودهم فى أمر محبوبهم.

ثم قال: لأنهم يرون البلاء من الله نعمة، ولا يحجزهم عن محبتهم
لربهم، ترادف المحن عليهم، بل... يزيدهم ذلك محبة له، فلذلك قال:
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾^(٣).

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ
كَافَّةً﴾^(٤): الرضا بالقضاء، قاله الجنيد رحمه الله.

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٦٥.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ١٧٢.

(٣) سورة البقرة - الآية رقم ١٦٥.

(٤) سورة البقرة - الآية رقم ٢٠٨.

وقال ابن عطاء: اتباع الأوامر والنواهي .

وقال أبو عثمان: السُّلَمُ: هو الخمود تحت مجارى القدرة، لك، أو عليك .

ورحم الله القائل :

ملكْتُ نَفْسِي وَكُنْتُ عَبْدًا فَزَالَ رَقِّي وَطَابَ عَيْشِي
أَصْبَحْتُ أَرْضَى بِحُكْمِ رَبِّي إِنْ لَمْ أَكُنْ رَاضِيًا فَأَيْشِي..؟

حكاية أوردها الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه عن عبد العزيز بن أبى رواد، أحد رواة البخارى رضى الله عنهم قال: كانت لنا جارة ولدت ست بنات، فقليل لها: إن ولدت بنتًا أخرى فاحمدى الله، واشكره .

فقالت: والله، إن جئت ببنت لا حمدتُه، ولا شكرته، قال: فولدت قردة، فدخلت عليها مع أمى وأنا صغير فوجدتها ترضعها، فمكثت سبعة أيام، ثم ماتت تلك القردة. قاله فى العهود الصغرى .

وقال الشيخ سيدى محمد بن عبد الله معن رضى الله عنه: مما كتبه لبعض أصحابه، واعلم أن من شاهد الفعل من مولانا، هانت عليه النوازل، ويقوى إيمانه بالقدر، خير، وشره، حلوه، ومره .

وما ذكرتم من ضيق الزمان، والمكان، والحال، فذلك كُلُّه من تدبير الكبير، المتعال، ليردَّ عبده إليه ويمنعه من مراده، وهواه. إلى أن قال: الممرضُ عنده الشفاء، فاللجاء، اللجاء إليه، والاعتصام به ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١)، وقد قيل: من كان لله، كان الله له، وقد ورد

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ١٠١ .

عن الله تعالى: عبدى كن لى كما أريد، أكن لك كما تريد. انتهى محل الحاجة منه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: الرضى عن الله، ثوابه الرضى من الله، فإن ترض عن الله، يرض عنك، وإن تسخط قضاء الله، يسخط عليك. قال تعالى: ﴿كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ (١)، انتهى.

وليس المصاب من تصرف فيه مالكة بمقتضى مشيئته، ومراده وفعل به ما يفعله بأهل قربه، ووداده، إنما المصاب من حُرِّم الوقوف بالباب، ورضى بالغفلة، والحجاب، واشتغل عن المسبب بالوقوف مع الأسباب، فمن وجد الله، ما ضره ما فقد، من صحة أو مال، أو ولد، إذ لا وحشة مع الله، ولا أنس مع غير الله.

وسمعت رابعة العدوية رجلاً يتكلم عن الجنة، وما أعدَّ الله فيها لعباده المؤمنين، فقالت له: يا هذا... عليك بالجار، قبل الدار، فإن الدنيا سجن من لم يكن الله أنيسه، والنار جنة من كان أنسه بالله.

وانظر آدم عليه السلام لما أكل من الشجرة لم تسعه الجنة، وإبراهيم عليه السلام لما ألقى فى النار، وكان قلبه متعلقاً بالله، كيف عادت بالله برداً وسلاماً.

ولما توفى رسول الله ﷺ سَمِعَ صوت من حجرته، يقول: إِنَّ فى الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرگاً من كل فائت، فبالله فثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإن المصاب من حرم الثواب. قيل: ذلك الخضر عليه السلام.

(١) سورة محمد - الآية رقم ٩.

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: إن صبرت، مضى أمر الله،
وكنت مأجورا، وإن جزعت، مضى أمر الله، وكنت مأزورا.

وقال ﷺ: "عجبا للمؤمن أمره كله بخير، إن كان فى نعمة فشكر، فله الأجر، وإن كان فى محنة فصبر، فله الأجر" (١).

وقال ﷺ: "الإيمان نصفان، نصف شكر، ونصف صبر" (٢)، وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: من صدق لجاه، وقوى رجاءه، وانقطع عن الخلق نظره، فشده لا تزيد على ثلاثة أيام.

وقال أيضاً رضى الله عنه لو أن الغريق لا يتخبط، لنجا.

تنبيه...

من عسرَ عليه أمره، واشتدت مصيبتُه، ولم يجد منها مخرجاً، فلا يلومن إلا نفسه، لأن ذلك من عدم التقوى، ولو أنه اتقى الله تعالى لفرج الله عنه، لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً﴾ (٣)، ولذلك قيل: يا مدعى التقوى.. أين المخرج؟، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ (٤).

وقال ﷺ: "احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله فى الرخاء، يعرفك فى الشدة" (٥).

(١) رواه الإمام أحمد فى المسند.

(٢) رواه البيهقى.

(٣) سورة الطلاق - الآية رقم ٢.

(٤) سورة محمد - الآية رقم ٧.

(٥) رواه الترمذى.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١)، ولو نزلت بهمط المصائب العظام، لم تهمهم، ولا يتزلزل يقينهم، وبه تفهم قول محشاد الدينورى رضى الله عنه: من يكن الله هممه، لم تستطعه الأقدار، ولم تملكه الأخطار.

وقد تنزل المصائب العظام بالأكابر، لقوتهم على حملها بما أكرمهم الله تعالى به، من محبته، فلا يجدون لها ألماً كغيرهم.

وافهم قوله ﷺ: "أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الصالحون"^(٢)، فلذلك تجد المؤمن مصاباً.

قال ﷺ: "لو كان المؤمن فى حجر فارة، لقيض الله له فيه من يؤذيه"، وقد لا تنزل ببعض الناس، وإن استحقها، لما علم الله تعالى من ضعفه، أو لادخار العقوبة للآخرة.

تنبيه...

قال بعض الشيوخ: لا تتبين مراتب الناس بالسلامة من الفتن، وإنما تتبين المراتب بالسكون تحت مجارى الأقدار، والاستسلام لما يفعله الواحد القهار.

وقال ﷺ لرجل قال له: "أوصنى": لا تتهم الله فى شىء قضاه عليك" قال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

(١) سورة يونس - الآية رقم ٦٢.

(٢) رواه الطبرانى.

(٣) سورة البقرة - الآية رقم ٢١٦.

قال فى التنبيه: عن أبى طالب المكى رضى الله عنه فى هذه الآية: فالعبد يكره العيلة، والفقر، والخمول، والمرض، وهو خيرٌ له فى الآخرة، ويحب الغنى، والعافية، والظهور، وهو شرُّ له فى الآخرة.

وفى معنى قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾^(١)، قيل: ظاهرة: العوافى، وباطنة: البلايا، لأنها نعمة فى الآخرة.

فإذا. . كل ما يصيب المؤمن، فهو نعمة، فالحمد لله على نعمة.

ومن ألطافه تعالى فيما يصيب به العبد على ما قاله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه أن البلايا التى يبتلى الله تعالى بها عباده، مناقضة لإراداتهم، ومنغصةٌ لشهواتهم.

وكل ما أزعج النفس، ونغصها، وآلمها، فهو محمود العاقبة، من قبل أن ذلك رادُّ له إلى الله تعالى، وملازمة بابيه، بصدق اللجوء، والافتقار، وهذا هو أعظم البلايا، ويجد ذلك من نفسه، كل من نزلت به بليَّةٌ، أو أصابته رزيةٌ.

وفىها أيضاً: ضعفُ النفس، وذهاب قوتها، وبطلان صفاتها، إذ بوجود ذلك يقع العبدُ فى الذنوب، والمعاصى، وتتأكدُ منه الرغبة فى الدنيا، والحرصُ على اتباع الهوى.

ومن حكمته تعالى أن يقطع عن المؤمن المصاب منفعة المعارف، والأحباب، حتى إذا لم يجد من يحنُّ إليه، ويبثُّ شكواه لديه، ونودى عليه بلسان الحال:

إنك لا تشكو إلى مصمت فاصبرُ على أكمل الثقل أو مت

(١) سورة لقمان - الآية رقم ٢٠.

رَجَعَ اضْطِرَارًا إِلَى مَوْلَاهُ، وَاحْتَمَى بِمَنْعِ حِمَاهُ. وَانْقَطَعَ رَجَاؤُهُ مِنْ سِوَاهُ، فَجَاءَهُ الْفَرَجُ، وَاسْتَنَارَ صَدْرُهُ، وَانْشَرَحَ.

قال بعض الحكماء: آفة الشكوى، أعظم من آفة البلوى. كما قيل:

شَكَوَى الضَّعِيفُ إِلَى ضَعِيفٍ مِثْلِهِ عَجَزُ أَقَامَ بِحَامِلِيهِ عَلَى شَفَا

[من البحر الكامل]

وحاصلها: شماتة الأعداء، أو حزن الأوداء، مع ما هو أعظم من ذلك، من سوء الأدب مع الله تعالى، وقد قيل:

لَا تَشْكُونَ إِلَى قَوْمٍ فَتَشْمِتَهُمْ

شَكَوَى الْجَرِيحُ إِلَى الْعُقْبَانِ وَالرَّخْمِ

وقيل:

لَا تَشْكُونَ لِعَاذِلٍ أَوْ عَاذِرٍ حَالِيكَ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ
فَلَرَحْمَةٍ الْمَتَوَجِّعِينَ مَرَارَةً فِي الْقَلْبِ مِثْلَ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ

[من البحر الكامل]

وقال غيره:

وَيَمْنَعُنِي الشَّكْوَى إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ عَلِيمٌ بِمَا أَشْتُكُوهُ قَبْلَ أَقُولُ
وَيَمْنَعُنِي الشَّكْوَى إِلَى النَّاسِ أَنِّي عَلِيلٌ، وَمَنْ أَشْكُو إِلَيْهِ عَلِيلٌ

[من البحر الطويل]

وقال غيره:

عَلَيْكَ بِكُتْمَانِ الْمَصَائِبِ وَاصْطَبْرُ عَلَيْهَا فَمَا أَبْقَى الزَّمَانُ شَفِيقًا

كَفَّاكَ مِنَ الشَّكْوَى إِلَى النَّاسِ أَنَّهَا تَسُرُّ عَدُوًّا، أَوْ تُسِيءُ صَدِيقًا

[من البحر الطويل]

والصبر أجمل، وأولى، وبه يُنال رضى المولى، وإذا أُصيب العبد فى المال، فهو عرض زائل، ولذلك سُمى: مال، وليذكر يوم خروجه إلى الدنيا، ويوم خروجه منها.

فإنه حينئذ لا يملك شيئاً، ولا يصحبه للدار الباقية إلا عمله،: وربما يكون ماله حجةً عليه، يزيد به الحساب، ويستوجب به العقاب، وإذا كان من حلال فإيا لها من ذخيرة مؤجلة، وفائدة محصلة، وإذا كانت بالإذاية، فكل لله أمرك، واحتسب عليه أجرك، وارجع إلى علم الله فيك.

فقد قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: إنما أجرى الأذى عليهم، كى لا تكون ساكناً إليهم، أراد أن يزعجك عن كل شيء، حتى لا يشغلك عنه شيء. وحسبك ما يجازيهم به مولاك، وما ورد فى ذلك من الوعيد الشديد، ولا تشغل وقتك بمعارضتهم، يكفيك من عدوك قلة دينه.

ولا تنتصر بنفسك لنفسك، فلا قدرة لك على ذلك، ومن لم يجعل الله له نوراً فماله من نور، وقل حسبى الله ونعم الوكيل، وأفوض أمري إلى الله، إن الله بصير بالعباد، وكفى بالله ولياً، وكفى بالله نصيراً.

وإن كانت بالمرض، فالصنعة إذا عيّت، يرجع فى أمرها إلى الصانع، فالذى خلقه، وسواه، وأضعفه، وقواه، وغذاه، ورباه، هو الذى بحكمته ابتلاه، وليذكر ماله من الأجر الكثير، والفضل الكبير.

وأما التألم، والتوجع، فهو أمر لازم للبشرية، لا سيما مع ضعف القلب، والغفلة عن الرب، فليحذر التسخط، والامتعاض من القضاء،

ول يذكر قوله ﷺ: "إذا اشتكى المؤمن أخلصه ذلك من الذنوب، كما يُخلصُ الكير الخبث من الحديد" (١).

وإذا كانت المصيبة بفقد ولد، فالذى أوجده هو الذى أخذه، وما كان إلا عارية، وأحكام الموت على الكل جارية.

ول يذكر ما ورد فى ذلك من قوله ﷺ فى بعض الأحاديث القدسية: "إن الله تعالى قال: إذا أصبت عبدى المؤمن بمصيبة فى ماله، أو بدنه، أو ولده، فصبر، استحى يوم القيامة، أن أنصب له ميزاناً، أو أنشر له ديواناً" "بالمعنى"، وقوله ﷺ: "منك عَظُمَتْ مصيبتُه، فليذكر مصيبتَه بى، فإنَّ أمتى لن تصاب بمثلَى".

وقال ابن عطاء رضى الله عنه: إنما ابتلى الخلق بالفراق، لئلا يكون لأحد سكون مع غير الله تعالى.

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: كن مع الله، كالطفل مع أمه، كلما دفعته عنها ترامى عليها، واتخذته ولياً، وحبيباً، يجعل له من رضاه نصيباً.

ولا تُراع الخلق فيما يصدر عنهم، من نفع أو ضرر، فإنَّهم من حيث الحقيقة مسخرون فى الخير، مسلطون فى الشر، ولا تشرك بالله شيئاً، وقال: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (١).

فإنَّ الخلقَ مصرَّفون، لا مصرَّفون، من لا يملك لنفسه ضرراً، ولا نفعاً، إلا ما شاء الله، فكيف يضرُّ غيره؟ أو ينفع؟ قل كلُّ من عند الله، ومن كان

(١) رواه البخارى.

(٢) سورة الكهف - الآية رقم ٣٨.

عبدًا لله، فكيف يرجو أو يخاف أحداً سواه؟ ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴿١﴾.

قال ﷺ: "من خاف الله، خوَّفَ الله منه كل شيء، ومن لم يخف الله، خوفه الله من كل شيء".

فلذلك تجدُ الغافل كثير الأوهام، مهما نزل به أمرٌ رجع إلى تدبير نفسه، والتعلُّقُ بأبناء جنسه، وينسب الفعل إلى الخلق، ويُعرض عن باب الملك الحق.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٢).

فائدة:

إذا ضاق الصدر عن حمل إذية الخلق، فليكل أمره إلى مولاه، وليقبل على التسبيح، والحمد لله، بصدق التوجه، وملازمة السجود، والعبادة؛ أبداً.

فبذلك أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾، وافهم... قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٩٩)، قال بعض العارفين رضى الله عنهم: من معنى هذه الآية الكريمة، أن الصَّفْحَ الجميل، هو عدمُ المؤاخذه، مع الاعتذار عن الجانى، بعدم القدرة من حيث الحقيقة.

(١) سورة النحل - الآيتان ٥٢ - ٥٣.

(٢) سورة آل عمران - الآية رقم ١٧٥.

(٣) سورة الحجر - الآيات ٩٧ - ٩٩.

(٤) سورة الحجر - الآية رقم ٨٥.

بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾^(١)، والنفس علةٌ في كل مصيبة، فما ابتلى العبدُ إلا منها.

قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: كان الموبدان يقول إذا لم تتساو سريرة الناس، وعلايتهم، فلا تستغربوا ما يحلُّ بهم من البلايا. وقال فى كتاب الأخلاق: ومن أخلاقهم؛ كثرة الصبر على جور الحُكَّام، وشهودهم أن ما جاروا به عليهم، دون ما كانوا يستحقونه بذنوبهم. قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه: كان الحجاج الثقفى بلاءً من الله، وافق خطيئة.

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: مكتوب فى التوراة؛ أنا الله.. مالك الملوك، قلوب الملوك بيدى.

فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وتوبوا إلىَّ، أعطفهم عليكم.

وقال ﷺ: "إذا رأيتم من ولا تكم شيئاً تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يداً من طاعته".

وقال الرشيد لعلّى بن عيسى: أطع الله، يعطفنى عليك، ولا تعصنى فيسلطنى عليك.

وكان عبد الملك بن مروان يقول لرعيته: أنصفونا معشر الرعية، تطلبون منا أن نسير بكم سيرة أبى بكر وعمر، ولا تسيرون بسيرة رعيتهما!!.. فنسأل الله.. أن يعين كلَّ واحدٍ منا على صاحبه.

(١) سورة الحجر - الآية رقم ٨٦.

وكان ابن السماك رضى الله عنه يقول : كما ابتليتكم بالأعمال التى لا ترضى ربكم، وقلتم: إن الله قدر ذلك، فأقيموا العذر لولائكم، فإن الله تعالى هو المقدر عليهم ما ظلموكم به .

فكما تقيمون العذر لأنفسكم باطنًا، كذلك ينبغي لكم أن تقيموا العذر لهم، فإن أحدهم يود أن لم يظلم أحداً منكم، ولكن أعمالكم هى السبب فى ظلمكم، انتهى .

وقال سيدى أبو الفضل الأحمدي رضى الله عنه : كفوا غضبكم عن يسىء إليكم بإرادة ربكم .

وقال فى العهود الصغرى : قال سيدى على الخوَّاص رضى الله عنه : ليس لأهل القرن العاشر أنفع من تحمّل الأذى، والجور من الحكام .

وذلك لأنهم يقصرون فى الأعمال الصالحات التى كان عليها السلف الصالح من قيام الليل، وصيام النهار، وكثرة الصدقات، والخيرات، فيسلط الله عليهم الحكام، وغيرهم، بالأذى، وإخراجهم من أوطانهم، وعزلهم عن وظائفهم، وأخذ ما بيدهم من الرزق، والأوقاف، فيجير الله بذلك ما وقع منهم من الخلل فى الطاعات، إكراماً لهذه الأمة المحمدية .

أقل ما هنالك : الكلام فى عرضهم من بعض الأقران، لا سيما من العلماء، فيحكم الله تعالى المستغاب فى حسنات ذلك العالم، فيأخذ غالبها، ثم فى حسنات صالح آخر، فيأخذ غالبها، وهكذا . . . فيكثر حسنات ذلك الشخص، ويلتحق بالعلماء، وعباد الله الصالحين، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

فائدة:

قال فى العهود: لو نظر الإنسان، وجد تنقيص الخلق له من نعم الله السابعة عليه، لأنه يصير يتحكم فى حسناتهم فى الآخرة، وله أن يقول: ما أرضى فى غيبتى، وتنقصى، إلا بجميع أعمال فلان الخالصة.

وقال سيدى أبو الفضل رضى الله عنه: هؤلاء المنقصون لأعراضنا، فلاحون لنا، يزنون لنا الخراج. فقليل له: كيف؟. فقال: لأنهم ينقلون فى صحائفنا، جميع أعمالهم الصالحة، وثم ذنوب لا يكفرها إلا كلام الناس فى عرض الناس.

وحيث كان الأمر كذلك فالمؤذى بخير على كل حال. والعاقل: من اكتفى بعلم الله فيه، ورجع إليه، وأعرض عن الخلق بالكلية.

كما قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه فى الحكم: متى آلمك عدم إقبال الناس عليك، أو توجههم بالذم إليك، فارجع إلى علم الله فيك.

وقال فى التنوير:

لَا تَشْتَغَلْ بِالْغَيْبِ يَوْمًا لِلْوَرَى	فَيَضِيعَ عُمْرُكَ وَالزَّمَانُ قَصِيرٌ
وَعَلَامَ تَعْتَبُهُمْ وَأَنْتَ مُصَدِّقٌ	أَنَّ الْأُمُورَ جَرَى بِهَا الْمَقْدُورُ
هُمْ لَمْ يُوفُوا لِلَّهِ بِحَقِّهِ	أَتُرِيدُ تَوْفِيَةً وَأَنْتَ حَقِيرٌ
فَأَشْهَدُ حُقُوقَهُمْ عَلَيْكَ وَقُمْ بِهَا	وَأَسْتَوْفِ مِنْكَ لَهُمْ وَأَنْتَ صَبُورٌ
فَإِذَا فَعَلْتَ فَأَنْتَ بَعَيْنٌ مَنْ	هُوَ بِالْخَفَايَا عَالِمٌ وَخَبِيرٌ

[من البحر الكامل]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

obeikandi.com

الباب التاسع
فى
ذكر النفس ومثالبها
وعلامة صاحبها

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب التاسع

فى ذكر النفس، ومثالبها، وعَلامَة صاحبها

النفس: عبارة عن الباعث القلبي، الحامل على فعل الشرِّ، والتكاسل عن الخير. وقال بعضهم رضى الله عنهم: الحُشاشَةُ الإنسانية، واللطفة الروحانية.

أى عالم مالت إليه، سُمِّيَتْ به بحكم المجاورة، فتارة: نفساً، وتارة قلباً، وتارة: عقلاً، وتارة: روحاً، ولما كانت ظلمانية، صارت تَحْنُ إلى المألَف، وتدعو إلى التَّلَف، وإذا كان الحكمُ لها، هلك صاحبها.

لأن الله سبحانه قال فى بعض الكتب: من وكلته إلى، ملك، ومن وكلته إلى نفسه، هلك.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رضى الله عنه: النفسُ بمنزلة الأم، ومسكنها أسافلُ الجسد، والروح بمنزلة الأب، ومحلُّه أعالي الجسد، والقلبُ كالمولود بينهما، فمتى غلبت ظلمة النفس على الجسد، اسودَّ القلبُ، ومتى غلب نور الروح، تنوَّرَ القلب. انتهى من شرح المباحث.

وللنفس ثلاثة أحوال: أمَّارة، ولوَّامة، ومطمئنة، وكلها فى كتاب الله سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١)، وقال تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ (٢).

(١) سورة يوسف - الآية رقم ٥٣.

(٢) سورة القيامة - الآية رقم ٢.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ (١).

فالأولى: نفس العامة، والثانية: نفس الخاصة، والثالثة: نفس خاصة الخاصة، ولغلبة شرها، تعوذ منها الطاهر، المطهر ﷺ تشريعاً لأمته، بقوله: "اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي" (٢).

وقال ﷺ: "أعدى الأعدى إليك، نفسك التي بين جنبك" فمن عرفه الله تعالى إذايتها، وألهمه غوايتها، رفضها، وأعرض عنها، ولم ير أضر عليه منها، وكيف لا؟ وهي الحجاب للقلب عن مرضاة الرب، لا يمكن معها إخلاص أعمال، ولا صفاء أحوال.

قال الشيخ أبو يزيد البسطامي رضى الله عنه: رأيت ربي عز وجل في المنام، فقلت له: كيف أجذك؟ فقال: فارق نفسك، وتعال.

وفى بعض الكتب: يا عبدي.. قربي منك، بقدر بعدك من نفسك، وبعدي عنك، بقدر قربك من نفسك، فقد عرفت الطريق، والمسافة، فاترك نفسك، تصل إلى في خطوة واحدة.

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رضى الله عنه: من قتل نفسه بالمجاهدة أحيا الله قلبه بالمشاهدة.

وقال بعضهم: من طلب الخلاص من أسر نفسه، فليكثر من قول بعض العلماء رضى الله عنهم:

(١) سورة الفجر - الآيتان ٢٧ - ٢٨.

(٢) رواه الحاكم.

أَيَا فَرْدٌ تَقْدَسُ عَنْ شَرِيكَ وَيَا مَنْ قَدْ تَفَرَّدَ بِالْبَقَاءِ
أَتَرْضَى أَنْ أَكُونَ أَسِيرَ نَفْسِي وَأَنْتُمْ قَادِرُونَ عَلَى فِدَاءِ
[من البحر الوافر]

وقال الشيخ سيدى محمد بن عبّاد رضى الله عنه حاكياً عن النصراياذى
رضى الله عنه: سجنك نفسك، إذا خرجت منها، وقعت فى راحة الأبد.
وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: من تحكّمت فيه النفس فهو
كالذى يتخبّطه الشيطان من المسّ، أو المصفود فى الحديد، أحاطت به السلاسل
والأغلال، وأنشد:

إِنَّ الْهَوَى مَا تَوَلَّى يُصْمُ أَوْ يَصِمُ

والرّضى عن النفس أصل الكفر، وهو الذى حمل إبليس اللعين على
قوله: أنا خير منه، وهذه أولُ معصية وقعت فى الوجود.

تنبيه...

اعلم أيها العبد... أن النفس والهوى، والدنيا، والشيطان، عبيدٌ
مخلوقون، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١)،
فكيف رضيت أن تكون عبد العبيد، ولم ترض أن تكون عبد الله تعالى،
وهو مالك الملك؟!..

فإن أمرهم عندك أهمُّ من أمر الله...! تعصيه، وتطيعهم...! وتسخطه،
وترضيهم...!، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ (١).

(١) سورة مريم - الآية رقم ٩٣.

(٢) سورة النساء - الآية رقم ١١٦.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: أصل كل معصية، وشهوة: وغفلة: الرضى عن النفس، وأصل كل طاعة: وعفة: ويقظة، عدم الرضى منك عنها.

ولأن تصحب جاهلاً، لا يرضى عن نفسه، خير لك من أن تصحب عالماً، يرضى عن نفسه، فأى علم لعالم يرضى عن نفسه؟، وأى جهل لجاهل، لا يرضى عن نفسه؟.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: علامة الرضى عن النفس، أن تنكر على الناس، ما لا تنكره على نفسك، لأنك تحاشى نفسك عن ذلك العيب، وتنسبها للبراءة منه، والطهارة، فتنظرها بعين الرضى.

وقال ابن عطاء رضى الله عنه: قرأت على الشيخ أبى العباس المرسى رضى الله عنه كتاب الرعاية للمحاسبي فقال لى: جميع ما فى هذا، تُغنى عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم، ولا ترضى عن نفسك أبداً.

وقال الشيخ الورعجبى رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١): بمعرفتكم عللها، حتى توصلكم معرفتها، ومخالفتها، إلى معرفة ربكم.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً﴾^(٢)، الأنداء: تقع على كل شىء يمنع العبد عن خدمة سيده، ومن جملتها النفس، والهوى، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾^(٣).

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٥٤.

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٦٥.

(٣) سورة الجاثية - الآية رقم ٢٣.

فائدة:

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: ما أعز الله عبداً، بمثل ما يرده إلى ذل نفسه، ولا أذل الله عبداً، بمثل ما يرده إلى عز نفسه.

وقيل للحلاج رضى الله عنه: أوصنى، فقال: عليك بنفسك، إن لم تشغلها شغلتك، وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه: من ملكته نفسه، عذب بنار التدبير.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: مراكز النفس أربعة: مركز للشهوة فى المخالفات، ومركز للشهوة فى الطاعات، ومركز فى الميل إلى الدرجات، ومركز فى العجز عن أداء المفروضات ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْصُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ (١).

وقال رضى الله عنه: " من أعظم القربات عند الله تعالى مفارقة النفس بقطع إرادتها، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى، لما يرجى من حياتها.

وقال بعض المفسرين: فى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ (٢)، تزكيتها: بمخالفة هواها.

وقال سيدى على بن وفا رضى الله عنه: من ملكته عاداته، فسدت عليه عباداته.

وقال رضى الله عنه: كنية الشيطان أبو مُرَّة، تدرى من هى المُرَّة التى هو أبوها؟ هى النفس، تدرى لم سُمِّيت مُرَّة؟ لأنها ما دخلت فى شىء إلا أفسدته، كما يفسد الحنظل اللبن.

(١) سورة التوبة - الآية رقم ٥.

(٢) سورة الشمس - الآية رقم ٩.

وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه: إياكم والوقوع فى المعاصى، ثم تقولون: هذا من إبليس، فإن إبليس اللعين، يتبرأ منكم فى مكان يصدق فيه الكاذبون.

وذلك حين يخطب فى النار، ويقول فى خطبته: ﴿فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(١)، يعنى: ما أغويتكم حتى ملتم بنفوسكم إلى الوقوع فى المعاصى ﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ﴾^(١)، يعنى: قبل أن تميلوا. فتبين أن النفس أقبح من الشيطان. كما قيل:

والنفسُ أخبث من سبعين شيطانا

قال بشر الحافى رضى الله عنه: ستون من مَرَدَةِ الشياطين لا يفسدون ما يفسده قرين السوء فى لحظة، وستون من قرناء السوء لا يفسدون ما تفسده النفس فى لحظة.

وقال رضى الله عنه: أجمع سائر الملل على أن رضى الله جل وعلا فى مكروه النفس.

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: بلغنى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام إن أردت محبتى لك، فعاد نفسك، وودنى بعداوتها.

وقال رضى الله عنه: من زعم أنه يحب الله تعالى وهو يحب نفسه، فقد كذب.

وقال سيدى أبو المواهب رضى الله عنه: اتباع هوى النفوس، هو نكس الرؤوس، ومن أطلعه تعالى على دسائس نفسه، أمن من نكسه، وعكسه.

وقال سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه: اتباع الأغراض، يورث

(١) سورة إبراهيم - الآية رقم ٢٢.

الإعراض. وقال الشيخ ابن عبّاد رضى الله عنه: النفس الناقصة، انقيادها إلى الأمور الوهمية، الباطلة، أشد من انقيادها إلى الحقيقة الثابتة، لوجود المناسبة بينهما.

وقال سيدى أبو المواهب رضى الله عنه: حَكَمَ الملكُ، القدُّوسُ، أن لا يدخل حضرته أحدٌ من أهل النفوس.

وقال أبو سليمان الداراني رضى الله عنه: ترك شهوة من شهوات النفس، أنفع للقلب من صيام سنة، وقيامها، قال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (١).

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: صاحب الشهوة متعوب فى الدنيا، والآخرة، فى الدنيا: فى تحصيلها، وفى الآخرة: فى الحساب عليها.

وقال بعضهم: لما خلق الله تعالى العبد، خلقه على الفطرة بلا شهوة، فكان فى أحسن تقويم، ثم لما خُلِقَتْ فيه الشهوة، وتحكمت فيه، رُدَّ إلى أسفل سافلين.

فكان أولاً: روحاً، وعقلاً، ثم صار نفساً، وهوى، وقد سمى الله تعالى الشهوة مرضاً، فقال تعالى: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ (٣)، ودخائل النفس كثيرة، وآفات شهيوة، وأوصافها شنيعة، ومذامها فظيعة.

منها: الكبر، والعجب، والتهيه، والأنفة، والحقد، والحسد، والغل، وسوء الظن بالله، وعباد الله تعالى والإزراء بالناس، وذكرهم بالسوء، والضجر، والغضب، والامتعاض من الحق، والتصنع، والدعوى، وعدم الصدق، حالاً، ومقالاً، والجفا.

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ٩٢.

(٢) سورة الأحزاب - الآية رقم ٣٢.

والقسوة، وقلة الرحمة، والرياء، : وحب الظهور، واتباع الهوى، واحتقار الذنوب، والتهاون بالحقوق، وتسخط القدر، والاختيار على الله، والتدبير مع الله، وحب الدنيا، وأهل الجاه فيها، والرُّكونُ إلى أهلها، : وإيثارهم على أهل الآخرة، والرضى بالجهل، : والغفلة، والنقص، والتقصير، والعجز، والكسل، والبخل، والجبن، وتحسين القبيح، وإبطال الصحيح.

فهذه نبذة من أوصافها التي جبلت عليها، : ونسبت إليها، ورحم الله القائل :

كَمْ حَسَنَتْ لَذَّةَ لِمَرْءٍ قَاتِلَةً مِنْ حَيْثُ لَمْ يَذَرْ أَنْ السُّمَّ فِي الدَّسَمِ

[من البحر البسيط]

والشيطان يهرب ممن يتعوذ منه، والنفس مع العبد لا تفارقه، يحبُّها، ولا أضَرَ عليه منها.

تنبيه...

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : اعلم أن البلاء كُلُّه مجموع فى ثلاثة : خوف الخلق، وهم الرزق، والرضى عن النفس، ومن رضى عنها استحسن حالها، وصار يتعذَّر، ويدافع عنها، ويناضلُ، ويغارُ عليها، ويحنُّ إلى من يكرمه، ويمدحه، ويزكِّيه.

وينسب إليه من الخير ما ليس فيه، ويرأها بعين الكمال، فهذا لا يرجى خيره، ما دام كذلك، وأما من وفَّقَه الله تعالى فهو الذى أرشده إلى عيوبها، وأخذ حذره منها، وزيفها، وصارت عنده مبعوضة.

ممقوتة، لا يقيم لها وزناً، ويخالفها فى كل شىء تريده، ويتَّهمها، ولا يرضى عنها فى شىء، فما أَقْرَبَهُ إلى الخير.

قال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: من علامة المنافق أن يحب المدح بما ليس فيه، ويكره الذم بما فيه، ويكره من يبصره بعيوبه، ويفرح إذا سمع بعيوب غيره.

ومن مكائدها: تحسين الهيئة فى الظاهر بالصمت، لئلا يفتضح إذا تكلم، فيظهر جهله، وقصوره، وقد كان يُحملُ على الوقار، والتعظيم، لما يظنُّ به من الخير، ويستعمل التواضع، ليرفع، والهوان، ليُكرمَ، كما قيل:

أهينُ لَهُمْ نَفْسِي لِكَي يُكْرِمُونَهَا

ويذمُّ نفسه جهرة، ليمدح، ويعترف بالنقص، ليقال: مُنْصِفٌ من نفسه، ولئلا ينقصه الغيرُ، فيغار عليها.

قال الحسن البصرى رضى الله عنه: ذمُّ الرجل نفسه علانيةً مدحٌ لها، وصاحبها ينسب لنفسه أشياء؛ يقول: إذا فعلتُ كذا، ولولا فعلتُ كذا، ما كان كذا.

ويتقدم فى الكلام إظهاراً للمزية، ولو فى مسائل من العلم، وهو أُمِّيٌّ، جاهلٌ، غبىٌّ، لا يحسن الاستنجا، ولا يدرى كيف يتهجى!...، ويدعى المعرفة، والعقل، وإصابة الرأى، ويصف نفسه بالأمانة.

وهو خائنٌ بقلبه، وجوارحه، ويعظم نفسه، ويعتنى بأمرها فى استكمال شهواتها، وضبط عوائدها، فهى عنده كالصنم يعبد، لا يقبل فيها لومة لائم:

إِنَّ الْمَحْبِضَ عَنِ الْعَذَالِ فِي صَمَمٍ

وقيل:

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلَةٌ

ويرى له على الناس حقوقًا ضيعوها، ولم يوفؤا بها، وينكر على غيره
فِعْلَ المباح، ولا ينكر على نفسه الباطل الصُّراح، والذنوب القباح.

قال حاتم الأصم رضى الله عنه: من عدم إنصافك، أن تبغض الناس
إذا عصوا ربَّهم، ولا تبغض نفسك إذا عصت ربَّها.

ويتنقد برأيه المفاسد، على الأكابر من الصالحين، وأولى الأمر، ويقول:
لَمْ فَعَلَ كَذَا؟ وهَلَا فَعَلَ كَذَا؟ ويعتقد الصواب معه، ويستخف بالعقلاء،
ويسفّه رأيهم، ويصلح من نفسه مواقع نظر الخلق، ولا يبالى بنظر الملك،
الحق ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (١).

قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ (٢)،
ويستجلب رضى من يهواه، بسخط مولاة.

قال ﷺ: "من التمس رضاء الله بسخط الناس، رضى الله عنه،
وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله، سخط الله عليه،
وأسخط عليه الناس"، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا
مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)، ورحم الله القائل:

وابغ رضى الله فأغبى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد
قال تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (٤).

قيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أن حذر، وأنذر

(١) سورة الحديد - الآية رقم ٤.

(٢) سورة النساء - الآية رقم ١٠٨.

(٣) سورة التوبة - الآية رقم ٦٢.

(٤) سورة محمد - الآية رقم ٢١.

أصحابك أكل الشهوات، فإنَّ القلوب المعلقة بشهوات الدنيا، عقولها عنى محجوبة. وقال بعضهم: مَنْ قَطَعَ عَقَبَةَ نَفْسِهِ، وَصَلَ إِلَى بَسَاطِ أَنْسِهِ.

ومن مكائد النفس: الاعتذار بالتسبُّب، ولا حجة لها في الاشتغال بالتكسب، والتَّمَعُّشُ،: عن القيام بحق الربوبية، فليس ذلك مانعاً من أداء ما وجب عليه، فالله سبحانه قد تكفَّلَ برزق من اشتغل بما كَلَّفَهُ به.

قال بعض العارفين رضى الله عنهم: من أقامه الله سبحانه فى طاعته، وخدمته، فهو مُتَسَبِّبٌ، ولا يقال فيه بلا سبب، لأنَّه فعل ما أمر الله تعالى به.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (١).

وقال الشيخ سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه: للناس أسبابٌ، وسببنا نحن، الإيمان، والتقوى.

وكيف يدعى العبدُ محبة سيده، وهو يؤثر حظوظ نفسه، عن القيام بحقوق ربه؟! قال الشاعر:

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدْعِي الْحُبَّ قَلْبُهُ وَيَحْتَجُ فِي تَرْكِ الزِّيَارَةِ بِالشَّغْلِ

[من البحر الطويل]

والسبب لا تأثير له فى الرزق، وإنما الرزقُ عنده، لا به، والوقوف مع الأسباب، من أعظم الحجاب، ومن تحقق بأن الله هو الرزاق، لم يعمل معه همًّا فى رزقه.

(١) سورة الذاريات - الآيات ٥٦ - ٥٨.

قال بعضهم: والله... لو أَنَّ السماء لم تمطر، والأرض لم تُنبِت، وأهل دجلة، والفرات، عيالٌ لى، ما اتَّهَمَت الله فى رزقه.

وقيل لبعضهم: من أين يأكل فلان؟ فقال: منذ عرفت خالقه ما شككت فى رزقه.

وجاء رجلٌ إلى حاتم الأصم، فقال له: من أين تأكل؟ فقال: من خزائنه، فقال له الرجل: يلقي عليك الخبز من السماء.

ومرض بعض الصالحين، فأتى بشربة دواء، فتناول منها لَعَقَةً بإصبعه، وقال: هذا القدر كافى السبب، والاعتماد على السبب من ضعف الإيمان بالمسبب.

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾^(١)، ومن الأشياء: الأسباب، والحيل، فتعين الانقطاع إلى الله سبحانه برفض ما سواه.

ومن شؤوم النفس، التيقظُ فى أمور الدنيا، والتغافلُ فى أمور الآخرة، كما ورد فى وصف الكفار: قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾^(٢).

ومن ذلك؛ تضييع الأوقات فى تحصيل مضمون الأقوات، ويبذل مجهوده فى طلب الشهوات، ويثقل عليه عمل الواجبات، ويجرى مع الهوى، ولا يتقى الهواء ويطمع فى دخول الجنة بالتوكل الكاذب، ويكره الموت، ولا يتَّهم الله فى المغفرة، ونيل الشفاعة، ودخول الجنة.

إنما يتهمه فى حصول الرزق، والعافية، ويقنع بقليل من عقل التمييز،

(١) سورة النساء - الآية رقم ٣٦.

(٢) سورة الروم - الآية رقم ٧.

والتدين، ولا يقنع بالكثير من الدنيا، ويدعى عقل التخصيص، وكلما امتدَّ عمره، طال أمله. كما قال عليه السلام: "يشيب ابن آدم، وتشب فيه خصلتان، الحرصُ على الدنيا، وطول الأمل".

وفى ذلك قيل:

لَمَّا رَأَيْنَاكَ بَعْدَ الشَّيْبِ يَا رَجُلُ لَا تَسْتَقِيمُ وَأَمْرَ النَّفْسِ تَمَثِّلُ
زِدْنَا يَقِينًا بِمَا كُنَّا نَصَدِّقُهُ عِنْدَ الْمَشَيْبِ يَشُبُّ الْحِرْصُ وَالْأَمَلُ
[من البحر البسيط]

قال أبو سليمان الداراني رضى الله عنه: تطلب رضاء ربك، وتبخل بمالك، وتعجز عن طاعته...!

كلا... فالشاهد لله بالحقيقة من لا يبخل بروحه، ونفسه، وقلبه، فى رضى مولاه.

وقال ابن عبَّاد رضى الله عنه: من لم تجرِ أفعاله على مراد غيره، لا يصح له الانتقال عن الهوى.

وقال عليه السلام فى بعض خطبه: "أيها الناس.. كأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وجب، وكأنَّ الموتَ فيها على غيرنا كتب، وكأنَّ الموتَ فيها على غيرنا كتب، وكأنَّ الذى نشيِّع من الأموات، سفرٌ عما قليل إلينا عائدون، نبوء أجدائهم، ونأكل تراثهم، كأنَّا مخلَّدون بعدهم، قد نسينا كل واعظة، وأمنَّا كل جائحة.

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن طاب مكسبه، وصلحت سريره، وحسنت علانيته، واستقامت طريقته، طوبى لمن تواضع من غير منقصة، وأنفق ما جمعه من غير معصية.

وخالط أهل الفقه، والحكمة، وجانب أهل الذل والمعصية، وطوبى لمن أنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من لسانه .

وقال عمر رضى الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر على الله عز وجل، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية .

وقال عليه السلام: " الكيسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانى " (١) .

تنبيه...

ما دام العبدُ مُعْجَبًا برأيه، أسيرَ نفسه، محافظًا على عوائدها، متمسكًا بحبل ودادها، جاريًا على وفق مرادها، لم يقطع مادتها، ولا خرق عاداتها . فهو على خطر عظيم، يعبد نفسه، ويطلب شهواتها ربّه، نسأل الله تعالى العفو، والعافية، وأن يحول بيننا وبين أمورها، ويحفظنا من شرورها . قال سيدى داود الباخرى رضى الله عنه: وجودك هذا البشرى، قذى فى عين بصيرتك، فلو زال عن عين بصيرتك قذاها، رأت ماءها، ومرعاها، وأبصرت رشدها، وهداها، ورحم الله القائل:

إذا قلت: ما أذنبت؟ قالت مجيبة: وجودك ذنبٌ لا يقاسُ به ذنبٌ

[من البحر الطويل]

قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: كيف تطمع أن تخرق لك العوائد، وأنت لم تخرق من نفسك العوائد؟! .

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم عن شداد بن أوس .

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: مَثَلُ من أَثَرَ الحِياةَ الدُّنيا على الآخرة. وانصرفت همته لاتباع الشهوات، واشمأز قلبه من عمل الواجبات، كمَثَلِ الجُعَلِ الذى يعيش فى العَدَرِه، فإذا قُرَّبَ إليه الورْدُ مات، كما قيل: لعلَّ طبعك، ما يحكونَّ عن جُعَلٍ إذا تنسَمَ ريحَ وردٍ احتَضِرًا **تنبيه...**

تأمل حال النَّائم، إذا أراد القيام إلى الصلاة فى وقت البَرْد، أو غَلَبَ النوم، فإنَّ النَّفسَ حينئذٍ توهنه، فيغلب عليه العجزُ، والكسلُ، وفشل الأعضاء. ويرجع إلى النوم.

حتى إذا أفاق، بعد تفرق سوق التجار، وفوز كل تاجر بربحه، قام كالذى يتخبطه الشيطان من المسِّ، وندم حيث لا ينفعه الندم، بخلاف من وفقه الله تعالى وأقدره على النهوض، وحال بينه وبينها.

فإنَّه يقوم ناشطًا، فإذا توضأ، وصلى، فلا تسأل عن نجاته، ونجاحه، وربحه، وفلاحه، وخفَّةِ أعضائه، وفوزه بمتجره الرابع، فلو علم النَّائم، ما فوّت عليه نفسه من هذه المحاسن الحسّية، والمعنوية، لكان مجتهدًا فى مخالفتها، حريصًا على عداوتها.

ومن شؤم النفس: أن يغفل العبد عن عيوب نفسه، ويبحث عن عيوب الناس، ويرى الفضل له على الغير، ولا يرى لأحدٍ عليه فضلًا...!

قال رحمته الله: "يَبْصُرُ أَحَدُكُمْ الْقَذَى فى عَيْنِ أَخِيهِ، وَيَتْرَكَ الْجَذَعَ فى عَيْنِهِ" (١).

(١) انظر السيوطى فى الجامع الصغير.

وكان بعض الصالحين يقول: عرفت عيوب نفسي من كلام من يكرهني.

وكان الشيخ سيدى أبو عمر رضى الله عنه يقول لأصحابه: من قال لكم: أبو عمر طرمون، فقولوا له: أنت عرفته... أو كذاب، فقولوا له: أنت عرفته...!

وأنشدوا:

عُدَاتِي لَهُمْ عَلَى فَضْلٍ وَمِنَّةٍ فَلَا أَبْعَدُ الرَّحْمَنُ عَنِّي الْأَعَادِيَا
هُمْ بَحَثُوا عَنْ زَلَّتِي فَاجْتَنَبْتُهَا وَهُمْ نَافَسُونِي فَاکْتَسَبْتُ الْمَعَالِيَا
[من البحر الطويل]

وخاصم رجلٌ بعض الصالحين وشتَّمه، وقَذَفَه، فقال له الصالح: إن كنتُ كما تقول، فالله يَغْفِرُ لِي، وإن لم أكن كذلك، فالله يَغْفِرُ لَكَ.

وكان الفضيل بن عياض رضى الله عنه إذا قيل له: فلان يقع فى عرضك، يقول: اللهم... إن كان صادقًا فاغفر لِي، وإن كان كاذبًا فاغفر له.

وقال يحيى بن الحسين رضى الله عنه: من طلب السلامة، احتمل الملامة.

وقيل:

وكاف المسيءَ بخير ولا تكن مثله واصطبر للكرب
وعمَّاتِكَ النَّخْلَ كُنْ مِثْلَهَا لِرَامِي الْحَجَارَةِ تَرْمِي الرُّطْبَ

قال بكر بن عبدالله المزني رضى الله عنه : إذا رأيتم الرجلَ موكلًا بعيوب الناس ، خبيرًا بها ، فاعلموا أنه قد مكرَ به .

وقال مالك رضى الله عنه : أدركت أناسًا بالمدينة لا عيوب لهم ، فاشتغلوا بعيوب الناس ، فأحدث الله لهم عيوبًا ، وأدركت ناسًا لهم عيوب ، سكتوا عن عيوب الناس ، فستر الله عيوبهم .

ومن ذلك : السخرية بالناس ، والازدراء بهم ، وإهانتهم ، واحتقارهم ، ومولانا تبارك وتعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ (١) .

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : لا يحقرنَّ أحدٌ أحدًا من المسلمين ، فإنَّ صغير المسلمين ، كبيرٌ عند الله تعالى .

وكان ابن عباس رضى الله عنهما ينظر إلى الكعبة ، : ويقول : إنَّ الله حرَّمك ، وشرفك ، وكرمك ، ولكنَّ المؤمنَ أعظم عند الله منك . . . !

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : المؤمن أكرمُ عند الله تعالى من بعض الملائكة الذين عنده .

وقال ﷺ : " رَبِّ أَشْعَثَ أَغْبِرْ ذِي طَمَرِينَ ، تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبره " (٢) .

وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه : مَنْ تحقَّق بمقام العبودية لله تعالى ، لم يرَ له حقًا فى الدنيا ، والآخرة ، على أحدٍ من خلق الله تعالى .

(١) سورة الحجرات - الآية رقم ١١ .

(٢) رواه الحاكم وأبو نعيم فى الحلية .

وأما العقل: فهو موهبة ربّانية ونسبة نورانية، خصَّ الله تعالى به من اصطفاه من عباده، فكان داعياً له إلى طريق رشاده، وهو على قسمين: عقل تمييز: وهذا مشترك بين الآدمي وغيره.

وعقل تخصيصك وليس هو إلا لمن أكرمه الله تعالى بالخصوصية، وعلامته: التجافى عن دار الغرور، والعملُ لدار الخلود.

ولذلك قالوا: العاقل: العقل لجوارحه عاقل.

وعن الإمام الغزالي رضى الله عنه أنه قال: إن الله تبارك وتعالى خلق الدين، والحياء، والعقل، وبعث بها إلى آدم عليه السلام وقال له: اختر أيّها شئت،: فاختار العقل.

وقال للدين والحياء: انصرفا... فقالا: إنَّ الله عهد إلينا أن نكون مع العقل حيث كان، انتهى. من كتاب الأربعين فى أصول الدين.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال: أحسنُّ الناس مروراً على الصراط، أحسنهم عقلاً، وأفضل الناس ثواباً يوم القيامة، أحسنهم عقلاً، وأرجح الناس موازين يوم القيامة، أرجحهم عقلاً.

ف قيل له: يا أبا هريرة... وما حُسْنُ العقل؟ قال: الكفُّ عن مساخط الله، واتباعُ مرضاة الله.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: العاقل من عقل عن الله أوامره، ونواهيه، ومن لم يتصف بهذا الوصف، لا يقال فيه عاقل، إذ ليس كل إنسان يسمّى عاقلاً.

قال الحسن البصرى رضى الله عنه: كيف يسمّى عاقلاً؟ وهو يسمّى ويصبح فى الدنيا، ومباهاة أهلها، بالمطاعم، والمشارب، والملابس،

والمراكب، أولئك هم الخاسرون، أولئك هم الغافلون، أولئك هم الجاهلون.
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

obeikandi.com

الكتاب العاشر
فى
التواضع ومكارم الأخلاق

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب العاشر

فى التواضع، ومكارم الأخلاق

التواضع لله تعالى: هو خضوع القلب لجلال الرب، ومع الخلق: هو خفض الجناح، ولين الجانب، قاله الجنيد رضى الله عنه وهو ناشئ عن معرفة العبد نفسه.

وقيل: هو حملُ النفس على الضعة والمسكنة، وعدم رؤية المزية، والشفوف على الغير.

وعلامة المتواضع: حبُّ الخمول، وبغضُ الاشتهار. قال بعض المشايخ رضى الله عنهم: الظهور يقصم الظُّهور.

وقال غيره: الخمول نعمة، والنفوس تأباه، والظهور نقمة، والنفوس تهواه. وقال بعضهم رضى الله عنه: العزُّ فى التواضع ومن طلبه فى الكبر لم يجده. وقال إبراهيم بن شيبان رضى الله عنه: الشرفُ فى التواضع، والعزُّ فى التقوى، والحرية فى القناعة.

وروى أن من جملة النعم التى يعدُّ الله سبحانه على عبده فى الآخرة، يقول له: ألم أنعم عليك؟ ألم أترك؟ ألم أحمل ذكرك؟..

وصاحب الرفعة عرضة للآفات. فقد قيل: ويلٌ لمن أشارت إليه الأصابع. ومن طلب العلوَّ فى الدنيا، حُرِم نصيبه من الآخرة. قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١).

(١) سورة القصص - الآية رقم ٨٣.

ولله درُّ القائل :

مَنْ أَخْمَلَ النَّفْسَ أَحْيَاهَا وَرَوَّحَهَا وَلَمْ يَبْتَ طَاوِيًا مِنْهَا عَلَى ضَجَرٍ
إِنَّ الرِّيحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا فَلَيْسَ تَرْمِي سِوَى الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ

قال إبراهيم بن أدهم رضى الله عنه: ما صدق الله من أحبَّ الشهرة،
وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه: خُصَّ البلاء بمن عرف الناس.

فائدة:

قال فى التنبيه: بقدر تحقق العبد بوصف الخمول، يتحقق له مقام
الاخلاص. وقال عيسى عليه السلام لأصحابه: أين تنبت الحبة؟ قالوا: فى
الأرض قال: كذلك الحكمة، لا تنبت إلا فى قلب مثل الأرض.

وفى الحديث: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَخْفَاءَ، الْأَتْقِيَاءَ، الَّذِينَ إِذَا غَابُوا لَمْ
يُفْتَقَدُوا، وَإِذَا حَضَرُوا لَمْ يُدْعَوْ وَلَمْ يُعْرَفُوا" (١).

وفى الحديث أيضاً: "رُبَّ أَشْعَثَ ذَى طَمَرِينَ مَتَرَدِّدٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ
عَلَى اللَّهِ لِأَبْرِهِ" (٢). وقيل لذى النون المصرى رضى الله عنه: متى يعلم العبد
أنه من المخلصين؟ قال: إذا اجتهد فى الطاعة، وأحبَّ سقوط المنزلة عند
الناس.

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من تواضع لله رفعه"، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عليكم بالتواضع فإن
التواضع فى القلب ولا يؤذين مسلمٌ مسلماً فلربَّ متضعف فى أطمار لو
أقسم على الله لأبره".

(١) لم أجده، لم نقف عليه فيما بين أيدينا.

(٢) رواه الإمام مسلم وأحمد بن حنبل.

ورحم الله القائل :

وَمِنَ الْغَبَاوَةِ أَنْ تُعَظَّمَ جَاهِلًا
أَوْ أَنْ تُهَيَّنَ مُهَذَّبًا فِي نَفْسِهِ
وَلَكُمْ أَخِي طَمَرِينَ هَيْبَ لِفَضْلِهِ
وَإِذَا الْفَتَى لَمْ يَغْشَ عَارًا لَمْ تَكُنْ
مَا إِنْ يَضُرَّ الْعَضْبَ كَوْنُ قَرَابِهِ
لَصَقَالِ مَلْبَسِهِ وَرَوْنَقِ رَفْشِهِ
لِدُرُوسِ بَوْتِهِ وَرَثَّةِ فَرَشِهِ
وَمُفَوِّفِ الْبُرْدَيْنِ عَيْبِ لِفُحْشِهِ
أَسْمَالُهُ إِلَّا مَرَاقِي عَرْشِهِ
خَلْقًا، وَلَا الْبَاغِي حَقَارَةَ عَيْشِهِ

[من البحر الكامل]

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: من حمل نفسه على التواضع،
والمسكنة حتى صارت له جبلَّة، بحيث لا يجد لضعته ألماً، تزكو نفسه،
ويستنير قلبه، وتخلص أعماله. وقيل:

كَلَّمَا رَاعَنِى بَعِزُّ الْمَوَالِي جِئْتُه خَاضِعًا بِذُلِّ الْعَبِيدِ

[من البحر الخفيف]

قال سيدى على الخواص رضى الله عنه: لا يصلُّ أحدٌ إلى حالة شريفة
إلا بالتواضع، وذلك بأن يرى نفسه دون جليسه، لا فوقه، ولا مساوياً له.

فمن رأى نفسه فوق جليسه أو مساوياً له، حُرِّمَ مَدَدُهُ: لأنَّ المدد
كالماء، لا يجرى إلا فى السفليات.

وقال سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه: من لا خَدَّ له يُدَاسُ، لا
كَفَّ له يُبَاسُ وقيل: من لم يتضح عند نفسه، لم يرتفع عند غيره. وقد قيل:
من يتضع، يرتفع.

وقال ﷺ: " ما من رجل يتعاضم في نفسه، ويختال في مشيته، إلا لقي الله تعالى وهو عليه غضبان " (١).

وقال ﷺ: " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين " (٢)، وكان ﷺ: على جلالة قدره، وعلو منصبه، وشرف منزلته، وعظم رتبته عند الله تعالى، أشد الناس تواضعاً، لكمال معرفته بربه عز وجل فكان ﷺ يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطاً بهم حيثما انتهى به المجلس، وكان يوم بنى قريظة، على حمار مخطوم بحبل من ليف، عليه إكاف...!

وكان ﷺ يدعى إلى خبز الشعير، والإهالة السنخة فيجيب...! وحجاً على رجلٍ رث عليه قطيفة، ما تساوى أربعة دراهم، وقال: اللهم اجعله حجاً مبروراً، لا رياء فيه ولا سُمعة. وأهدى في حجّه ذلك مائة بدنه، وكان ﷺ في بيته، يفلى ثوبه والمراد به إزالة القذى منه لا القمل.

لأنه لم يكن فيه ﷺ، ويحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه، ويقم البيت، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق. وقال ﷺ للذى قال له يا خير البرية.

ذلك إبراهيم عليه السلام مع أنه ﷺ سيد الأولين والآخرين، وأفضل الأولين والآخرين.

وكان ﷺ يكلمه جبريل عليه السلام، ويقرئه السلام من الله تعالى وينزل عليه الوحي، ويناجي الملائكة، ومع ذلك قال لعجوز: اجلسي يا أم فلان..

(١) رواه الإمام أحمد والبخارى فى الأدب المفرد والحاكم والبيهقى.

(٢) رواه ابن ماجه والطبرانى.

فى أى طُرُقِ المدينَةِ شئتُ أَجْلِسُ إِيْلِكَ . وقال لصبى يداعبه يا أبا عمير... ما فعل النغير^(١) .

طيرٌ كان يلعب به الصبى واختار العبودية على الملك . حين أشار إليه جبريل عليه السلام أن تواضع ، تشريعاً لأُمته ﷺ ، وتعليماً لهم أن العبودية أشرفُ الأحوال .

وقد سُمِّيَ بها ﷺ فى آيات عديدة ، كقوله عز وجل : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾^(٢) ، وقوله تعالى : ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾^(٣) ، وقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾^(٤) ، كُلُّ ذَلِكَ فى مقام التعظيم ، والتشريف ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾^(٥) بعد أن قال تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾^(٦) فظهر الفرق بين المقامين الشريفين ، وما زال المحبون يشرفون بذكر العبودية ، ويفرحون بها ، كقول بعضهم :

لا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عِبْدِهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي
وقال غيره :

أَصَمُّ إِذَا نُوْدِيتُ بِاسْمِي وَإِنِّي إِذَا قِيلَ لِي : يَا عَبْدَهَا... لَسَمِيعٌ
[من البحر الطويل]

(١) رواه الإمام فى صحيحه ، والإمام مسلم فى صحيحه .

(٢) سورة الإسراء - الآية رقم ١ .

(٣) سورة الأنفال - الآية رقم ٤١ .

(٤) سورة الجن - الآية رقم ١٩ .

(٥) سورة الإنسان - الآية رقم ٦ .

(٦) سورة الإنسان - الآية رقم ٥ .

تنبيه...

قال سيدى أحمد الرفاعى رضى الله عنه: انظر إلى النخلة لما رفعت رأسها، جعل الله ثَقَلَ حِمْلُهَا عليها، ولو حملت منه ما حملت، وانظر إلى شجرة اليقطين.

لما وضعت نفسها، وألقت خدَّها على الأرض، جعل الله ثَقَلَ حِمْلُهَا على غيرها، ولو حملت منه ما حملت، لا تُحْسُ به...!

وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: أوحى الله تعالى إلى الجبال: إني مُكَلِّمٌ على واحدٍ منكم نبياً، فتطاوت الجبال، وتواضع طور سيناء، فكَلَّمَ الله موسى عليه لتواضعه.

وقال ﷺ: "مَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ".

وروى: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردلٍ من كبر" ورحم الله القائل:

مَا لِلْعَبِيدِ سِوَى ذُلٍّ وَمَسْكَنَةٍ وَالْعِزُّ لِلَّهِ ثُمَّ الْعِزُّ لِلرُّسُلِ

[من البحر البسيط]

وكيف يسع العبد إذا كان مؤمناً، أن يكون متكبراً؟!، وهو في الدنيا عُرْضَةٌ لآفات!، ولا يدرى ما وراء ذلك في الآخرة، والنبى ﷺ قال: "والله... وأنا رسول الله ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم"، أم كيف يتكبر من هو كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لرجل يُعَرِّفُهُ بنفسه، ويحملهُ على التواضع: أوَّلُكَ نطفة مذرهِ، وآخرك جيفة قدرة، وأنت فيما بينهما تحمل العذرة.

وقال بعضهم: من ظنَّ أنه خيرٌ من الكلب، فالكلبُ خيرٌ منه، والكلبُ أقبحُ المعاصي، وأولُ معصية في الوجود، وهو غمطُ الخلق، وبَطْرُ الحق وسبُّه إبليس لعنه الله حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وقال: أنا خيرٌ منه.

قال الشيخ القشيري رضى الله عنه: وكيف لا يتواضع من يعلم أنه في الابتداء نطفة، وفي الانتهاء جيفة، وفي الحال صريع جوعه، وأسير شبعه. وحمال كنيف في قميص، إن أمسك عن الأكل ساعة، تغيَّر عليه خلوف فمه، وإن عرَّق في سعيه، سطع بغير المستطاب صنان إبطينه، ورائحة رجليه.

ثم إذا شاهد نقص نفسه، عرف جلال ربه. قال صلى الله عليه وسلم: "من عَرَفَ نفسه عرف ربه" (١).

وروى الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى عن شيخه أفضل الدين رضى الله عنهما أنه قال: خرج منى مرة غائط مُنْتَن، فقلت: أف، فقال الغائط: ما يستحق إلا أنت، فإنى كنت طيباً طاهراً، قبله أن أخالطك. فلما خالطتك صرتُ مُنْتَنًا، نجسًا فى ليلة واحدة، ولو أنك وضعتنى فى إناء غير بطنك ألف عام، لم أكن نجسًا قال: فخرجتُ...

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: إن الله سبحانه قصَّ علينا أخبار الأخيار، فكأنه يقول: هكذا... فكونوا، فمن ذلك قولُ آدمَ وحواء عليهما السلام ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢)، وقول

(١) انظر السيوطى الحاوى للقناوى.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ٢٣.

ذی النون علیہ السلام: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، وقول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾^(٢).

وسيدُ الخلق ﷺ كان يطلب الدعاء من الصحابة رضى الله عنهم ومن بحره اغترفوا، وبه عرفوا، وشرفوا.

وأبو بكر رضى الله عنه قال: وَلِيَّتْكُمْ، ولستُ بخيركم.

وعمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لحذيفة بن اليمان رضى الله عنه: أنشدك الله... هل ذكرنى النبى ﷺ فى المنافقين؟ وقال رضى الله عنه: ليت عمرَ لم تلده أمُّه... .

وكان رضى الله عنه يأخذ التبنه من الأرض ويقول: يا ليتنى كنت هذه التبنه...! ليتنى لم أخلق...! ليت أُمى لم تلدنى... ليتنى لم أُلْ شيئاً...، ليتنى كنت نسيًا منسيًا... .

وقال رضى الله عنه: إذا رأيتُمونى زغت عن الطريق فقومونى، وانصحونى، فإنَّ المؤمن لا يكون إلا ناصحًا لأخيه. وقال رضى الله عنه: كل الناس خير منك يا عمر... .

وقال ابن أبى مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه.

وقال محمد بن واسع لولده عبدالله وقد رآه يمشى مشية لا تُحمد تدرى بكم اشتريت أملك؟ بثلاثين دينارًا، : وأبوك لا أكثر الله فى المسلمين مثله أنا، وأنت تمشى هذه المشية؟!

(١) سورة الأنبياء - الآية رقم ٨٧.

(٢) سورة القصص - الآية رقم ١٦.

وقيل: تشاجر أبو ذر، وبلال، فعابير أبو ذر بلالاً بالسواد، فشكى إلى النبي ﷺ، فقال: يا أبا ذر ما علمتُ أنه بقى فى قلبك من كبر الجاهلية شىء! فألقى أبو ذر خده على الأرض، وحلف أن لا يرفع رأسه، حتى يطاء بلالُ خده بِقَدَمِهِ، فلم يرفع، حتى فعل بلالُ رضى الله عنهما.

وقال سرى السقطى رضى الله عنه: منذ ثلاثين سنة وأنا أظن أن الله عز وجل ينظر إلىَّ نظر السخط.

والشيخ سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه قال لبعض أصحابه فى بعض مكاتباته: بالله الذى لا إله إلا هو، ما أنا عليه من الذنوب، إلا أعظم مما أنت عليه.

والشيخ أبو المحاسن الفاسى رضى الله عنه قال لأصحابه: ما فى هذه الزاوية أقبح منى. وتلميذه الشيخ سيدى محمد بن عبد الله رضى الله عنه قال: والله ما دخل على باب هذه الزاوية أقل منى.

فإذا كانت هذه حالة الخلفاء الراشدين، وأكابر العارفين، فما ظنك بالعصاة المخلطين، والمبطلين الطالحين، الذين ذهب أعمارهم فى التفریط.

وعمرت صحائفهم من التخليط، وهم يرفعون أنفسهم إلى أعلى عليين، ويزعمون أنهم من الأبرار المقربين!! نسأل الله سبحانه أن يَمُنَّ علينا بالتوفيق.

وأما التواضع المفتعل، فهو تكبر فى الحقيقة. قال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: من أثبت لنفسه تواضعاً، فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع إلا عن رفعة.

وقال رضى الله عنه: إنما المتواضع الذى إذا تواضع رأى أنه دون ما صنع، وانظر سيد الخلق بعد النبي ﷺ وهو أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

فقد كان يحلبُ لجيرانه الشياه، فلما ولى الخلافة، قالوا: ومن يحلبُ لنا؟ قال: أنا أحلبُ لكم. فلم يزل يحلب لهم وهو فى الخلافة.

وكان عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه لا يُعرفُ من بين عبيده، من شدة تواضعه.

وكان سلمان الفارسى أميراً على ثلاثين ألفاً من المسلمين، وكان يخطب الناس فى عباءة، يفترش بعضها، ويلبس بعضها، فإذا خرج غطى أعضائه.

وكان يعجن عن الخادم حين يرسلها فى حاجة، : ويقول: لا يجتمع عليها عملاقان. وكان الناس يسخرونه فى حمل أمتعتهم، وهم لا يعرفونه، لثلاثة حاله، وهو أمير على المدائن.

وهذا هو التواضع الجبلىُّ، الناشئُ عن شهود الجلال، والجمال، فإنَّ الله تعالى ما تجلَّى لشيء إلا خضع له.

فصل فى مكارم الأخلاق

قال ﷺ: "أَدَبْنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ أَدَبِي"^(١)، ثم أمرنى بمكارم الأخلاق، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٢).

وقال بعض الحكماء: أدبُ الظاهر عنوان أدب الباطن.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: أدب الباطن: التحلّى بمحاسن الأخلاق.

وقال ﷺ: "إِنَّكُمْ لَنْ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعَوْهُمْ بِيَسْطِ الْوَجْهِ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ"^(٣)، وقال ﷺ: "خيركم من يرجى خيره".

ورحم الله القائل:

النَّاسُ أَبْنَاءُ لِأَدَمَ كُلُّهُمْ وَتَفَاضَلُوا بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ
فَأَحَقُّهُمْ بِالْمَدْحِ مَنْ كَانَتْ لَهُ خُلُقٌ وَأَفْضَلُهُمْ عَلَى الْإِطْلَاقِ

[من البحر الكامل]

وقال غيره:

إِنْ شِئْتَ تَبْلُغْ رُتَبَةَ الْأَشْرَافِ فَعَلَيْكَ بِالْأَخْلَاقِ وَالْإِنْصَافِ

[من البحر الكامل]

(١) رواه السيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ١٩٩.

(٣) رواه الأصبهاني فى الحلية والحاكم فى مستدركه والبيهقى فى سننه.

فكن أيها العبد... لإخوانك راحمًا، ولأسرارهم كاتمًا، وفي مصالحهم ساعيًا، ولحقوقهم راعيًا، وراعٍ في كل خلقٍ حق من خلقه.

قال ﷺ: "الخلقُ عيالُ الله، وأحبُّ الخلقِ إلى الله أنفعُهُم لعياله" (١).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: "إن كنتم تريدون رحمتي فارحموا خلقي" (٢).

وقال ﷺ: "والله... ما نزع الله الرحمة إلا من قلب شقي" (٣).

وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: من سره أن يظله الله تعالى من نار جهنم يوم القيامة فليكن بالمؤمنين رحيماً، رقيق القلب.

وقال رجلٌ لمعاذ رضى الله عنه: أوصنى، فقال له: كن بالمؤمنين رحيماً، أكن لك بالجنة زعيماً.

وقال ﷺ: "من ستر أخاه المسلم فى الدنيا ستره الله يوم القيامة" (٤).

وقال ﷺ: "عليكم باصطناع المعروف، فإنه يمنع مصارع السوء".

وقال ﷺ: "من يغفر يغفر الله له، ومن يعف يعف الله عنه".

وقال جعفر بن محمد رضى الله عنه: لأن أندم على العفو، أحبُّ إلى من أن أندم على العقوبة.

وسئل قتادة: من أعظم الناس قدراً؟ فقال: أكثرهم عفواً. قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥).

(١) رواه أبو يعلى والبخاري والطبراني فى الكبير وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير جـ ٢ ص ١٢.

(٢) رواه ابن عساکر وأبو الشيخ والديلمى.

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدرکه.

(٤) رواه الإمام أحمد فى مسنده.

(٥) سورة آل عمران - الآية رقم ١٣٤.

وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: من علامة المنافق أن يحسد الناس،
ويكن في قلبه الضغائن، والحق لمن آذاه، أو زاد عليه في الجاه.

وجاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال له: هل نزل عليك مثل هذا، وأنشد:
وَحَيَّ ذَوَى الْأَضْغَانِ تَسْبِ عُقُولَهُمْ تَحِيَّتِكَ الْحُسْنَى فَقَدْ يُرْقِع النَّعْلُ
وَأِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ فَاجْنَحْ تَكْرُمًا وَإِنْ كَتَمُوا عَنْكَ الْحَدِيثَ فَلَا تَسْلُ
فَإِنَّ الَّذِي يُؤْذِيكَ مِنْهُ سَمَاعُهُ وَإِنَّ الَّذِي قَالُوهُ بَعْدَكَ لَمْ يُقْلُ
[من البحر الطويل]

فقال ﷺ: "أنزل على أحسن من ذلك... قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي
الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (٣٤) وَمَا
يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ (١).

ومن أخلاق المؤمنين: أن يلينوا لمن آذاهم، ويدافعوه بالأحسن فذلك
أنفع لقطع إذايتهم.

قال الإمام الشافعى رضى الله عنه: لينوا لمن يجفو، فقل من يصفو.

وقال ﷺ في معنى قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ
الْجَاهِلِينَ﴾ (٢)؛ هو أن تصل من قطعك، وتعطى من حرمك، وتعفو عمن
ظلمك، وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: إذا أردت عداوة رجل، فإن
كان صالحاً فإياك، وإياه.

فإن الله تعالى لا يسلمه، ولا يخلّى بينك وبينه، وإن كان عاصياً، فقد
كفيت مؤونته، فلا تتعب نفسك بعداوته.

(١) سورة فصلت - الآيتان ٣٤ - ٣٥.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ١٩٩.

ومن هذا المعنى قولهم: يكفيك من عدوك قلة دينه، وقال رضى الله عنه: لا تشتري مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.

وقال محمد بن الحنفية رضى الله عنه: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لم يجد من معاشرته بُدًّا، حتى يجعل الله تعالى له مخرجًا. وقال ﷺ: "رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس".

ورحم الله القائل:

أَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ تَسْعِبُ قُلُوبَهُمْ وَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِحْسَانُ إِنْسَانًا

[من البحر البسيط]

وقال ﷺ: "إن لله عبادًا خلقهم لحوائج الناس هم الآمنون يوم القيامة".

وفى رواية: "آلى على نفسه أن لا يعذبهم بالنار، فإذا كان يوم القيامة رفعت لهم منابر من نور يحدثون الله، والناس فى الحساب".

وقال ﷺ: "من فرج عن أخيه كربةً من كرب الدنيا فرج الله عنه كربةً من كرب الآخرة" (١).

وقال ﷺ: "لا يستر عبدٌ عبدًا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة" (٢).

وفى رواية أخرى: "من ستر على أخيه ستر الله عليه فى الدنيا والآخرة والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه" (٣).

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه الإمام مسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد بلفظ: «من ستر أخاه المسلم فى الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة» وصححه السيوطى فى الجامع الصغير ج٢ ص ١٧٣ طبع دار البحوث العلمية

بدون تاريخ

وقال ﷺ: "إن من موجبات المغفرة إدخال السرور على أخيك المسلم" (١).

وقال ﷺ: "من أنظر معسراً، أو وضع له، أظله الله تحت ظل عرشه، يوم لا ظل إلا ظله" (٢).

وقال ﷺ: "خير الناس أنفعهم للناس" (٣).

وقال ﷺ: "خيركم من يرجى خيره، يوقى شره".

والمؤمن لا يحتقر أحداً من المسلمين، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ (٤) الآية.

وقال على بن أبى طالب رضى اله عنه: خير الناس من أعانهم ونفعهم.

وقال الجنيد رضى اله عنه: من قضى لأخيه المسلم حاجة فكأنما خدم الله عمره.

وقال ﷺ: "لا تظهر الشماتة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك" (٥).

وقال الشيخ أبو المحاسن سيدى يوسف الفاسى رضى اله عنه فى بعض مكاتباته لبعض قضاة العصر ما نصه: انفراد الحق بالكمال قاضٍ بثبوت النقض لمن سواه، فلا يوجد كامل إلا بتكميله، : وتكميله من فضله، فالنقض أصلٌ،

(١) رواه الطبرانى وضعفه السيوطى فى الجامع الصغير ج١ ص ١٠٠.

(٢) الجامع الصغير، رواه أحمد ومسلم وصححه السيوطى ج٢ ص ١٦٧.

(٣) الجامع الصغير، رواه القضاعى وحسنه السيوطى ج٢ ص ٩.

(٤) سورة الحجرات - الآية رقم ١١.

(٥) رواه الترمذى وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير ج٢ ص ٢٠١.

والكمال عارض، وبحسب هذا فطلب الكمال فى الوجود على وجه الأصالة باطل.

ومن ثم قيل: انظر للخلق بعين الكمال، واعتبر فى وجودهم النقص، فإن ظهر الكمال يوماً فهو فضل، وإلا فالأصل هو الأول، وبهذا يقع الاحتراز، وحسن الظن، ودوام العشرة، بعدم المبالاة بالعشرة، فاعتبر ما قيل، وعلى الله قصد السبيل، انتهى.

وقال رضى الله عنه فى كتاب آخر: والتغافل عن العورات، منك أجلّ القربات، وأعظم الطاعات.

وقال الإمام ابن العربى رضى الله عنه فى الفتوحات المكية: واعلم... أن احتقار شىء من العالم، لا يصدر من تقى يتقى الله، لأنه من شعائر الله تعالى، من حيث خلقه الله دليلاً عليه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١)، انتهى.

وقال عليه السلام: "من دبّ على عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يقيه من النار"^(٢)، أو كلاماً هذا معناه، وفى رواية: "من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة"^(٣).

وقال عليه السلام: "المؤمنون هينون، لينون".

وقال عليه السلام: "المؤمن إلفٌ مألوفٌ، ولا خير فيمن لا يآلف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس"^(٤)، وقيل:

(١) سورة الحج - الآية رقم ٣٢.

(٢) الجامع الصغير.

(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى.

(٤) الجامع الصغير.

إِذَا مَا بَدَتْ مِنْ صَاحِبٍ لَكَ زَلَّةٌ فَوَسَّعَ لَهُ صَدْرًا وَهَيَّءَ لَهُ صَبْرًا
[من البحر الطويل]

وقال عليه السلام: "أثقل ما يوضع في الميزان خلقٌ حسن".

وجاء رجل إلى النبي عليه السلام من بين يديه، فقال: ما الدين؟ فقال: حسن الخلق. ثم أتاه من قبل يمينه، فقال: ما الدين؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه من قبل شماله.

فقال: ما الدين؟ فقال: حسن الخلق، ثم أتاه من ورائه، فقال: يا رسول الله... ما الدين؟ فقال: حسن الخلق، فالتفت إليه وقال: أما تفقه؟؟ هو أن لا تغضب.

وقال الشيخ ابن أبي زيد القيرواني رضى الله عنه فى رسالته: وجماع آداب الخير، وأزمتها، تتفرع عن أربعة أحاديث، قول النبي عليه السلام: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت"^(١)، وقوله عليه السلام: "من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"^(٢)، وقوله عليه السلام الذى اختصر له فى الوصية: "لا تغضب"^(٣)، وقوله عليه السلام: "المؤمن يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه"^(٤).

وقال رجل للنبي عليه السلام: "أوصنى.. فقال: اتق الله حيث كنت، قال: زدنى، قال: أتبع السيئة الحسنة تمحها، قال: زدنى، قال: خالق الناس بخلق حسن"^(٥).

(١) الجامع الصغير.

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه، والإمام أحمد، والطبرانى.

(٣) رواه الإمام أحمد والبخارى فى صحيحه والترمذى.

(٤) رواه الإمام أحمد والشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه.

(٥) رواه الإمام أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى.

وسئل الحسن البصرى رضى الله عنه عن الخلق الحسن المشار إليه فى الحديث، فقال: هو السخاء، والعفو، والاحتمال.

وسئل عنه على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال: هو موافقة الناس فى كل شىء ما عدا المعاصى.

وقيل لرسول الله ﷺ: أى المؤمنين أفضل إيماناً؟ قال: "أحسنهم خلقاً" (١).

وقال ﷺ: "إن أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، الموطؤون أكنفا، الذين يألفون ويؤلفون" (٢).

وقال ﷺ: "إن حسن الخلق ليزيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد" (٣).

وقال ﷺ: "من سعادة المرء حسن الخلق" (٤).

وقال ﷺ: "إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة، وشرف المنازل، وإنه لضعيف العبادة" (٥).

وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: يزداد فى ثمن الدار إذا كان جارها طليق الوجه، حسن الخلق.

وقيل للأحنف بن قيس من أين تعلمت حسن الخلق؟ قال: من قيس بن عاصم صاحب رسول الله ﷺ لما أتته خادمه بسفود عليه شواء مُحَمَّى، :

(١) رواه ابن ماجه والحاكم.

(٢) رواه الخرائطى والخطيب وابن عساكر.

(٣) رواه الخرائطى، الجامع الصغير.

(٤) رواه البيهقى.

(٥) لم نقف عليه.

فطار من يدها على ولد له صغير، فمات، فخافت الخادم، فقال: اذهبي أنتِ حرةً لوجه الله.

وقال ﷺ: "إن العبد ليبلغ بسوء خلقه أسفل درك جهنم" (١).

وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: لأن يصحبنى فاجرٌ حسنُ الخلق، خيرٌ من أن يصحبنى عابدٌ سىء الخلق.

وقال رضى الله عنه: بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ: إن فلانة تصوم النهار، وتقوم الليل، وهى سيئة الخلق، تؤذى جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها، هى من أهل النار (٢).

وقال ﷺ: "سوء الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل" (٣).

وقال بعضهم رضى الله عنه: أكثر الناس همًّا أسوأهم خلقًا.

وحكى أن بعضهم رأى فى نومه كأن ميتًا أدخل قبره، ودخل معه شخص حسن الهيئة، حسن الثياب، ودخل معهما كلبٌ أسود.

فإذا بالشخص الذى دخل معهما خرج هاربًا، ممزق الثياب، فقصَّ ذلك على شيخه. فقال له: إنَّ الشخص الذى خرج هاربًا هو عمَلُ ذلك الميت، والكلب الأكحل: سوء خلقه، ولا ينفع العمل الصالح مع سوء الخلق وهذا التعبير مفهوم من الحديث المذكور.

ومنه قول يحيى بن معاذ رضى الله عنه سوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثير الحسنات.

(١) رواه الطبرانى.

(٢) الجامع الصغير.

(٣) رواه البيهقى والطبرانى.

وروى أن موسى عليه الصلاة والسلام قال: يا رب... دُلّني على أحب الخلق إليك. فقال: يا موسى... أحب الخلق إلى مَنْ إذا سمع أن أخاه شاكته شوكة حزن إليها، كأنما شاكته هو.

وقال شقيق البلخي رضى الله عنه: من تعرّض لمساوىء النَّاسِ. عَرَّضَ نفسه للمهالك، ومن سلم الناس منه، سَلِمَ هو من الناس، ومن نَمَّ على الناس افتقر في دينه، وديناه، وإنَّه من خدام إبليس.

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (١).

وعليكم بالصمت. فإنه حلية المهتدين، وأسلمٌ للدنيا، وللدن. وقد قيل: الصمت حكمة. وأنشدوا:

فَلَوْ كَانَ نُطْقُكَ مِنْ فَضَّةٍ لَكَانَ سَكُوتُكَ مِنْ عَسْجَدٍ
[من البحر المتقارب]

وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله... فيم النجاة؟ فقال: املك عليك لسانك ويسعك بيتك، وإبك على خطيئتك" (٢).

وأوصى رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رضى الله عنه بالصلاة والصيام وغير ذلك، ثم قال في آخر وصيته: ألا أدلك على ما هو أملك لك من ذلك كله؟؟، هذا.. وأوماً بيده إلى لسانه، فقال: يا رسول الله وإنَّا لمؤاخذون بما تتكلَّم به ألسنتنا؟

(١) سورة الإسراء - الآية رقم ٥٣.

(٢) رواه الترمذى، وانظر السيوطى الجامع الصغير.

فقال: شكلك أمك... معاذ... وهل يكبُّ الناس في النار على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟ إنك ما سكتَ فأنت سالم، فإن تكلمت فلَكَ أو عليك^(١).

وقال ﷺ: "منك كثر كلامه، كثر سقطه، ومن كثر سقطه، كثر ذنوبه، ومن كثر ذنوبه، كانت النار أولى به"^(٢).

وسأله ﷺ أبو ذر رضى الله عنه عما كان في صحف إبراهيم، وموسى.

فذكر له أشياء إلى أن قال فيها: فعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ذكر هذا الشيخ سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه في رسائله الكبرى.

وقال في الطبقات الكبرى: الصمت عبادة من غير عناء، وزينة من غير حُلَى، وهيبة من غير سلطان، وحصنٌ من غير سور، وغنية عن الاعتذار، وراحة الكاتبين والله المستعان.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

(١) رواه الترمذى.

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط.

obeikandi.com

الباب الحادى عشر

فى

ذم الدُّنيا وأهلها

وذكر الآخرة وفضلها

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الحادى عشر

فى ذم الدنيا وأهلها، وذكر الآخرة وفضلها

الدنيا: كل ما يلهى عن الآخرة.

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: قال بعضهم: كُلُّ ما أغفل القلوب عن ذكر الله، فهو دنيا، وكل ما أوقف القلوب عن طلبه، فهو دنيا.

وقد نهانا مولانا تبارك وتعالى عن الاغترار بها، وأمرنا بالإعراض عمن أثرها على الآخرة، فى آيات كثيرة، وعلى لسان نبيه ﷺ فى أحاديث شهيرة.

قال تعالى تعريفًا لنا بخسّة قدرها، وتخويفًا من غدرها، وشرها: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ (٣) الآية.

(١) سورة لقمان - الآية رقم ٣٣.

(٢) سورة آل عمران - الآية رقم ١٨٥.

(٣) سورة الحديد - الآية رقم ٢٠.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ﴾ (٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ (٤).

وقال تعالى: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّىٰ عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٥).

وقال ﷺ: "من يشته كرامة الآخرة يدع زينة الدنيا" (٦).

وقال ﷺ: "من أراد أن يؤتیه الله علماً بغير تعلم، وهدىً بغير هداية، فليزهد في الدنيا" (٧).

وقال ﷺ: "إن الله تعالى لما خلق الدنيا نظر إليها ثم أعرض عنها، ثم قال: وعزتي... لا أنزلتك إلا في شرار خلقي" (٨).

وقال ﷺ: "لا تقوم الساعة حتى يكون أسعد الناس بالدنيا لكع ابن لكع" (٩) ومعناه لئيم بنك لئيم.

(١) سورة طه - الآية رقم ١٣١.

(٢) سورة غافر - الآية رقم ٣٩.

(٣) سورة النساء - الآية رقم ٧٧.

(٤) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٤.

(٥) سورة النجم - الآية رقم ٢٩.

(٦) لم أجده، لم نقف عليه.

(٧) لم نقف عليه.

(٨) انظر كنز العمال.

(٩) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذی في سننه.

وقال ﷺ: "إن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو أبغض إليه من الدنيا، وما نظر إليها منذ خلقها بغضاً لها" (١).

وقال ﷺ: "لو كانت الدنيا من ذهب، والآخرة من خزفٍ لاختار العاقل ما يبقى على ما يفنى" (٢).

وقال ﷺ: "يا عجباً كل العجب لمصدقٍ بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور" (٣).

وقال ﷺ: "يا عجباً لمن يطلب الدنيا والموت يطلبه" (٤).

وقال ﷺ: "الدنيا ملعونةٌ ملعونٌ ما فيها إلا ذكر الله، وما والاه، وعالمٌ ومتعلمٌ" (٥).

وقال ﷺ: "من أحب دنياه أضر بآخرته، ومن أحب آخرته أضر بدنيه، ألا فآثروا ما يبقى على ما يفنى" (٦).

وقال ﷺ: "طلب الدنيا رأس كل خطيئة" (٧)، وأساس كل بلية، ومعدن كل مصيبة، ورزبة، والله... ما سكن حب الدنيا قلب عبدٍ إلا التاؤد فيها بثلاث: شغل لا ينفك عنه، وفقير لا يدرك غناه، وأمل لا غاية لمنتهاه" (٨).

(١) رواه الحاكم في التاريخ.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا.

(٤) الجامع الصغير.

(٥) رواه ابن ماجه، والطبراني في الأوسط.

(٦) رواه الإمام أحمد في مسنده، والحاكم في مستدركه.

(٧) لم نقف عليه بهذا اللفظ إنما ورد بلفظ (حب الدنيا رأس كل خطيئة) رواه البيهقي في

سننه عن الحسن مرسلاً، وضعفه السيوطي (الجامع الصغير).

(٨) رواه الديلمي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وفى ذلك قيل :

حَسْرَتِي إِذْ لَا حَيَاةَ لَذِيذُهُ وَلَا عَمَلٌ يَرْضَى بِهِ اللَّهُ صَالِحٌ

[من البحر الطويل]

وقال عليه السلام : " الزهد فى الدنيا يريح البدن، والقلب، والرغبة فى الدنيا تكثر الهم والحزن " (١).

وقال عليه السلام : " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها جرة ماء " (٢).

وقال عيسى عليه السلام: حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: ارتحلت الدنيا مدبرة، والآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون.

فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب، والآخرة حساب ولا عمل.

وقال رضى الله عنه: ما الدنيا عندى إلا كعراق خنزير يرى فى يد أجذم.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: ما رأينا أحداً طلب الدنيا فأدرك الآخرة، بخلاف العكس.

وقال محمد بن واسع رضى الله عنه: من زهد فى الدنيا فهو ملك فى الدنيا والآخرة، وقال سيدى على الخواص رضى الله عنه: من مات على حب الدنيا حشر مع مبغوض لم ينظر الله تعالى له منذ خلقه.

(١) رواه أحمد والبيهقى وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير.

(٢) رواه الترمذى فى سننه.

وقال سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه فى الحديث: إن الدنيا تمثل وتوقف بين يدى الله عز وجل فيأمر بها إلى النار، فتقول: يا رب.. ومن يحبني معي.

فيقول الله عز وجل: ومن يحبك معك، فتلفظهم الملائكة من الخلائق، ويدخلون معها النار. وهذا مصداق قوله ﷺ: "المرءُ مع منك أحب" (١).
شَغَلَتْ قَلْبَكَ بِالدُّنْيَا وَلَذَّتْهَا كُلُّ سَيْفَنِي وَيَقَى بَعْدَهُ اللَّهُ
هِيَ الْغُرُورُ فَلَا تَحْمَدُ إِرَادَتَهَا وَكَيْفَ تَحْمَدُ شَيْئًا ذَمَّهُ اللَّهُ
[من البحر البسيط]

وقال ﷺ: "الدنيا سجنُ المؤمن" (٢)، قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينه، والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.
ثم إنَّ السجنَ معدٌّ لأنواع المكاره، إذ لا يكون المسجون مسروراً بالسجن، ولا يحبُّ المقام فيه، كما قيل:
سُجِنْتُ بِهَا وَأَنْتَ لَهَا مُحِبٌّ فَكَيْفَ تُحِبُّ مَا فِيهِ سُجِنْتُ
[من البحر الوافر]

وقد ورد فى التوراة: حرامٌ على قلب يحبُّ الدنيا أن يقول الحق.
وقال مالك بن دينار رضى الله عنه: من خطب الدنيا، طلبت منه دينه كله فى صداقها، لا يرضيها منه إلا ذلك.

(١) انظر الجامع الصغير.

(٢) رواه الإمام أحمد والإمام مسلم فى صحيحه والترمذى وابن ماجه.

وقال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: من طَلَّق الدنيا تزوجته الآخرة على الفور.

وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود... عجباً لمن يعلم أنى أسأله عن النقيير والقطمير، والفيتل، كيف تقرأ عينه فى الدنيا. قاله وهب بن منبه رضى الله عنه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: كُلَّمَا حُرِّمْتُ شَيْئاً مِنَ الدُّنْيَا ارْتَفَعَتْ دَرَجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ، وَكُلَّمَا أُعْطِيتُ شَيْئاً مِنْهَا نَقَصَتْ دَرَجَتُكَ فِي الْجَنَّةِ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَ اللَّهِ كَرِيماً.

وقال سيدى عبد الرحمن الثعالبي عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال: ما أعطى أحد من الدنيا شيئاً إلا انتقصت درجته عند الله تعالى وإن كان من أهل الجنة.

وقد جعل الله سبحانه زينة الدنيا اختباراً لعباده، يتميز من هو معها، مَنْ هُوَ مَعَ مَوْلَاهُ، لَمْ تَشْغَلْهُ عَنْهُ بَهْجَتُهَا. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (١).

قال ﷺ: "موضع سوطٍ فى الجنة خيرٌ من الدنيا وما فيها" (٢).

وكان أبو على الثقفى رضى الله عنه يقول لأهل الدنيا يا من باع كل شىء بلا شىء، واشترى لا شىء بكل شىء.

وقال أبو حازم رضى الله عنه: ما مضى من الدنيا حُلُمٌ، وما بقى: أمانى. ورحم الله القائل:

(١) سورة الكهف - الآية رقم ٧.

(٢) رواه البخارى والترمذى وابن ماجه.

هَذِهِ الدُّنْيَا، وَهَذَا حَالُهَا أَتَعَبُ النَّاسِ بِهَا أَغْوَانُهَا
وَذَوُّوْهُ الْأَحْلَامِ قَالُوا إِنَّهَا حُلْمٌ يَقْضَى بِهَا يَقْظَانُهَا

[من البحر الرمل]

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: كفاك من الإدبار، أن تفتح عينيك فى شىء من هذه الدار.

وقال عليه السلام: "أيس الشيطان من عبادة الصليب بأرض العرب، ورضى منكم بالدون، الدينار والدرهم".

وقال الشيخ ابن عطاء رضى الله عنه: ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً، وهو لا يرضى أن تكون لغيره عبداً.

وقال سيدى عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه: إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا، لم يذر له مالا، ولا ولداً، وذلك ليزول اشتراكه فى المحبة لربه تعالى، والحق غيورٌ لا يقبل الشراكة، انتهى.

ومن كان ذا مال وولدٍ من أهل الخصوصية، فهم محفوظون قد تولاهم الله سبحانه، فلم يشغلهم عنه شىء.

وقال ابن عجلان رضى الله عنه: الدراهم أزمّة المنافقين، يقادون بها إلى المهالك.

وقال عليه السلام: "مثل الدنيا والآخرة كمثل المشرق والمغرب، إذا أقبلت على أحدهما أدبرت عن الآخر"، فمن انصرفت همته إليها، انصرفت عن غيرها.

ألا ليس للقلب إلا وجهة واحدة، ومولانا عز وجل لا يقبل القلب المشترك، فالعمل المشترك لا يقبله، والقلب المشترك لا يقبل عليه، وهذا فى

المشترك، فما ظنك بمن تمحّض للدنيا بالكلية، ولم تبق فيه للأخرى بقية، وأنفق عمره في جلبها، والتكالب عليها، خشية فوات ما قُدِّرَ له منها، أو حرصاً على الزيادة فيها، ويرى نفسه مقصراً في خدمتها، ويتوقع الفقر إذا لم يجتهد في طلبها. وقد قيل:

وَمَنْ يُنْفِقِ الْأَيَّامَ فِي جَمْعِ مَالِهِ مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي صَنَعَ الْفَقْرُ

[من البحر الطويل]

وبقدر تمكن حلاوتها من القلب، وفرط الحب فيها،: تعظم الحسرة عليها، والمخفقون هم الفائزون.

قال في الحكم: ليقل ما تفرح به، يقل ما تحزن عليه. كما قيل:

عَلَى قَدَرٍ مَا أَوْلَعْتَ بِالشَّيْءِ حُزْنُهُ وَيَصْعَبُ نَزْعُ السَّهْمِ مَهْمَا تَمَكَّنَا

[من البحر الطويل]

وقيل:

وَمَنْ سَرَّهُ أَلَّا يَرَى مَا يَسُوؤُهُ فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

[من البحر الطويل]

قال في الحكم: من أراد أن لا يعزل، فلا يتولَّ ولاية لا تدوم له.

ولا يُخرجُ حبَّ الدنيا من القلب إلا خوفٌ مزعج، أو شوق مقلق. قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آذِلَّةً﴾ (٢).

(١) سورة الأنبياء - الآية رقم ١٨.

(٢) سورة النمل - الآية رقم ٣٤.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: إذا جرى الماء الجديد فى الأشجار، سقطت الأوراق البالية، وخرجت أغصان جديدة فيها تفتح الأزهار، وتنعدق الثمار، ويشير رضى الله عنه إلى هذا المعنى، اعتبار من أكرمه الله بالعقل.

فليتأمل عاقبة أفعال البر، من صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو ذكر، أو اجتناب محرّم، وما وعد الله به فاعل الخير، وأعد له فى الدنيا، والآخرة. ولمن خلقت الجنة، ونعيمها، ولينظر عاقبة نعيم الدنيا، وإن طال، وما نال بالأمس من شهواتها، ولذاتها، من المطاعم، والمشارب، والملابس، والمراكب ما غايته، وأى شىء عاقبته، وما كتب فى صحيفته من ذلك. وبأى شىء يحضر يوم القيامة، وعمّ يسأل، وبم يسرّ هنالك، هل بما أسلف من الشهوات؟ أو بما اغتنم من الخيرات؟ وليتأمل قول الشاعر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا كَأَحْلَامٍ نَائِمٍ وَكُلُّ سُرُورٍ لَيْسَ فِيهَا بِدَائِمٍ
تَأْمَلْ إِذَا مَا نَلْتَ بِالْأَمْسِ لَذَّةً فَأَفْنَيْتَهَا هَلْ أَنْتَ إِلَّا كَحَالِمٍ
[من البحر الطويل]

ورحم الله القائل:

وَلَقَدْ سَأَلْتُ الدَّارَ عَنْ أَخْبَارِهِمْ فَتَبَسَّمَتْ عَجَبًا وَلَمْ تُبْدِ
حَتَّى مَرَرْتُ عَلَى الْكَئِيفِ فَقَالَ لِي أَمْوَالُهُمْ وَمَتَاعُهُمْ عِنْدِي
[من البحر الكامل]

قال محمد بن على الترمذى^(١) رضى الله عنه: لم تزل الدنيا مذمومة

(١) الحكيم الترمذى "راجع الدكتور أحمد السايح الحكيم الترمذى ونظريته فى السلوك" ط مكتبة الثقافة الدينية.

فى الأمم السالفة، عند العقلاء منهم، وطالبوها مهانين عند الماضين من الحكماء، وما قام داعٍ فى أمةٍ إلا وقد حذر متابعة الدنيا، وجمعها، والحبَّ لها.

ألا ترى مؤمن آل فرعون كيف قال: اتبعون أهدكم سبيلَ الرشاد، يا قوم إنما هذه الحياة متاع والله لن تصلوا إلى سبيل الرشاد وفى قلبكم محبة الدنيا، وطلبها.

وقال الحسن البصرى رضى الله عنه: لا تصلوا خلف محب الدنيا.

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه: تصدى الشيطان لسليمان بن داود عليه السلام، فقال سليمان: ما أنت صانع بأمة محمد ﷺ إذا أنت أدركتهم؟ فقال: أزين لهم الدنيا، حتى يكون الدينار، والدرهم أشهى إلى أحدهم من شهادة أن لا إله إلا الله.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، يا موسى.. إذا رأيت الدنيا مقبلة عليك فقل: ذنب عجلت لى عقوبته.

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول: يا دنيا... غررى غيرى، قد بايتتك ثلاثاً، عمرك قصير، ومجلسك حقير، وخطرك قليل، آه.. آه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: وقفت الدنيا فى طريق الآخرة، فمنعت الوصول إليها.

قال الشيخ القشيرى رضى الله عنه فى التعبير: فى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ (١)، فمنك

(١) سورة الشورى - الآية رقم ٢٠.

رضى عنا بديناه، عجلنا له هواه، وأوصلنا إليه مناه، ولكن الفرقة قصاراه،
والنار مأواه، والجحيم مثواه.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ (٢).

وقال أبو حازم رضى الله عنه: نعمة الله فيما زوى عنى من الدنيا،
أعظم على من نعمته فيما أعطانى منها، إنى رأيته أعطاهما قومًا فهلخوا.

ومن شؤمها أن أهلها مفتونون، محرومون، ألا تراهم لا يتفرغون
لحضور مجالس الذكر، وملازمة الجماعة، ولا تجد فيهم قابلية لسماع
المواعظ، ومن اتفق له حضور مجلس وعظ، لا يعمل فيه، ولا يعلق بقلبه،
لاشتغاله بما تمكن فيه من حب الدنيا.

قال بعض الحكماء: إن البدن إذا سقم له ينفعه طعام، ولا شراب،
كذلك القلب، إذا علق حب الدنيا لم تنفعه الموعظة.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: كان بعض المشايخ يتكلم مع
أصحابه، ويخبرهم باسم الله الأعظم، ثم يتفرقون من عنده وقد نسوه، إلا
من خصه الله به، أو كان هو مقصود الشيخ به. ولذلك قيل: الحكمة بكر،
كريمة، إذا لم تجد كفؤاً لها، رجعت لدار أبيها.

قال الشيخ سيدى محمد بن عباد رضى الله عنه: الدنيا مانعة من سعادة
الآخرة، والقرب من الله تعالى، الذى هو غاية الطالبين، ونهاية رغبة
الراغبين.

فكيف وهو معرض فيها لأنواع المصائب، والفجائع، ووقوع الأغيار،
والأكدار، فما من أحد فيها إلا وهو فى كل حال، ووقت عَرَضٌ لأسهم
ثلاثة: سهم بلية، وسهم رزية، وسهم منية.

(١) سورة الشورى - الآية رقم ٢٠.

فإذا نزل به ذلك عادت النعمةُ نعمةً، وصارت الفرحة قرحةً، وهكذا شأن الدنيا أبدًا، فلا يفى مرجوها بمخوفها، ولا يقوم خيرها بشرها. وقال أبو حازم رضى الله عنه: ما فى الدنيا شىء يسركُ إلا وقد أُلزقَ به شىء يسؤوك.

كما قيل:

إِنَّ اللَّيَالِيَّ لَمْ تُحْسِنْ إِلَى أَحَدٍ إِلَّا أَسَاءَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ إِحْسَانٍ
[من البحر البسيط]

وقيل:

مَا قَامَ خَيْرُكَ يَا زَمَانُ بِشِرِّهِ أَوْلَى لَنَا مَا قَلَّ مِنْكَ وَمَا صَفَا
[من البحر البسيط]

وقيل:

زَمَنْ إِذَا أُعْطِيَ اسْتَرَدَّ عَطَاءَهُ وَإِذَا اسْتَقَامَ بَدَأَ لَهُ مُتَجَرِّبًا
[من البحر الكامل]

وقيل:

تُسَرُّ بِالشَّيْءِ لَكِنْ كَى تُغَرِّبَهُ كَالْأَيْمِ ثَارَ إِلَى الْجَانِي مِنَ الزَّهْرِ
[من البحر البسيط]

وكتب على بن أبى طالب رضى الله عنه إلى سلمان الفارسى رضى الله عنه: إنما مثل الدنيا كمثل الحية، لينٌ مَسُّهَا، قاتلٌ سَمُّهَا، فأعرض عنها، وعمّا يعجبك منها لِقَلَّةِ ما يصحبك منها.

ودع عنك همومها، لما تيقنت من فراقها، وكن أحذر ما تكون منها،
أسرَّ ما تكون فيها، فإن صاحبها كلما اطمأنَّ فيها إلى سرور، أشخص عنها
إلى مكروه.

وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه: الدنيا جيفةٌ، فمن أراد منها شيئاً
فليصبر على مخالطة الكلاب.

وقال فى الطبقات عن بعضهم: من اشتغل بطلب الدنيا، : ابتلى بالذلِّ
فيها، ومن تعالى عن نقائص نفسه، طغى، وبغى، ومن تزين بباطل فهو
مغرور.

وقال بعضهم رضى الله عنه: دار الدنيا كأحلام المنام، وسرورها كظل
الغمام، وأحداثها كصوائب السهام، وفتنتها كالأمواج الطوام.

وقال أبو العتاهية:

وَدَارُ الْهُمُومِ وَدَارُ الْغَيْرِ	هِيَ الدَّارُ دَارُ الْأَذَى وَالْقَذَى
وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا الْوَطْرُ	وَلَوْ نَلْتَهَا بِحَذَائِيرِهَا لَمُتَّ
وَطُولُ الْبَقَاءِ عَلَيْهِ ضَرَرُ	أَيَّا مَنْ يُؤْمَلُ طُولُ الْبَقَاءِ
فَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ الْكِبَرِ	إِذَا مَا كَبُرَتْ وَبَانَ الْمَشِيبُ

[من البحر المتقارب]

وقال أبو منصور الثعالبي رضى الله عنه:

وَلَا تَخْطُبْنِ قَتَالَةً مَنْ تُنَاجِ	تَنَحَّ عَنْ الدُّنْيَا فَلَا تَخْطُبْنَهَا
وَمَكْرُوهَهَا أَمَا تَأْمَلْتِ رَاجِحُ	فَلَيْسَ يَفِي مَرْجُوُّهَا بِمَخُوفِهَا
وَعِنْدِي لَهَا قَوْلٌ لِعَمْرِي صَالِحُ	لَقَدْ قَالَ فِيهَا الْوَاصِفُونَ فَأَكْثَرُوا

سُلَافٌ قُصَارِهَا زُعَافٌ وَمَرْكَبٌ شَهِيٌّ إِذَا اسْتَلْذَذْتَهُ فَهُوَ جَامِعٌ
وَشَخْصٌ جَمِيلٌ يَفْتَنُ النَّاسَ حُسْنُهُ وَلَكِنْ لَهُ أَسْرَارٌ سُوءٍ قَبَائِحُ

[من البحر الطويل]

وقد تدعو محبة الدنيا إلى خلطة الكفرة، أعداء الله ورسوله، فتجد محبها، والحريص عليها، يودهم ويؤثر معاملتهم على معاملة المسلمين، ويواصلهم بالإحسان.

حتى يشمتهم بنفسه وهو لا يشعر، يترك الصلاة والذكر، استغلاً معهم، وذلك مراد العدو من عدوه، كما قيل: يفعل الجاهل بنفسه، ما يفعل العدو بعدوه.

وقد قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (١) الآية.

وأهل الدنيا ينفر طبعهم من خلطة العلماء والصالحين والفقراء والمساكين، إذ لا نسبة بين الفريقين:

رَفِيقُكَ قَيْسِيٌّ، وَأَنْتَ يَمَانِيٌّ

قال في الحكم: العجب كل العجب ممن يهرب مما لا انفكاك له منه، ويطلب ما لا بقاء له معه. فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، فاعتبروا عباد الله...

أين الذين كانوا فيها يتنعمون، وبشهواتهم يتمتعون، وبلغوا منها غاية المراد، وساعدتهم بالأموال والأولاد، ساعفتهم أياماً، وأرخت لهم زماماً.

(١) سورة المجادلة - الآية رقم ٢٢.

فبينما هم فى حياها يسبحون، وبين حياضها يريحون ويسرحون، إذ قلبت لهم ظهر المجن، وفاجأتهم بالنوائب، والمحن. كما قيل:

حَسَنْتَ ظَنَّاكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسَنْتَ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ
وَسَاعَدَتْكَ اللَّيَالِي فَاعْتَرَّتْ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ اللَّيَالِي يَحْدُثُ الْكَدَرُ

[من البحر البسيط]

فأظهرت عيوبهم، وأكثرت ذنوبهم، وغدرتهم جهرة، وغادرتهم فى حسرة، يقرعون سنَّ الندم، ويودُّون لو كانوا فى حيزَّ العدم.

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ ﴿١﴾﴾.

وقال أنس رضى الله عنه: كانت لرسول الله ﷺ ناقة تُسمى العضباء، وكانت لا تُسَبِّق، فجاء أعرابى على قعود له، فسبقتها، فاشتد ذلك على المسلمين، وقالوا: سُبِّقت العضباء، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ" (٢).

ومنهم من فرح بها برهةً، كأنما كان فى نزهة، فبينما هو جامع فى الزهو، جانح إلى دواعى اللهو، إذ هتف به هاتف الوعيد ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (٣)، فدعى فأجاب، ولم ينقذه مال ولا أصحاب، ولفَّ فى خرقة، ووَسَّد التراب، وأسلمه الأهل والأحباب، فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، وصدق عليهم قول من قال: كأنهم فى مغانى الحى ما كانوا.

(١) سورة الشعراء - الآيات ٢٠٥ - ٢٠٧.

(٢) رواه البخارى والإمام أحمد وأبو داود والنسائى عن أنس (الجامع الصغير).

(٣) سورة ق - الآية رقم ١٩.

قال عليه السلام: "الناس نيامٌ فإذا ماتوا استيقظوا"، فإذا انتبهوا من المنام، عادوا على أنفسهم بالعتب والملام، وخاتتهم الدنيا والهوى، واضمحلاً كُلُّ ما جمعه وهوى، ثم يُساقون إلى موقف الحساب، إما للشواب أو العقاب، يوم لا يغنى مال ولا بنون، يوم تبلى السرائر، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً. يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية، هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت.

قال يحيى بن معاذ رضى الله عنه: إياكم والركون إلى الدنيا، فإنها دار ممر، لا دار مقر، الزاد منها، والمقيل فى غيرها.

وقال سرى السقطى رضى الله عنه: من عرف الله عاش، ومن مال إلى الدنيا طاش، والأحمق يغدو ويروح فى لاش، والعاقل عن عيوبه فتاش.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالى فى وردى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿١﴾، فرأيت أبا بكر الصديق رضى الله عنه فقال لى: صل من يبقى، واهجر من يفى.

وقال الشيخ ابن عطاء الله رضى الله عنه: قيمتك ما أنت مشغول به، فإن اشتغلت بالدنيا، فلا قيمة لك، فمثال الدنيا كالخيفة لا قيمة لها، انتهى.

وكيف تكون لها قيمة وهى لا تزن عند الله جناح بعوضة؟!..

وروى أن الحسن البصرى رضى الله عنه رأى رجلاً من جلساء الملك، قد بُسِطَ عليه الدنيا، فقال: ما حرفة هذا؟ فقليل له: إنه صرَّاط. فقال: هذا الذى عرف قيمتها.

(١) سورة الرحمن - الآية رقم ٢٦ - ٢٧.

وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: إذا أحب اله عبداً أكثر همّة، وإذا أبغض الله عبداً وسع عليه دنياه، وشغله بها عنه.

وقال سفيان الثوري رضى الله عنه: من جمع المال، ابتلى بخمس خصال: طول الأمل، وشدة الحرص، والشح، ونسيان الآخرة، وقلة الورع.

وقال فى المناهج: مَنْ فرح بالدنيا إذا أقبلت، فقد ثبت حمقه، وأحمق منه من إذا فاتته حزن عليها، فمثاله: كمن جاءته حيةٌ لتلدغه.

ثم مضت، وسلّمه الله منها، فحزن عليها، لكونها لم تلدغه. فاعتبروا بكثرة أهوالها، وتقلبِ أحوالها، وسرعة غدرها وانتقالها.

لكى لا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم، وآفاتنا كثيرة، ونكباتها كبيرة، ما بلغت لخليلها قط المنى.

قال فى الحِكم: لا تستغرب وقوع الأكدار ما دمت فى هذه الدار، فإنها ما أبرزت إلا ما هو واجب نعتها، ومستحق وصفها.

وقال رضى الله عنه: إنما جعلها محلاً للأغيار، ومعدناً لوجود الأكدار، تزهيداً لك فيهان علم أنك لا تقبل النصح المجرد فذوّقك من ذواقها، ما يهون عليك وجود فراقها.

ومن أكرمه الله بحقيقة الإيمان، لا يفرح بها، ولا يحنُّ إلى أهلها.

قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى رضى الله عنه: واعلم يا أخى أن مثال من هو فى الدنيا، ولم يطلب الآخرة، مثال من كان ساكناً فى خرابة، مع كب ضواري، وحيّات، وعقارب، وجوع، وعرى، وخوف متواصل.

فأرسل إليه الملكُ فقال: اترك ما أنت فيه، وتعال إلى حضرتى، فى

نعيم وأمان، وحوَرٍ حسان، وفواكه وإحسان، فأبى ولم يحضر...!!، فهذا
مثال هذه الدار، : والسلام.

ورحم الله القائل :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراةٌ وجُوعٌ
أراها وإن طالَتْ قليلاً كأنها سحابةٌ صيفٍ عن قريبٍ تَقشَعُ

[من البحر الطويل]

وقيل :

ومن يأمن الدنيا يكن مثلَ قابضٍ على الماء خائنه فُروجُ الأصابعِ

[من البحر الطويل]

وقيل :

ومن يحمِدِ الدنيا لشيءٍ يسره فسوفَ لَعَمري عن قريبٍ يلومُها
إذا أقبلتْ كانت على المرءِ حَسرةً وإن أدبرتْ كانت كثيراً همومُها

[من البحر الطويل]

وقيل :

هبِ الدنيا تُقَادُ إليك عَفْواً أليسَ مآلُ ذلكَ للزَّوالِ؟؟

[من البحر الطويل]

وقيل :

اليومَ عندكَ جاهُها وحطامُها وغداً تراه بِكَفٍّ غيركَ مُقتنى

[من البحر البسيط]

وقيل :

دارٌ متى ما أضحكتُ في يومِها أبكتُ غداً!! تباً لها من دارٍ!

[من البحر الطويل]

وقيل :

هي الدنيا تقول بملء فيها : حذار... حذار من بطشى وفتكى
فلا يغرركم منى ابتسامٌ فقولى مضحكٌ والفعل مُبكى

[من البحر الوافر]

قال عليه السلام : " ما لى والدنيا؟ إنما أنا فيها كراكبٍ استظل تحت شجرةٍ ثم راح وتركها " (١).

وقال الإمام أبو حامد الغزالي رضى الله عنه : مثل الناس فى الدنيا، كقومٍ ركبوا سفينة للتجارة، فمروا بجزيرة، فيها الهوام المؤذية، وأرادوا التزود من مائها، فنزلوا للماء بعجلة، فوجدوا فيها أشجاراً مثمرة، وأحجاراً مثمرة، فاشتغل بالنظر إليها أهل الغفلة، وأخذ حاجته منها أهل اليقظة، فرجع الكيسُ بعجلة فسَلِمَ، ومكث الجاهل حتى ذهبَت السفينة ندم، حيث لا ينفعه الندم، فيقول : يا ليتنا نُردُّ.

وروى أن عيسى عليه السلام مرَّ بثلاثة أموات، ومعهم ذهب كثير، فسأل الله تعالى أن يطلعه على حقيقة أمرهم، فأوحى الله إليه : أنهم كانوا عثروا على كنز، وأرادوا قسمه .

فاتفق رجلان منهم على بعث الثالث ليأتيهما بطعام، وتعاقدا على قتله، فاشترى لهما طعاماً، وجعل فيه سماً، ليقتلهما، وينفرد بالمال وحده .

(١) رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه والحاكم .

فلما أتى... قتلاه، وأكلا الطعام، فماتوا جميعاً، وتركوا المال، كما ترى...! وهكذا تفعلُ الدنيا بأهلها.

وقال ﷺ: "إذا أحبَّ الله عبداً حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيم الماء" (١).

وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه لم يزل يدفع الدنيا براحتيه، ويقولك إليك عنى. وقال الشيخ سيدى عبد السلام بن مشيش رضي الله عنه: لا تصحَّ الوجهة إلى الله إلا مع الإقلال من الدنيا، انتهى. وليس طلبها وجمعها، للضروريات مانعاً من الزهد فيها، فقد يكون ملياً زاهداً، إذا لم تشغله محبتها.

قال الشيخ زروق رضي الله عنه: ليس الشأن في قتل الحية، إنما الشأن في إمساكها حية.

وقال رضي الله عنه حاكياً عن الشيخ سيدى عبد القادر رضي الله عنه: أخرج حبَّ الدنيا من قلبك، واجعلها في يدك، فإنها لا تضرَّك. وقال الشيخ أبو مدين رضي الله عنه: الدنيا جراده، إذا قُطع رأسها، حلَّت ورأسها: حبُّها.

تنبيه...

قال الشيخ سيدى عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه: تأمل... لما كان الصحابة رضي الله عنهم أكثرَ الناس محبةً لله، ولرسوله ﷺ كيف كان أكثرهم يبيت، ويصبح، وليس عنده دينار، ولا درهم، ولا طعام، ودعا بذلك ﷺ لأهل بيته فقال: "اللَّهُمَّ اجعل رزق آل محمد قوتاً" (٢).

(١) الحديث رواه الترمذى والحاكم والبيهقى.

(٢) رواه الإمام مسلم والترمذى وابن ماجه.

وذلك ليكون العبد مجموعاً على ربّه، لا يشغله عنه شيء.

وقال وهب بن منبه رضى الله عنه: التقى ملكان فى السماء الرابعة، : فقال أحدهما للآخر: من أين أقبلت؟ قال: أمرتُ بسوق حوتٍ فى البحر، إلى فلان اليهودى ليأكله.

ثم قال له هو: من أين جئت؟ فقال: أمرتُ أن أريق زيتاً اشتهاه العابد فلان لئلا يأكله، فينقصُ حظُّه من الآخرة.

ومرَّ رجلٌ بعامر بن قيس رضى الله عنه وهو يأكل بقلًا، وملحًا، : فقال له: يا عامر... رضيت من الدنيا بهذا؟

فقال: نعم، : ولكن... أدلُّكَ على من رضى بأقلِّ من هذا!! فقال: نعم... قال له: من رضى بالدنيا عن الآخرة، انتهى.

ثم إن الزاهدين رضى الله عنهم ما زهدوا فيها رغبة فى نيل خير الآخرة، وإنَّما زهدوا فيها لبُغضها عند الله تعالى، وإلا... لكان زهدهم معلولاً.

ومن تمسَّكَ بالورع، وصل مقام الزهد، لأنَّ الورع يكون عن الحرام، والزهد: فى الحلال والحرام.

قال عبدالله بن عمر رضى الله عنه: لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا، وصمتم حتى تكونوا كالأوتار، ما تقبل الله منكم إلا بورع حازر.

وقالت عائشة رضى الله عنها: إنكم لتغفلون عن الورع، وهو أفضل العبادات.

وقال الفضيل بن عياض رضى الله عنه: من لم يصحبه الورع فى فقره، أكل الحرام وهو لا يشعر.

وقال بعض العارفين رضى الله عنهم: لو يعلم أكلُ الحرام ما يحدث فى قلبه من الظلمة، والقساوة، وفتور الجوارح، لطوى الأيام، والليالى، حتى يجد الحلال.

العمل الصالح ينشأ عن أكل الطيبات: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(١)، والخطابُ للرسول، خطابٌ للأمة.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾^(٢).

وروى: من أكل الحلال أطاع الله حبَّ أم كرهه، ومن أكل الحرام، عصى الله حبَّ أم كرهه.

وقال الشيخ ابن أبى زيد رضى الله عنه: فلا يحل لك أن تأكل إلا طيباً، ولا تلبس إلا طيباً، ولا تركب إلا طيباً، وتستعمل سائر ما تنتفع به طيباً.

ومن وراء ذلك مشبهاتٌ، من تركها سلم، ومن أخذها كان كالراتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وقيل: إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام فى بعض مناجاته: يا موسى... إن أردت أن تدعو فصنْ بطنك عن الحرام، وقل: يا ذا المنِّ القديم، ويا ذا الفضل العظيم، والرحمة الواسعة.

وقال بعضهم: عجبتُ ممن يترك الحلال مخافة الداء...! كيف لا يترك الحرام مخافة النار؟!

(١) سورة المؤمنون - الآية رقم ٥١.

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٦٨.

وقال سيدى إبراهيم الدسوقي رضى الله عنه : ما دام لسانك يذوق الحرام، فلا تطمع أن تذوق شيئاً من الحِكم والمعارف.

وقال رضى الله عنه : أكل الحرام يوقف العمل، : ويوهنُ الدين، ومعاشرة أهل الأذناس : تورث الظلمة للبصر، والبصيرة.

وعن الشيخ أبى المحاسن رضى الله عنه أنه قال : والله، العروق التى شربت ماء الحرام، لا أطاعت الله تعالى فقليل له : يا سيدى . . . أما تكفره التوبة؟

فقال رضى الله عنه : ربما لا يهتدى إليها، فإنَّ أكل الحرام، إذا تشوفت نفسه للخير، يصده عدم التوفيق، وهو العجز، : والكسل الذى يتعوذ منه.

وقال سيدى أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ليس العجب ممن تاه فى نصف ميلٍ أربعين سنة، إنّما العجب ممن تاه فى مقدار شبرِ الستين، والسبعين سنة، وهى البطن. والله المستعان.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

obeikandi.com

الباب الثاني عشر
فى
بعض سيرة النبى
وذكر نبذة من فضائله

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الثانى عشر

فى بعض سيرة النبى وشماله، وذكر نبذة من فضائله

لا خفاء على من أكرمه الله تعالى بالإيمان، أن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ سيد الوجود، وسره فى جميع العوالم موجود، وأن الله سبحانه اختاره من جميع الأنام.

وقربه قرب المبرّة والإكرام، وأرسله رحمة للعباد، ودليلاً لهم إلى سبيل الرشاد، وأمرنا باتباع سنته الطاهرة، واقتفاء سيرته الباهرة.

فقد روى أنه قال ﷺ: "إن الله سبحانه اختار من خلقه بنى آدم، واختار من بنى آدم العرب، واختار من العرب قريشاً، واختار من قريش بنى هاشم، واختارنى من بنى هاشم، فلم أزل خياراً من خيار"^(١)، انتهى بالمعنى، وفى رواية: (إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم)^(٢)، وإلى هذا المعنى أشار عمه العباس رضى الله عنه بقوله فيه ﷺ:

مستودع حيث يخصف الورق	من قبلها فى الظلال وفى
أنت ولا مضغة، ولا علق	ثم هبطت البلاد لا بشر
ألجم نَسْراً وأهله الغرق	بل نطفة تركب السفين وقد
إذا مضى علم، بدا طبق	تنقل من طالب إلى رحم

(١) رواه الحاكم فى المستدرک.

(٢) رواه الترمذی.

وقال ﷺ: "أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يَبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبَعَثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأَحَلْتُ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتَهُ الصَّلَاةُ، فَلْيَصِلْ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ" (١).

وقال ﷺ: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرٌ" (٢).

وأول ما خلق الله تعالى، نوره ﷺ، ومن نوره خلق كل شيء، آدم ومطن بعده، والعرش وما حوى، كما قيل على لسانه ﷺ كثيراً.

وَأِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ابْنُ آدَمَ صُورَةً فَلِي فِيهِ مَعْنَى شَاهِدٌ بِأُبُوتِي

فكان ﷺ هو ابن آدم من حيث النسبة الطينية، وأبوه من حيث النشأة النورانية.

قال ﷺ: "كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ"، وفي رواية "بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ" (٣).

وقال ﷺ: "أَنَا يَعْسُوبُ الْأَرْوَاحِ" (٤)، وما أرسل الله سبحانه رسولا ولا نبيا إلا أخذ عليه الميثاق ليؤمنن به ولينصرنه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ (٥).

(١) رواه الشيخان والنسائي.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) سورة آل عمران - الآية رقم ٨١.

وَكُلُّ مَا افْتَرَقَ فِيهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالْمُعْجَزَاتِ، اجْتَمَعَ لَهُ ﷺ:

وَكُلَّ آيٍ أَتَى الرُّسُلُ الْكَرَامُ بِهَا فَإِنَّمَا اتَّصَلَتْ مِنْ نُورِهِ بِهِمْ
وَلَأَجَلُهُ ﷺ أَوْجَدَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ جَمِيعَ الْمَوْجُودَاتِ ^(١)، وَأَضَاءَ كُلَّ شَيْءٍ
يَوْمَ وَلادَتْهُ ﷺ حَتَّى تَرَأَتْ قُصُورَ بَصْرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، وَأَظْلَمَ يَوْمَ مَوْتِهِ
ﷺ كُلَّ شَيْءٍ.

وَاسْتَهْلَ ﷺ شَاخِصًا بِبَصَرِهِ، رَافِعًا رَأْسَهُ حِينَ لَا تُقَلُّ رَقَبَةٌ رَأْسًا،
وَحَرَسَتْ السَّمَاءُ مِنْكَ اسْتِرَاقَ السَّمْعِ:

وَتَدَلَّتْ زَهْرَ النُّجُومِ إِلَيْهِ فَأَضَاءَتْ بِضَوِّهَا الْأَرْجَاءَ
وَسَقَطَتْ بِبَرَكَتِهِ ﷺ أَصْنَامُ الْكَعْبَةِ، وَغَاضَتْ بِحِيرَةَ سَاوَى، وَانْقَطَعَ نَهْرُ
السَّمَاءِ، وَخَمَدَتْ نَارُ فَارَسَ، وَتَدَعَدَعَ إِيوَانُ كَسْرَى، وَسَقَطَتْ مِنْ شَرَفَاتِهِ،
أَرْبَعُ عَشْرَةَ، بِقَدَرِ مَا مَلَكَ ﷺ مِنْ مَلُوكِهِمْ، وَوَقَعَ التَّاجُ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ.

وَاخْتَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بِكَرَمِ نَسَبِهِ، وَشَفِّ مَجْدِهِ، وَجَمَالَ ذَاتِهِ، وَحَسَنِ
صِفَاتِهِ، وَنَظَافَةِ جِسْمِهِ، وَطِيبِ رِيحِهِ، وَعِرْقِهِ، وَسَهُولَةِ خَلْقِهِ، وَكَمَالِ
خَلْقِهِ، وَمَلَاخَةِ شَمَائِلِهِ، وَاعْتِدَالِ حَرَكَاتِهِ، وَسُكْنَاتِهِ، وَقُوَّةِ حَوَاسِهِ،
وَشَجَاعَتِهِ، وَفَصَاحَةِ لِسَانِهِ، وَوُفُورِ عَقْلِهِ، وَحُلَاوَةِ مَنْطِقِهِ، وَنَفُوذِ فَهْمِهِ.

وَبَدِيعِ سِيرَتِهِ، وَكَثْرَةِ حَيَاتِهِ، وَرَأْفَتِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَعَدْلِهِ، وَحِلْمِهِ،
وَاحْتِمَالِهِ، وَعَفْوِهِ، وَصَبْرِهِ، وَكِرَمِهِ، وَإِحْسَانِهِ، وَجُودِهِ، وَفَضْلِهِ وَعِلْمِهِ،
وَنُبُوءَتِهِ، وَرِسَالَتِهِ، وَأَمَانَتِهِ، وَاصْطِفَائِهِ، وَاجْتِبَائِهِ، وَتَفْضِيلِهِ، وَتَشْرِيفِهِ.

وَتَعْظِيمِهِ، وَتَوْقِيرِهِ، وَالشَّفَقَةَ عَلَيْهِ، وَمَحَبَّتِهِ، وَخُلَّتِهِ، وَقُرْبِهِ، وَرُؤْيَيْتِهِ،
وَمُبَرَّتِهِ، وَرِضَاهُ عَنْهُ، وَشَرْحَ صَدْرِهِ، وَوَضْعَ وَزَرِهِ، وَرَفَعَ ذِكْرَهُ، وَإِجْلَالَ
أَمْرِهِ، وَإِبَانَةَ مَزِيَّتِهِ، وَإِظْهَارَ خَصَائِصِهِ، وَتَنْوِيهَهُ بِهِ، وَلِزُومَ مَحَبَّتِهِ.

(١) لَيْسَ هُنَاكَ دَلِيلٌ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ عَلَى ذَلِكَ.

ووجوب طاعته وإتباع طريقته، والصلاة والتسليم عليه، : وثنائه عليه، وإشراق أنواره، وإظهار أسرارهِ، ومزيته العظمى، ومكانته العليا، والشفاعة الكبرى، والوحي، والوحي، والإسراء، وتزكية قلبه، ولسانه، وبصره، وسائر جوارحه.

فى حكاية الإسراء، بقوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿٢﴾﴾، وقوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿٣﴾﴾، وأخذهُ تعالى الميثاق على النبيين قبله بالإيمان به، ونصره، : وإجابة دعوته.

وما أظهره على يده الكريمة من إبراء المرضى، وإحياء الموتى (٤)، وإسماع الصم، وتكليم الحيوان، والجمادات، وظل الغمام، وتكثير الماء والطعام، وخوارق العادات، وخطاب العجم على اختلاف لغاتهم، وما آتاه من الوسيلة، والفضيلة، والدرجة الرفيعة، والمقام المحمود، واللواء المعقود، والحوض المورد، والوفاء بالعهود، وسيادة ولد آدم، وركوب البراق.

واختراق السبع الطباق، والمعراج، وتلقى الملائكة، : والأنبياء، بالترحيب والإكرام، والإجلال، والإعظام، : ونصره بالملائكة، وبالصبا، والرعب فى قلوب أعدائه، وحفظه من الآفات، وعصمته من الناس، وتزكية أمته، ورفع العذاب عنها بسببه. . إلى غير ذلك مما لا يحصره لسان، ولا يفهمه إنسان.

ولا يعبر عنه مقول، ولا تحتمله العقول، مما أكرمه تعالى به من كمال

(١) سورة النجم - الآيتان ٢ - ٣.

(٢) سورة النجم - الآية رقم ١١.

(٣) سورة النجم - الآية رقم ١٧.

(٤) إحياء الموتى كانت من معجزات المسيح عليه السلام.

الصفات، وصفات الكمال، وخصال الخيرات، جمعها فيه، وجبله عليها مما لو حصلت واحدة منها لواحد من الناس، لشرف بها، وعظم قدره عند الناس، وأقبلوا عليه بالمدح، والثناء، والإجلال، والتعظيم، والتوقير، والاحترام، والمحبة، والإكرام.

وصار علماً من جملة الأعلام، تضرب به الأمثال، وتشدُّ إليه الرِّحال، كالفقهاء السبعة^(١)، والزُّهَّاد الثمانية^(٢)، وأئمة المذاهب الأربعة^(٣)، والأحنف بن قيس في الحلم، وعبدالله بن جعفر في الكرم، وعمر بن عبد العزيز في العدل، وعمر بن العاص في العقل، وإياس بن معاوية في الذكاء، . . . وغيرهم ممن اشتهر فضله، وانتشر صيته بمزية واحد، فما ظنُّك بمن اجتمعت فيه الأوصاف الحميدة، والكمالات المجيدة.

فهو عنصرٌ ينابيعها، والمتَّصفٌ بجميعها، وهو قطب مدارها، وعلم منارها:

كما قيل:

لَهُ جَمَعَ اللَّهُ الْمَحَاسِنَ كُلَّهَا وَمَا جُمِعَتْ إِلَّا إِلَيْهِ الْمَحَاسِنُ
[من البحر الطويل]

(١) الفقهاء السبعة هم: عمر وابنه عبد الله وعلى بن أبي طالب وعائشة وابن مسعود وابن عباس وزيد بن ثابت.

(٢) الزهاد ثمانية هم: عامر بن عبد الله بن عبد قيس، وهرم بن حيان، والربيع بن خثيم، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وأبو مسلم الخولاني، والحسن بن أبي الحسن الصري وثامنهم أويس بن امر بن جزء القرني (ذكرهم في الحلية ٢/ ٨٧).

(٣) وهم الإمام مالك بن أنس، والشافعي، وأبو حنيفة، وأحمد بن حنبل رضى الله عن الجميع.

وشقَّ له أسماء من أسمائه، وقرن ذكره بذكره، وطاعته بطاعته، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وأرسله تعالى إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً، وأقسم به، وبحياته، وصلى عليه هو، وملائكته، وأمر المؤمنين بالصلاة، والتسليم عليه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾^(٣) . . . الآية.

وعرج به إلى مستوى سمع فيه صرير الأقدام، وتلقَّته الملائكة بالترحيب، والإكرام، وقال جبريل عليه السلام: ها أنت وربُّك، ثم دنا، فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى^(٤)، وأراه الجنة والنار.

ورأى من آيات ربه الكبرى، وأكرمه بالرؤية، والكلام، والإمامة بالأنبياء والمرسلين، فى ذلك المقام، وأرسله بالهدى، ودين الحقن فبلغ، وحذر، وبشر، وأنذر، وانفلقت منه الأنوار، وتفجرت العلوم والأسرار، ومنه استمد الأنبياء، والمرسلون، والخلائق أجمعون:

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ مُلْتَمِسٌ غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيمِ
وفتح الله به قلوباً غلفاً، وآذاناً صمّاً، وعيوناً عمياً.

قام فى أعدائه من صناديد قريش، يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وترك ما كان يعبد آباؤهم من قبل، وسبَّ آلهتهم، وسفه أعلامهم، وغشيهم فى منازلهم بما يكرهون من ذلك.

(١) سورة التوبة - الآية رقم ٦٢.

(٢) سورة الأنفال - الآية رقم ١.

(٣) سورة الأحزاب - الآية رقم ٥٦.

(٤) إشارة إلى الآيات ٨ - ١٠ من سورة النجم.

مع ذلك عصمه الله تعالى منهم فى غير ما موطن، بعد أن تألبوا عليه،
جمعوا الجموع، نصبوا الحبائل، مكروا به، بذلوا مجهودهم.

وهم من هم فى النجدة، والقوة، وشدة البأس، وجمع الكلمة على
عداوته، وما اعتادوه فى أنفسهم من الظهور على غيرهم فى الحرب، والظفر
بمرادهم، وقهر عدوهم.

فلم يقدروا بشيء عليه، ولا وصلوا بما يشفى صدورهم من الإذية
إليه، وانقلبوا خائبين. قال الله العظيم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ
يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ
كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٢)، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (٣).

وكان ﷺ قائلاً يوماً تحت شجرة، فأتاه غورث بن الحارث الغطفانى.
وعلاه بالسيف على غرة، وقال له: من يمنعك منى؟ فقال له: الله، فسقط
السيف من يده، فأخذه النبى ﷺ وقال له: من يمنعك منى؟
فقال له: كن خير آخذ... فعفا عنه!!، وأتى قومه، وقال لهم:
جئكم من عند خير الناس.

ووقع له ذلك مرة أخرى مع دعثور، ونجَّاه الله منه.
وَقَايَةُ اللَّهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةِ مِنَ الدُّرُوعِ، وَعَنْ عَالٍ مِنَ الْأُطْمِ

(١) سورة الأنفال - الآية رقم ٣٠.

(٢) سورة التوبة - الآية رقم ٣٢.

(٣) سورة المائدة - الآية رقم ٦٧.

واختار الله سبحانه لنبيه ﷺ أصحاباً خياراً، عدولاً أطيهاراً، : فأووه، وعزروه، ونصروه.

وقال تعالى فى حقهم رضوان الله عليهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١) وكانوا أشداء على الكفار، رحماء بينهم، وأثنى عليهم بقوله سبحانه: ﴿وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ (٢)، فى لها منك شهادة ما أكرمها، وقرية ما أعظمها.

وأيده تعالى بالمعجزات الظاهرات، والآيات الباهرات، من إعجاز فصحاء العرب، وأرباب البلاغة والشعر المشهورين فى المواسم، والمحافل بالتفاخر فى الإنشاء، والقريض.

عن الإتيان بمثل أقصر سورة فى القرآن بعد قولهم: لو نشاء لقلنا مثل هذا!.. فصرفهم الله تبارك وتعالى عن ذلك، وعجزوا، وافتضحوا فى معارضة بعض الآيات الكريمة، وذهبت قوة بلاغتهم، وصارت فصاحتهم عياء وفهاهة.

كما هو مشهور فى قول بعضهم: والزارات زرعاً، والطاحنات طحناً، : والخابزات خبزاً. وقولهم: الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل. وقولهم: يا ضفدع بنت ضفدعين..! إلى غير ذلك منك الكلام الركيك (٣). وقد حفظه الله سبحانه بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٤).

وكلماً ترددت تلاوته، زادت حلاوته كما قيل:

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ١٥٧.

(٢) سورة الفتح - الآية رقم ٢٦.

(٣) راجع فى ذلك الإسلام فى مواجهة أعدائه، والإسلام أمام افتراءات المفتريين للمستشار توفيق على وهبه - ط. دار اللواء بالرياض وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالمملكة العربية السعودية.

(٤) سورة الحجر - الآية رقم ٩.

وتكراره يزداد فيه تجملاً

ومنها: خروجه على قريش الذين تعاقدوا فى دار الندوة على قتله، ورصده ببابه ليلاً، فأخذ الله عنه أبصارهم، حتى خرج عليهم، وحثا التراب على رؤوسهم.

وقال: شأهت الوجوه... فانتبهوا، ولم يجدوه، وانقلبوا صاغرين، فقتلوا يوم بدر جميعاً، وكفاه الله المستهزئين، وهزم الجيش بقبضة من تراب، أصابهم فى عيونهم، وأكبوا على وجوههم، فقتلهم المسلمون كيف شأوا.

وأخذ الله عنه العيون فى آية الغار، وحجبه عن العدو بنسج العنكبوت، وسجع الحمام. ومسحَ ضرع عناق لم ينزُ عليها فحل، فدرت، وشرب، وسقى.

وحبس الله عنه فرس سراقه بن مالك، الذى أرسلته قريش فى طلبه، حين جعلوا الجعائل لمن يأتى به، فساخت قوائم فرسه حين أدركه ﷺ، فاستغاث به، وقال له: أكفيك ما ورائى، فنجان: وردَّ عنه الطلب فى رجعتة.

ومسحَ ضرع شاة أو معبد التى خلفها الجهد،: حين مرَّ بها فى طريق البحرة، فدرت وشرب هو ومن معه، وأهل المنزل.

وسمته يهودية فى الذراع، فأخبره بِسْمِهِ، وهو فى فيه ﷺ فلفظه بعد أن سرى فيه، فما زال به حتى أكرمه الله بالشهادة، وذلك قوله ﷺ: " ما زالت أكلةُ خيبر تُعادنى فالآن قطعت أبهرى" (١).

(١) رواه ابن السنى وأبو نعيم فى الطب عن أبى هريرة وحسنه السيوطى فى الجامع الصغير ج٢ ص١٤٦.

وعفا عنها ﷺ ولم يقتلها، حتى مات بشر بن البراء الذى أصاب معه من ذلك السم، : فقتلها به .

وشكى إليه أعرابىُّ أبا جهلٍ، فأنصفه منه على شدة عداوته، : ولم يتكلَّم بين يديه، وقيل له فى ذلك، فقال: لقد رأيت على رأسه فحلاً، لو دنوت منه لاختطفنى .

وأنته حمالةُ الخطب، حين نزلت: تَبَّ يد أبى لهب، وفى يدها فِهْرٌ وهى تقول: أين محمد؟

وتنظر إليه ولا تبصره وهو جالسٌ مع أصحابه فى المسجد، : فقالت: لو وجدته لضربت به، : فانصرفت خاسئة .

وسأل الله المطر، وهو يخطب يوم الجمعة، : وما فى السماء قزعة، فطلعت سحابةٌ فى الحين، وانهلت كأفواه القرب، فمطر الناسُ إلى الجمعة القابلة، فاستصحى وهو يخطب، فانجابت السحاب، : انجياب الثوب .

واستسقى فى جيش العسرة، فسُقُوا من حينهم .

وضرب برجله الأرض، فانفجر الماء .

ووضع سهمه فى قلبٍ غاصَ ففاض الماء من حينه .

وربىَّ تيمماً بين قومه لم يغل عنهم مدة يمكن فيها تعلم شىء من العلوم التى منه انتشرت، وبه ظهرت، وهو مدينتها، وعلى بابها^(١)، ولم تزل مستمرة فى أقطار الأرض إلى يوم القيامة .

وقال ﷺ: " لا تزال طائفةٌ من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم " (٢) .

(١) إشارة إلى حديث: " أنا مدينة العلم وعلى بابها " .

(٢) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

فأنت ترى والحمد لله فى القرن الثانى عشر بعده ﷺ وسنته ﷺ مشهورة، وألويتها منشورة، والعلم تضىء لوامعه، وتتفجر ينابيعه، وشريعته مطهرة، وأحكامه مقررة، وقلوب أمته به منورة، وآيات القرآن فى صدورهم مسطرة.

كما جاءت، بأيدي سفرة، كرام برره، وقد كانت الرسل صلوات الله عليهم إذا ماتوا عطلت شريعتهم بعدهم، لكون أهمهم لا يحملون كتبهم فى صدورهم، وقد وجد فى هذه الأمة الشريفة، والحمد لله من حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين.

وكان ﷺ أمياً لا يكتب، ولا يحسب، وقد عد بعض العلماء من أسرار عدم كتابته ﷺ أنه جاء ببيض السواد، ولا يسود البياض.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (١).

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجَزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْتَأْدِيبِ فِي الْيَتَمِ

[من البحر البسيط]

وأوتى ﷺ جوامع الكلم، وأفاد فى ثلاثة وعشرين سنة التى هى مدة رسالته ما لم يفده من قبله منك الأنبياء والمرسلين، فى المئتين منك السنين، فما تعدد، ولا تحصى فضائله.

وما خصه الله تعالى به كإحياء الموتى، وانشقاق القمر، وإجابة الشجر لدعوته، وحنين الجذع لفراقه، وشهادة الضب له، حين كذبه قومه، وتأدب الداجى بين يديه، وذهابه من المكان إذا خرج منه، وحزن العضباء عليه.

(١) سورة العنكبوت - الآية رقم ٤٨.

فلم تأكل ولم تشرب بعد موته حتى ماتت، وتسخير يعفور لدعاء الصحابة من منازلهم، وشهادة البعير للملكه، حين اتُّهم بسرقة، لما توسَّل به ﷺ ووقوف الفرس حتى فرغ من صلاته حين أمره بذلك.

وحفظ أبي هريرة الحديث بعد نسيانه، وثبوت جرير على الخيل بضربه صدره، وشكوى البعير إليه، واستباق الإبل عنده للذبح بيده الكريمة، : وكلام الوحوش، والأحجار، وتسبيح الحصى، وإشباع الألف بصاع من طعام، والجيش بحفنة من تمر.

وأهل الصفة بقدر من لبن، ومرة بقصة من طعام، تواردها الناس من الغدوة إلى الظهر، وتفله في ماء ملح فعذب من حينه، وضربه كدية الخندق بالمعول، فصارت كالكتيب الأهيل.

ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة، وسجود الغنم عند رؤيته، وتكليم العرب، والعجم على اختلاف لغاتهم، وألستهم، وفهم كلامهم، ومعرفة أحكام الأمم الماضية، وتعليم الجهال في ساعة واحدة، فقد كان الأعرابي يجلس بين يديه، قدر ما يعقل ناقته بباب المسجد، ويخرج وقد تعلَّم الدين، والأحكام، ويعلم قومه دهرًا طويلاً.

ورد الشمس بعد الغروب، وظل الغمام، والحمام، والشجر، واخضرار الأغصان اليابسة، لتقيه حرَّ الشمس، ومدَّ الظل عليه وعلى أصحابه، حين استظلُّوا تحت دوحه، والتئام النخلتين، ومرة سدرتين لتستره عند الخلاء، : وإخبار الكُهَّان والأخبار، والرهبان، بوقته، وأوصافه الكريمة.

وكلام هواتف الجان، واسماع الصمِّ، وإجابة الدعاء في مواطن كثيرة، وتأمين الجُدُّرات، وأسكفة البيت على دعائه، وردَّ عين قتادة، وإبراء الأرمَد،

والمرضى من ذوى العاهات وغيرهم، والنصر بالملائكة، وبالرُعب، وبالصَّبَا، وإطعام النخل من عامه، وإخباره بالأُمور المغيبات، والقرون الماضية كما قيل:

لَمْ تَقْتَرِنْ بِزَمَانٍ وَهِيَ تُخْبِرُنَا عَنْ الْمَعَادِ وَعَنْ عَادٍ وَعَنْ إِرَمٍ

[من البحر البسيط]

إلى غير ذلك مما أكرمه الله به، من أنه ﷺ ولد مختوناً، ولم يتشاءب قط، ولا وقع ذبابٌ، ولا قملٌ على جسده الكريم، ولا ظلٌ له لأنه نور، ولا ظلٌ للنور.

وكان يرى من خلفه، كما يرى من أمامه، : والأرض تبتلع فضلته، ولم يحتلم، ولم يتسخ، وتنام عينه، ولا ينام قلبه، وبين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبيين والمرسلين ﷺ:

إن سار في الطين لم يظهر له أثر

وإن علا الصخر عاد الصخر كالطين

وما ظهرت كرامة على يد من سائر أمته، من أول الدنيا إلى آخرها، إلا وهى معجزة له ﷺ.

وجمع الله سبحانه فيه من خصال الكمال، وكمال الخصال، ونعوت الجمال والجلال، وصفات المفاخر والكمال، والخصائص الحميدة، والمآثر العديدة، ما لا يحصى، ولا يحصر، ولا يخطر على قلب أحد من البشر، وقد تقدم بعض تواضعه ﷺ فى بابه.

وأما زهده ﷺ: فقد كان عليه الصلاة والسلام متقللاً من الدنيا، معرضاً عنها.

قال القاضي أبو الفضل عياض بن موسى رضى الله عنه لما تكلم على زهد النبي ﷺ فى الدنيا: وحسبك من تَقَلُّلٍ، وإعراضه عن زهرتها وقد سيقَت إليه بحذافيرها.

وترادفت عليه فتوحاتها أن توفى ﷺ ودرعه مرهون عند يهودى^(١)، فى نفقة عياله، وهو يدعو، ويقول: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا. وكان ﷺ يشد الحجر على بطنه من الجوع، مع أنه ﷺ أوتى مفاتيح خزائن الأرض.

وَرَاوَدَتْهُ الْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْكَ ذَهَبٍ عَنْ نَفْسِهِ فَأَرَاهَا أَيَّمَا شَمَمٍ
وكان ﷺ يلبس الخشن من الثياب، ويفرق على الناس الحلى والحُلل. وقال القاضي أبو الفضل رضى الله عنه: كان عليه السلام يلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن، والبُرْدُ الغليظ، ويقسم على من حضر أقبية الديباج المخصوصة بالذهب، ويرفع لمن لم يحضر. وورد عنه ﷺ أنه قال: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُبْتَذِلَ"^(٢)، وهو الذى لا يبالى ما لبس.

وقال ﷺ: "من ترك زينة الدنيا تواضعا لله وابتغاء مرضاته كان حقا على الله أن يلبسه من عبقرى الجنة"^(٣)، قال ذلك تزهدا لأئمة ﷺ فى زينة الدنيا، وقالت عائشة رضى الله عنها: كانت الفاقة أحب إلى رسول الله ﷺ من اليسار، والجوع أحب إليه من الشبع.

(١) لم يكن فى ذلك الوقت يهود فى المدينة. وكان فى بيت المال كثير من أموال الغنائم وله ﷺ فيها نصيب فلم يكن هناك ما يلجئه إلى ذلك.

(٢) رواه البيهقى.

(٣) لم نقف عليه.

ولو شاء ثروة لَنالها، وكان يطوى وهو يلتوى الليل كله، حتى يبكىنى حاله، فأقول له فى ذلك فيقول: هل هى إلا صبر أيام قليلة، كما صبر أولوك العزم من الرسل؟! .

وقال ﷺ: "البَذَاذَةُ مِنَ الْإِيمَانِ" (١).

ولمَّا دخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو فى خلافته بلاد الشام، نحو بيت المقدس عابت عليه أهلها البذاذة، فقال لهم: إِنَّمَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ لَا بغيره .

وكان رسول الله ﷺ يخصف نعله، ويرقع الثوب، ويأكل مع المجذوم، ويحمل شئنه من السوق إلى منزله فى يده، ويسلم مبتدئاً على من استقبله، صغيراً، أو كبيراً، أو حرّاً، أو عبداً، ولم يتخذ ثوباً لمبيته، وثوباً لخروجه .

وقال ﷺ: "أنا عبدٌ أكل على الأرض، وألبس الصوف وأعقل البعير، وألحق أصابعى، وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنّتى فليس منى" (٢).

وقال ﷺ: "من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أى حلل الإيمان شاء يلبسها" رواه الترمذى وقال: يعنى بحلل الإيمان ما يعطى أهل الإيمان من حُللِ الجنة .

وقال ﷺ: "من أراد الآخرة ترك زينة الدنيا" (٣).

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن ماجه والحاكم .

(٢) لم نقف عليه .

(٣) لم نقف عليه .

وأتى ﷺ بثوب جديد فلبسه، وإذا بالصلاة قد حضرت، فطرحه وصلى بالخلق (١).

وكان ﷺ لا يهتم بالمعيشة، ولا باللباس، ولا بشيء من الدنيا، ويحضر أصحابه على ذلك، وكان فراشه الذى ينام عليه مسحاً مرموماً بليف. قالت عائشة: رضى الله عنها كنا نثنيه ثنتين، فثيناه ليلة بأربع فنهانا.

وكان ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، فقد أعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة، وأعطى رجلاً غنماً بين جبلين.

وأعطى رجلاً من الذهب ما لم يطق حمله، ولم يدخر شيئاً لغد، وما شبع هو ولا أهله من خبز الشعير حتى لقي الله تعالى.

وكان أهل بيته ﷺ يمكثون الشهر ما يستوقدون بنار، إن هو إلا الماء والتمر.

وقالت عائشة رضى الله عنها: ما ترك رسول الله ﷺ ديناراً، ولا درهماً، ولا شاة، وبعيراً، ولقد مات وما فى بيتى شيء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير.

وقال: إني عرضت على بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب... أجوع يوماً وأشبع يوماً، فأما اليوم الذى أجوع فيه فاتضرع إليك، وأدعوك، وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك، وأثنى عليك.

وجاء جبريل عليه السلام فقال له: إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً، وتكون معك حيثما كنت؟ فأطرق ساعة.

(١) الخلق: أى القديم.

ثم قال: يا جبريل... إن الدنيا دار من لا دار له، يجمعها من لا عقل له...!، فقال له جبريل: ثبتك الله يا محمد بالقول الثابت.

وكان كثير من الصحابة رضى الله عنهم على قدمه ﷺ حتى كانوا على غاية الإقلال من الدنيا، وهم يقتحمون الأخطار، ويفتحون الأمصار، وربما كان قوتهم ورق الأشجار، حتى تقرحت أشداقهم، وإن كان أحدهم ليضع كما تضع الشاة.

ومنهم من كان قوتهم في اليوم ثمرة واحدة، وهم يقاتلون عدوهم في غاية الشدة والقوة، وينال أحدهم من العدو ما يريد، وإن كانوا أولى بأس شديد.

ومنهم من فعل في الحرب فعل جماعة، ودمر أهل الإقدام والشجاعة، مثل القعقاع بن عمرو رضى الله عنه فقد كان في غزوة القادسية، حمل ثلاثين حملة، بثلاثين قتيلاً.

وأما شجاعته ﷺ: فقد كان منها بالمحل الذي لا يُجهل.

كان ﷺ أشجع الناس، وأقوى الناس، وأنجد الناس، وأفضل الناس.

قال عبد الله بن عمر - رضى الله عنه -: ما رأيت أشجع، ولا أنجد، ولا أجود، ولا أرضى - يعنى أكثر رضى - من رسول الله ﷺ.

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - كنا إذا اشتد البأس، اتقينا برسول الله ﷺ، وكان الشجاع من الصحابة - رضى الله عنهم - هو الذى يقرب في الحرب من النبى ﷺ لقربه من العدو.

وفيهم من يُعدُّ بالألف، كالمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، والزبير بن العوام، - رضى الله عنهم -، وقد فرَّ

الكُماة، والأبطال فى الحرب، وهو - ثابتٌ لا يبرح، ومقبلٌ لا يدبر، ولا يتزحزح.

وقال أنس: كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس، وأجودَ الناس، وأشجعَ الناس، لقد فزع أهل المدينة ليلة، فانطلق ناس قبلَ الصوت، فتلقَّاهم رسول الله ﷺ راجعاً، قد سبقهم إلى الصوت، واستبدى الخبر، على فرس - لأبى طلحة - عُرِي، والسيف فى عنقه، وهو ﷺ يقول: لن تراعوا.

وقال عمران بن حصين - رضى الله عنه -: ما لقي ﷺ كتيبة إلا كان أول من يضرب.

وما أُرسلَ ﷺ إلا مشرَّعاً، وقدوة لمن كان متبعاً، ورحمة مهداة للعباد، ونعمة كاملة لأهل الوداد. قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (١).

وأما حيَّاهُ ﷺ: فقد كان أشدَّ حياءً من العذراء فى خدرها، لا يثبت بصره فى وجه أحد، كثير الصمت، والوقار، والتؤدة، والحلم، والشفقة، والعفو، والرفقة، والجلود، والصبر، والرحمة، والتواضع، أحسنَ الناس خلقاً وخلُقاً.

وأطيبهم أصلاً، وفرعاً، وأكرمهم شيمة، وطبعاً، وأصدقهم وعداً وأعظمهم مجداً، وأجلَّهم قدراً، أرفعهم فى الملائ الأعلَى ذكراً. عجزت عن وصف محاسنه ألسنُ الواصفين، وكلَّت عن رؤية ذاته الكريمة أعين الناظرين.

(١) سورة آل عمران - الآية رقم ١٦٤.

فالشمس خلقت من نوره^(١). وتكلُّ دونها الأبصار، فكيف لا تكلُّ عن رؤية منبع الأنوار، كما قال البوصيري - رضى الله عنه - :

تَعْيَا الْعُقُولَ كَلًّا عِنْدَ رُؤْيَيْهِ كَأَنَّمَا نَظَرْتُ لِلشَّمْسِ مِنْ أُمِّ
[من البحر البسيط]

وقال :

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِي الدُّنْيَا حَقِيقَتَهُ قَوْمٌ نِيَامُ تَسْلُوا عَنْهُ بِالْحُلُمِ
[من البحر البسيط]

وقال عليه السلام لأبي بكر الصديق - رضى الله عنه - : «يا أبا بكر لم يعلمنى حقيقة غير ربى»^(٢).

وقال أويس القرنى لعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب - رضى الله عنهم - : والله... يا أصحاب رسول الله ما رأيتم منه إلا ظله.

قال : ولا ابن أبى قحافة؟ قال : ولا ابن أبى قحافة. ولذلك قيل .

نَبِينًا بَشَرٌ وَلَيْسَ كَالْبَشَرِ وَلَكِنْ، كَمَا مَثَلُوا الْيَاقُوتَ بِالْحَجَرِ
وقيل :

فَمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ
وما ظهرت منه الأوصاف البشرية، إلا تشريعاً لأئمة عليهم السلام كما قال له عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : والله... يا رسول الله، ما أكلت، ولا شربت، ولا تزوجت إلا لنا.

(١) لا دليل على ذلك من كتاب أو سنة.

(٢) لم نقف عليه.

وقال ﷺ: «لست أنسى وإنما أنسى لأُشرع»^(١).

وقد آمن الله تعالى به أمته من العذاب، فقال - تعالى - : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾^(٢).

وقال - تعالى - : ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾^(٣). وحاشاه أن يرضى
وفينا معذبٌ. وهو المخصوص بالشفاعة العظمى. قال ﷺ: «أشفع لأمتي
حتى يُناديني ربِّي: أَرْضَيْتَ يَا مُحَمَّدٌ؟ فَأَقُولُ: نَعَمْ... رَضِيتُ»^(٤).
وما نالت أحداً رحمةً فيما مضى، ولا تناله فيما يأتي من خير الدنيا،
والآخرة، إلا على يده ﷺ، وهو:

وَأَسِطَةُ فِيهَا، وَأَصْلُ لَهَا يَعْلَمُ هَذَا كُلُّ مَنْ يَعْقِلُ

ولا شيء إلا وهو به منوط، وهو روح الأرواح وسرُّ الأشباح، مدده
فيها مستمر، والكون به ثابت ومستقر، سرُّه سار في كل موجود، باق ببقاء
الوجود، كما قال في روضة المحاسن، فعنه ﷺ امتدَّ الوجود كُلُّه، كما
امتدت الشجرة عن البذرة^(٥).

حتى كملت الموجودات الكليات، ثم خُلِقَ آدم - عليه السلام - وولده،
والنور يمدُّ الكلَّ من الأصل الذي هو الروح الأعظم.

وقال فيها - رضى الله عنه - : قال الشيخ أبو الحسن على بن وفا -
رضى الله عنه - فى صلاته: وسِرُّكَ المنزَّه السارى فى جزئيات المعالم،

(١) لم نقف عليه.

(٢) سورة الأنفال - الآية رقم ٣٣.

(٣) سورة الضحى - الآية رقم ٥.

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) هذه الأقوال لا دليل عليها من كتاب أو سنة.

وكلياته، علوياته، وسفلياته، جوهر، وعرض، ووسائط، ومركبات،
وبسائط.

إلى أن قال: وأرى سريان سرّه في الأكوان، ومعناه المشرق في مجاله
الحسان، انتهى.

وافهم قوله - تعالى - : ﴿وَعَلَّمُوا أَنْ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ (١).

وكان ﷺ أرحم الناس، وأرف الناس، وأحلم الناس، وأولى بالمؤمن
من نفسه، كما قال - تعالى - : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ (٢).

سئل بعض العارفين - رضى الله عنهم - عن هذه الآية، فقال: لأنه
ﷺ أحيّاها بالإيمان بعد أن كانت ميتة بالكفر، ومن أحيّا أرضاً ميتة فهو أحق
بها.

وقال - تعالى - : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ
عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣).

فكان ﷺ يحمل الكل، ويكسب المعدوم، ويعين على نوائب الخير،
ويصبر للغريب على الجفوة، من سألته حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من
القول، قد وسّع الناس بسطه، وخلّقه.

فكان لهم أباً، وكانوا له بنين، من رآه بديهة هابّة، ومن خالطه معرفة
أحبّه، يعفو، ويصفح، ولا ينتصر لنفسه، ولا يغضب إلا لله.

ففي التوراة: يا أيها النّبي إنّنا أرسلناك شاهداً، ومبشّراً، ونذيراً، وحزراً

(١) سورة الحجرات - الآية رقم ٧.

(٢) سورة الأحزاب - الآية رقم ٦.

(٣) سورة التوبة - الآية رقم ١٢٨.

لِلْأَمِينِ، أَنْتَ عَبْدِي، وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، لَسْتُ بِفَقْظٍ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَحَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا تَجْزَى بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ.

ولكن... تعفو، وتصفح، ولن يقبضك الله، حتى يقيم بك الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله، تفتح بها قلوبًا غلفا، وعيونًا عميا.

ولما وقع يوم أحدٍ ما وقع، من امتحان الله تعالى عباده المؤمنين، وشقَّ على أصحابه ما كان من شجٍّ وجهه الكريم، وكسر رباعيته، وقالوا له: لو دعوت عليهم...

فقال ﷺ: إني لم أبعث لَعْنًا^(١)، ولكنني بعثت داعيًا إلى الله ورحمته، اللهم... أغفر لقومي، واهدِ قومي - شك الراوي - فإنهم لا يعلمون.

قال القاضي أبو الفضل^(٢) - رضى الله عنه - : انظر ما فى هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر، والحلم، إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم.

حتى عفا، ثم أشفق عليهم، ورحمهم، ودعا، وشفع لهم فقال: اللهم... اغفر، ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة بقوله: لقومى، ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال فإنهم لا يعلمون.

ولم يؤاخذ لبيدًا الذي سحره، وكان أبعد الناس غضبًا، وأسرعهم رضى، وما انتصر لنفسه.

إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتصر الله، لا لنفسه، وما ضرب خادمًا، ولا امرأة، ولا أحدًا، إلى أن يجاهد.

(۱) رواه البخاری فی الأدب و مسلم فی صحیحہ .

(٢) القاضي أبو الفضل هو القاضي عياض بن موسى اليحصبي.

ولقى ﷺ ما لقي من أذى الجاهلية، ومقاساة الكفار يوم الفتح، ومصابرة الشدائد الصعبة، حتى أظهره الله عليهم، وحكّمه فيهم، وهم لا يشكّون في استئصال شأفتهم، وإبادة خضرائهم.

لما كانوا عليه من إظهار العداوة، والمبالغة في الإذاية، فما زاد على أن عفا، وصفح، وقال لهم: ما تقولون إنى فاعل بكم؟

فقال خيراً... أخ كريم، وابن أخ كريم، وما صدر منهم هذا الجواب إلا للرحمة التي واجهتهم، من كريم ذلك الخطاب، مع ما كانوا يتحققون فيه من الحلم، والاحتمال، وكرم الطبع، وشريف الخصال، وصدّهم ما صدّهم عنه من العزّة، والإبابة.

حتى أدركتهم من الله العناية، وصفح عما قدموه من جناية، فقال لهم ﷺ أقول ما قال أخى يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.....

وقال لأبى سفيان بن حرب حين ساقه إليه عمه العباس - رضى الله عنه - بعد أن جلب إليه الأحزاب، وقُتل عمّه حمزة بن عبد المطلب، ومثّل بأصحابه، فعفا عنه، ولاطفه فى القول، وقال له: ويحك يا أبا سفيان.

ألم يأن لك أن تشهد أن لا إله إلا الله...؟ فقال بأبى أنت وأمى... ما أحلمك...! وأوصلك!، وأكرمك!، ورحم الله القائل:

الْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا عِزٌّ مَنْ عَقِدَتْ لَهُ النَّبُوءَةُ فَوْقَ الْعَرْشِ فِي الْأَزَلِ

[من البحر البسيط]

وكان ﷺ على جلاله منصبه، وعظيم مكانته، لكمال معرفته بالله - عزّ وجلّ - شديد الخوف من ربّه - تعالى -، كثير الحزن، ليست له راحة.

قال بعض الصحابة - رضى الله عنهم - : أتيت رسول الله ﷺ وهو يلى ، ولجوفه الكريم ، أزيزٌ كأزيز المرجل .

وقال ﷺ : «لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ، لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ»^(١).

وقال ﷺ : «إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»^(٢) ، قال هذا وهو ﷺ معصوم من الذنب ، قبل النبوة ، وبعدها ، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه ، وما تأخر على تقدير لو كان ذنب .

وأستأذنه مَلَكُ الموت عند قبض روحه الطاهرة ، ونقله الله من دار الفناء إلى دار البقاء ، لما أعدَّ له من جزيل الإنعام ، وعظيم الإكرام ، فهو أول من تنشقُّ عنه الأرض .

وأول من يدخل الجنة ، وأول شافع ، وأول مشفع ، وهو المخصوص باللواء المعقود ، والمقام المحمود ، والحوض المورود ، وإليه يلجأ الخلائق يوم القيامة ، وله الفردوس الأعلى ، فى دار السلامة ، فصلَّى الله وسلم على هذا النبى الكريم ، الرسول العظيم ، نخبة ولد آدم وسيد من تأخر زمانه ، أو تقادم .

الذى بعثه الله دليلا عليه ، وعرف الخلق الطريق إليه ، وردَّهم إلى بابه الكريم ، ونهج بهم الطريق المستقيم ، فدلَّهم على الله ، بأقواله ، وأفعاله .

(١) رواه الطبرانى والبيهقى والحاكم عن أبى الدرداء بلفظ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ، ولخرجتم إلى السعدات تجأرون إلى الله تعالى لا تدرون تنجون أو لا تنجون) وصححه السيوطى . راجع الجامع الصغير للسيوطى ج ٢ ص ١٣٠ .

(٢) رواه مسلم فى صحيحه والإمام أحمد فى مسنده وأبو داود والنسائى .

وأيقظ الأرواح إلى مشاهدة جلاله وجماله، حقيقاً لمن جعله الله من أمته أن يشكره على عظيم منته، ودوام نعمته. ورحم الله القائل (١):

بُشِّرْ لَنَا مَعَشَرَ الْإِسْلَامِ إِنَّ لَنَا مِنْ الْعِنَايَةِ رُكْنًا غَيْرَ مِنْهُمْ
لَمَّا دَعَا اللَّهُ دَاعِينَ لِبَطَاعَتِهِ بِأَكْرَمِ الرُّسُلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ
[من البحر البسيط]

فيا سعادة من أكرمه الله بمحبته، واتباع سنته. كما قيل (٢):
وَإِذَا سَخَّرَ إِلَهُ أَنْسًا لَسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سَعْدَاءُ
فَمَحَبَّةُ ﷺ أَهْلٌ لِأَن يُحَبَّ، وَيُذَكَّرُ، وَيُتَّبَعُ، وَيُنَصَّرُ، وَيُعْظَمُ، وَيُجَلَّ،
وبطريقة يؤخذ ويعمل، ويرغب في الدخول في حزيه، والإيواء إلى كنفه
وقربه، وتبذل في محبته المهج، والأولاد، وتهجر لوصاله الأموال والبلاد.
كما قيل:

وَحُسْبَى مِنْ جَاهٍ وَعِزٌّ وَرَفْعَةٌ وَدُنْيَا وَعَلِيَا أَنْ نَمُرَّ بِيَالِهِ
[من البحر الطويل]

وحسب الطامع في محبته ﷺ اتباع سنته، واحترام عترت:
قِفْ لَنَا فِي الطَّرِيقِ إِنْ لَمْ تَزُرْنَا وَقِفْ فِي الطَّرِيقِ نَصْفَ الزِّيَارَةِ
[من البحر الخفيف]

اللهم... يا من من علينا بهذا النبي الكريم، ووفقنا لذكر بعض مآثره
العظيمة، على طريق التبرك، والتعظيم، ولولا الوارد ما كان:

(١) وهو: الإمام البوصيري ناظم البردة الشريفة.

(٢) وهذا أيضاً للإمام البوصيري.

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلٌ

[من البحر الوافر]

لك الحمد كما ينبغي لجلالك، ولا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

نسألك اللهم.. أن تصلي وتسلم عليه وعلى جميع مَنْ له من الصحب والآل صلاة وسلاماً تامين، دائمين، ما دامت الأيام والليال.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فصل

في فضل الصلاة عليه ﷺ

ومن عظيم قدره عند الله - تعالى - وجلالة خطره، وعلو مكانته، أن صلى عليه هو وملائكته، وأمر عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه، وأن المصلي عليه تستغفر له الملائكة، ويكون له نورٌ على الصراط.

ومن صلى عليه مرة واحدة، صلى الله عليه بها عشرا، ومن صلى عليه عشراً، صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليه مائة صلى الله عليه ألفاً، ومن صلى عليه ألفاً، حرم الله جسده على النار، وأدخله الجنة، وثبته بالقول الثابت، وعند المسألة.

وجاءت صلاته عليه له نور يضيئ على الصراط مسيرة خمسمائة عام، وبنى الله له بكل صلاة صلاها عليه قصرًا في الجنة، وفي رواية أخرى: (زَاحَمَ كَتِفُهُ كَتِفِي عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ).

وفي رواية: من صلى عليه مرة واحدة صلى الله عليه عشر مرات، ورفع له عشر درجات، ومن صلى عليه عشر مرات صلى الله عليه مائة، ورفع له مائة درجة.

فإن زاد فبحساب ذلك، ومن صلى عليه في كتاب لم تزل الملائكة تصلى عليه مادام اسم النبي ﷺ في ذلك الكتاب.

فما ظنك بمن يصلّي عليه المولى - جلّ جلاله - وتصلّي عليه الملائكة، وهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

ومن فضائل الصلاة عليه أنها تنفي الهموم، والغموم، والكروب، وتكثر الأرزاق، وتقضى الحوائج، وأن من صلى عليه فى يوم مائة مرة قضى الله له مائة حاجة، سبعين منها لآخرته، وثلاثين منها لدنياه.

وقال رجل للنبي ﷺ: (إن أذنت لى جعلت صلاتى كلها صلاةً عليك. قال: إذا يكفيك الله ما أهمك من أمر دنياك وآخرتك).

وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَىَّ فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يُبَشَّرَ بِالْجَنَّةِ».

وحكى عن مقاتل أنه قال: إن لله تعالى ملكاً تحت العرش قد أحاط به، وعلى رأسه ذؤابة، ما من شعرة فيها إلا وعليها مكتوب: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فإذا صلى على النبي ﷺ ما بقيت شعرة من تلك الذؤابة إلا استغفرت لقاءها.

وروى أن رجلاً كان فى بنى إسرائيل مسرفاً على نفسه، فلما مات رموه، فأوحى الله - تعالى - إلى نبيهم عليه السلام أن أغسله، وصل عليه، فإنى قد غفرت له!!

فقال: يا رب.. وبم ذلك؟ قال: فتح يوماً التوراة، فوجد فيها اسم أحمد فضلى عليه فغفرت له ذنوبه.

ومنها: أن الله يصلى على من صلى عليه، ومن صلى عليه الله - تعالى - فقد رحمه، ومن رحمه فلا يعذبه.

ومنها غفران الذنوب أنها تقوم مقام الصدقة للفقراء، فقد روى أنه ﷺ قال: «أَيُّمَا مُسْلِمٍ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ صَدَقَةٌ فَلْيَقْلُ فِي دَعَائِهِ: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ وَصَلِّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، فَإِنَّهَا زَكَاةُ الْفَقِيرِ».

وفائدة صلاتنا عليه عائدة علينا لا عليه ، لأنه ﷺ أجلُّ من ذلك .

قال سيدى عبد الوهاب السيارى : لا تجعل لصلاتك فى قلبك مقداراً ،
تظن أنك تقضى من حقه ﷺ شيئاً بصلواتك عليه فإنك إنما تقضى بها حق
نفسك .

إذ حقه ﷺ أجلُّ ، وأعظم من أن تقضيه أمته أجمع ، إذ هو فى صلوات
الله تبارك وتعالى ، فصلاتك عليه إنما هى استجلاب رحمته على نفسك بها :
ورحم الله القائل :

إِذَا نَحْنُ أَهْدِينَا إِلَيْكَ فَإِنَّمَا بِفَضْلِكَ نُهْدِي بِلِجُودِكَ نَهْدِي
وَمَا عِنْدَنَا إِلَّا عَطَايَاكَ فَالَّذِي يُؤَافِيكَ مِنْهَا بَعْضُ مَالِكَ مِنْ يَدِ
[من البحر الطويل]

وفى الحديث : «صَلَاتُكُمْ عَلَى زَكَاةٍ لَكُمْ» .

ومنها : أنها تنفى الفقر ، وضيق المعاش ، لقوله ﷺ لرجل شكاه إليه
ذلك : إذا دخلت منزلك فسلم إن كان فيه أحد .

وإن لم يكن فيه أحدٌ فصلِّ ، وسلم ، علىِّ واقرأ : قل هو الله أحد ، مرةً
واحدة ، ففعل الرجل ، فأدر الله عليه الرزق حتى أفاض على قرابته وجيرانه .

ومنها : أنها سبب البركة ، ونيل المراد ، ورحمة الله تعالى ، فلا بدُّ
للمصلِّ عليه من رحمة تناله ، ومنها : أنها توجب الأمان من سخط الله
تعالى .

ومنها : أنها سبب لهداية العبد وحياة قلبه ، وأنها تزين المجالس ،
وتوجب محبة النبي ﷺ وتنفع المصلِّ ، وذريته ، وأنها أفضل من عتق

الرقاب، وهى أمحق للذنوب من الماء البارد للنار، والسلام عليه أفضل من عتق الرقاب.

وروى: أن عشر صلوات مثل عتق رقبة، وفى كل ذلك أحاديث مشهورة، وأخبار مأثورة، دالة على اختصاصه بالمزية العظمى، والمقام الأعظم الأسمى.

فقد قال العلماء: - رضى الله عنهم -: كل الأعمال فيها المقبول، والمردود، إلا الصلاة على النبى ﷺ، فإنها مقبولة غير مردودة. وإن الدعاء بين الصلاتين عليه ﷺ لا يُردُّ.

ومن صلى عليه ﷺ خمسمائة مرة كل يوم، لم يفتقر أبداً، مَنْ فَعَلَ ذلك، ولم يستغن، دلَّ ذلك على خبث فى سريرته، ونقصان فى نيته، ومن لم يستغن بالمال، استغنى بالقناعة لأنها غنى، وكنز لا ينفد، وهى أفضل من المال، وقيل هى الحياة الطيبة.

ومنها: أنها كانت مهر آدم لحواء عليهما السلام، بإذن من الله -تعالى-.

ومنها: أن أعرابياً وفد على النبى ﷺ وعقل ناقته بباب المسجد، فشهدت جماعة بأن الناقة مسروقة، وقامت الحجة على الأعرابى، فأطرق وجعل ينكت فى الأرض بسبابته، ويحرك شفثيه، بكلام سراً، فنطقت الناقة، وقالت للنبي ﷺ: والذى بعثك بالحق ما سرقنى، وإنه لبرئ من هذه التهمة، فسأله النبى ﷺ عما كان يقول سراً؟

فقال: يا رسول الله... قلت: اللهم... إنك لست برب استحدثناك، ولا معك شريك فى ملكك، ولا أعانك أحد على خلقنا، أنت ربنا كما

نقول، وفوق ما يقول القائلون، أسألك . . . أن تصلى على محمد، وعلى آل محمد، وأن تبرئني ببراءة مما أنا فيه. فقال له ﷺ: من أصابه مثل ما أصابك، فليقل مثل مقالتك وهذا من بركة الصلاة على النبي ﷺ، والتوسل به.

وروى أن من صلى عليه ﷺ خمسمائة مرة كل يوم، لم يفتقر أبداً. وفي رواية: وهدمت ذنوبه، ومحيت سيئاته، ودام سروره، واستجيب دعاؤه، وأعطى أمله، وأعين على عدوه، وعلى أسباب الخير، وكان ممن يرافق نبيه في الجنان.

وعنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - مَلَائِكَةً أَقْلَامُهُمْ مِنْ نُورٍ، لَا يَكْتُبُونَ إِلَّا الصَّلَاةَ عَلَىَّ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِي فَمَنْ صَلَّى عَلَيَّ، صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، وَمَنْ صَلَّتْ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ، صَلَّتْ عَلَيْهِ رَبُّهُ، وَلَمْ يَبْقَ فِي السَّمَوَاتِ السَّبْعِ، وَلَا فِي الْأَرْضِينَ السَّبْعِ، وَالْبَحَارِ، وَالْأَشْجَارِ، وَالطَّيْرِ، وَالنَّبَاتِ، شَيْءٌ إِلَّا صَلَّى عَلَيْهِ».

وعنه ﷺ أنه قال: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِائَةً مَرَّةً تَزَحَّزَحَتْ عَنْهُ النَّارُ». وفي بعض الآثار: «إِنَّ أَنْجَاكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْوَالِهَا وَمَوَاطِنِهَا أَكْثَرُكُمْ عَلَى صَلَاةٍ».

وقد ورد في كيفية الصلاة على النبي ﷺ أحاديث مشهورة. منها: أنه قيل له: يا رسول الله . . . كيف نصلى عليك. فقال: «قولوا: اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إِنَّكَ حميد مجيد» (١).

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده، والشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه.

فيجب أن يُصَلَّى عليه باللفظ المروى عنه ﷺ .

فنسألك . . . اللهم . . . يا عظيم النّوال، أن تصلى عليه وعلى جميع من له من الأصحاب، والآل، مادامت الأيام والليال، وأن تَمُنَّ عَلَىَّ بِمَحَبَّتِهِ، وبتابع سنته، وأن تميّتنى على مِلَّتِهِ، وتحشرنى فى زمّرتِهِ، وتدخلنى فى شفاعته .

وأسألك اللهم . . . بجّاهه فإنه ﷺ قال : «تَوَسَّلُوا بِجَاهِي فَإِنْ جَاهِي عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ» .

وأسألك اللهم . . . بأسمائك الحسنى، وباسمك العظيم، الأعظم، أن تعفو عني، وتغفر لى، وتقبل علىّ برضاك، وترزقنى محبتك، واتبع مرضاتك، وأن تقضى عني تبعاتى، وأن تكفينى هم الدنيا، وعذاب الآخرة .

وأن تختتم لى بالإيمان، وتدخلنى فى حماك، فى الدنيا، ويوم القيامة، مع والدينا، وأشياخنا، وسائر المؤمنين يا أرحم الراحمين . . . فإن فضلكَ كبير، وخيرك كثير، وإحسانك قديم، وودك عميم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً^(١) .

(١) وقد ألف كثيرون فى الصلاة على هذا النبى العظيم ومنهم بل أشهرهم الإمام الجزولى فى كتابه (دلائل الخيرات) المشهور فى الآفاق، وإن كان هناك بعض مأخذ عليه .

الباب الثالث عشر
فى
علامة السعادة
وتذكرة أهل الاستفادة

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الثالث عشر

فى علامة السعادة، وتذكرة أهل الاستفادة

علامة السعادة محبة الله تعالى، وعلامتها الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

قال الشيخ القشيري - رضى الله عنه - : محبة العبد لله - سبحانه - طاعته له، وموافقته لأمره، وهى فى الحقيقة: احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح بلذة العشق، واستغراق الحواس فى بحر الأنس.

وقال بعضهم: تكون بمعنى تعظيمه له، وهيبته منه. وعلامة محبة الله للعبد: استعماله فى خدمته، وإقباله عليه برضاه عنه.

وقال عياض - رضى الله عنه - : محبة الله لعباده عفوه عنهم، وإنعامه عليهم برحمته، ومحبة العبد لا تكون لعوضٍ، ولا لغرض. كما قيل: ليس المحب الذى يرجو من محبوبه عوضاً، وأنشدوا:

وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبقى عليه ثواب

[من البحر الطويل]

والمحب لا يعصى أمر محبوبه، لا يؤثر عليه شهوته، وإنما يترك مراده المراده.

كما قيل:

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

[من البحر الطويل]

وقال غيره:

وأترك ما أهوى لما قد هويته وأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

[من البحر الطويل]

وقال غيره:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّه هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأُطْعِمَتْهُ إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

[من البحر الكامل]

ولا تصح المحبة إلا ممن خالط الإيمان بشاشة قلبه، ولا إيمان لمن لا محبة له .

ومن علامات حبِّ الله - تعالى - حبُّ النبي ﷺ، وتُعرفُ باتِّباع سنته، وتوقير آله وعترته، وكثرة الصلاة عليه، وتعظيم حقه . وقيل:

علامة حبِّ الله حبُّ حبيبه

ومن علاماتها: الإقبالُ على الآخرة، والإدبار عن الدنيا:

قال ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً ففقهه في الدين، وزهده في الدنيا، وبصره بعيوبه»^(١).

فائدة:

قال الفضيل بن عياض - رضى الله عنه -: إنما يطيع العبد على قدر منزلته عند الله، ويعصيه على قدر بعده منه .

(١) انظر: الجامع الصغير .

وقال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - : إذا أردت أن تعرف مقامك عنده فانظر فى ماذا يقيمك؟! .

فمن يسر الله عليه أسباب طاعته، فهو مقبول، مودود، ومن يسر الله عليه أسباب معصيته فهو مهانٌ مطرود، ومن اعتنى به الحق - سبحانه - حال بينه وبين ما يشغله عنه، ومن أهانه تركه وما يريد، فاشتغل عنه بنفسه. قال فى المناهج: لو كرمت عليه ما تركك لغيره.

فائدة:

قال عليه السلام: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَ اللَّهِ فَلْيَنْظُرْ مَنْزِلَةَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ قَلْبِهِ فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - يُنْزِلُ الْعَبْدَ عِنْدَهُ بِحَيْثُ أَنْزَلَهُ الْعَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: بينما نحن عند رسول الله عليه السلام إذ أتى آت، فلما دنا منا، ورأى جماعتنا، أناخ راحلته، ثم مشى إلى النبى عليه السلام فقال: يا رسول الله... أوضعت راحلتى من مسيرة تسع، وسيرتها إليك ست، وأسهرت ليلى، وأظمأت نهارى، لا أسألك إلا عن اثنتين أسهرتنى...!

فقال: ومن أنت قال: أنا زيد الخيل. فقال: بل أنت زيد الخير... سل، فربَّ معضلة قد يُسأل عنها. قال: جئتُك أسألك عن علامة الله فيمن يريد، وعلامته فيمن لا يريد؟..

فقال له النبى عليه السلام: «بخ... بخ كيف أصبحت يا زيد؟ قال: أصبحت أحبُّ الخير وأهله، وأحبُّ أن أعمل به، وإذا فاتنى حننت إليه وحزنت عليه، وإذا عملت عملاً، قلَّ أو كثر، أيقنت بثوابه. قال: هى بعينها يا زيد... ولو أراذك الله للأخرى هياك لها، ولا يبالى فى أى وادٍ هلكت! قال زيد: حسبى... حسبى... ثم ارتحل ولم يلبث».

(١) لم نقف عليه.

وقال ﷺ لحارثة: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال ﷺ: لكن حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، واستوى عندى ذهبها ومدرها، وكأنى أنظر القيامة قد قامت، وعرش ربنا بارز، فقال ﷺ: عرفت فالزم»^(١).

ودخل معاذ بن جبل - رضى الله عنه - على النبی ﷺ وهو يبكى، فقال له: كيف أصبحت يا معاذ؟ قال أصبحت بالله مؤمناً. قال النبی ﷺ: إن لكل قول مصداقاً، ولكل حق حقيقة.

فما مصداق ما تقول؟ قال: يا نبی الله... ما أصبحت صباحاً قط إلا ظننت أنى لا أمسى، وما أمسيت مساء قط، إلا ظننت أنى لا أصبح، ولا خطوات خطوة قط، إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها، مع نبیها.

أو أوثانها التى كانت تعبد من دون الله، وكأنى أنظر إلى عقوبة أهل النار، وثواب أهل الجنة. فقال النبی ﷺ: «عرفت فالزم»^(١).

ومن علاماتها أيضاً: رقة القلب عند سماع الذكر.

قال - تعالى - : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾^(٢).

قال - تعالى - : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٣).

(١) رواه الطبرانى وأبو نعيم.

(٢) سورة المائدة - الآية رقم ٨٣.

(٣) سورة الأنفال - الآيات ٢ - ٤.

ومنها الرجوع إلى الله في كل ما يرد عليه من خير أو غيره، والثقة بضمنان الله والتشوف للخير. كما قال الشيخ أبو المحاسن - رضى الله عنه -: من تشوف للخير فهو من أهل الخير.

والاعتصام بالله وهو من أمره لا من غيره، إذ لا غير في الحقيقة:

قال الواسطى: من زعم أنه يعتصم به من غيره فهو وهى في الربوبية.

وقال الورعجي: من اعتصم به منه اهتدى إليه لأنه في محل المعرفة، ومن عرفه يستعيز برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه. كما قال عليه السلام في بعض سجوده: «أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١).

وقال أبو بكر بن الوراق: علامة الاعتصام ثلاثة: قطع القلب عن معرفة المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله تعالى.

ومنها: انكسار القلب من الخطايا، فيرى أنه لا يستحق العطايا، فقد قال عليه السلام في بعض الأحاديث القدسية: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من جرائي» وقال بعضهم: انكسار العاصي خير من وصوله المطيع؛ لأن المنكسر قلبه متعلق بربه، والصائل بطاعته فرح بنفسه.

وحكى أن جماعة كانوا في مركب في البحر، فزلوا في البر، فأخذ التجار يتفقدون أمتعتهم، وينشرون سلعهم، وانزلت طائفة منهم يصلون على الماء، وجعل رجل ينظر إلى الفريقين ويقول: إلهي... لست أصلح للدنيا ولا للآخرة... فسمع هاتفا يقول: من لم يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(١) رواه الشيخان في صحيحيهما والحاكم في مستدرک.

ومنها: تعظيم جانب أولياء الله تعالى، ومحبة نسبتهم، ومراعاة حقوقهم، واحترام من انضاف إليهم من أولاد وأقارب، والتبرك بآثارهم، والتلذذ بتذكاراتهم: قال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه -: من أحبَّ الله تعالى أحبَّ كلَّ ما ينسب إليه.

وقال مجنون بن عامر:

أحب لأجلها السودان حتى أحب لأجلها سود الكلاب
وقال غيره فيه:

رأى المجنون فى البيداء كلبا فجرَّ له من الإحسان ذيلا
فلاموه على ما كان منه وقالوا لم نلت الكلب ليلا
فقال: دعوا الملام فإن عيني رأيته مرة فى حى ليلي
قال على بن أبى طالب - رضى الله عنه -: أعلمُ الناسِ بالله، أشدُّهم تعظيماً لأهل لا إله إلا الله.

وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه -: كل من اتبع طاعة الله لزمته مودته، ومن أحب رجلاً صالحاً فكأنما أحبَّ الله تعالى.

ومنها: حسنُ الظنِّ بالله - تعالى -: فإنه جميل، وأوصافه حميده، وأفعاله جميلة، ولا تخلو أفعاله عن حكمة لأنه حكيم، ومن آمن وصدق بأنه حكيم لم يظنَّ به إلا جميلاً، ولم ير أفعاله: إلا حسنة.

ولا يعترض على القدر، ومن حسن الظن بالله تعالى: قطع الأوهام، أن يكون كذا، ولا يكون كذا.

قال الشيخ ابن عباد - رضى الله عنه -: متى أعطيت أذنك للوهم

هلكت، كمن يصغى للأراجيف، وأخبار الوقائع، وتوقع المصائب، الذى هو أعظم من وقوعها.

وذلك مما يكدر العيش، ويقسى القلب، ويؤدى إلى التسخط، وسوء الظن الذى هو أقبح المعاصى. نسأل الله السلامة والعافية.

ومنها: حسن الظن بعباد الله - تعالى -، وحب الخير لهم، والسعى فى مصالحهم، وإرشادهم ونصحهم، وذكرهم بالجميل، والدعاء لهم، ولا دليل على فلاح العبد أقوى من طيب كلامه وذكره الغائب بخير. وبضدّها تتبين الأشياء.

حكى الشيخ القشيري - رضى الله عنه - عن معروف الكرخي - رضى الله عنه - أنه مرّ به زورق فى دجله، وبين أيديهم الخمر، والطرب، واللهو.

فقال له الناس: أما تدعو على هؤلاء المجاهرين بمعاصى الله - عز وجل -؟

فقال لهم: ابسطوا أيديكم فبسطوا أيديهم. فقال الشيخ: اللهم كما فرحتهم فى الدنيا، وفرّحهم فى الآخرة. فقالوا له: ما هذا الدعاء؟

فقال: يا أولادى... ما يفرحهم فى الآخرة: إلا أن عفا عنهم فى الدنيا.

وقال عليه السلام: «خَصَلْتَانِ لَا شَيْءَ مِنَ الْخَيْرِ فَوْقَهُمَا: حُسْنُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَحُسْنُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ. وَخَصَلْتَانِ لَا شَيْءَ مِنَ الشَّرِّ بَعْدَهُمَا، سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ، وَسُوءُ الظَّنِّ بِعِبَادِ اللَّهِ»^(١).

(١) لم نقف عليه فيما بين أيدينا.

وقال فى العهود الكبرى: لو وُضِعَتْ عبادة الشخص طول عمره فى كفة، وسوء الظن بمسلم فى كفة، لرجح سوء الظن.

فائدة:

قال بعض العارفين - رضى الله عنهم -: إذا أردت أن تعرف ما انطوت عليه سريرتك من خير أو شر، فانظر كيف تجد الناس عندك؟ فإن كنت تظن فيهم الخير.

فأنت من أهل الخير، وإن كنت تظن فيهم الشر؛ فأنت من أهله، وإن كنت تظن الخير فى بعضهم دون بعض، عرفت من نفسك التخليط، وقس على ذلك.

وحكى الشيخ أبو طالب المكي^(١) - رضى الله عنه - عن عبد الله بن سفيان عن أبيه: قال: يا رسول الله... أوصنى بشيء فى الإسلام، لا أسأل عنه أحداً بعدك. فقال: " قُلْ رَبِّىَ اللَّهُ.. ثُمَّ اسْتَقِم^(٢)، قُلْتُ: فَمَا أَبْقَى بَعْدَ ذَلِكَ؟"، وفى لفظ آخر: "فَأَخْبِرْنِى بِأَضْرَّ شَيْءٍ عَلَى". فقال: هَذَا... وَأَوْمَأَ إِلَى لِسَانِهِ ﷺ ".

ومنها: النشاط فى أفعال البر من صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو ذكر، أو عمل صالح، وخِفَّةُ ذلك على الجوارح، وسرعة النهوض إليها.. كما قيل: إذا وصلت المعاملة إلى القلوب، استراحت الجوارح. وقيل:

وَإِذَا حَلَّتِ الْهِدَايَةُ قَلْبًا نَشَطَتْ لِلْعِبَادَةِ الْأَعْضَاءُ

[من البحر الخفيف]

(١) صاحب قوت القلوب.

(٢) الحديث رواه الإمام أحمد ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه.

فإذا أشرق نور الإيمان فى قلب العبد، انبعثت أشعته فى الجوارح، فقويت، ونهضت، وخفت عليها الأعمال بلا تكلف، ولا سامة، وصارت محمولة فى سفينة المحبة تجرى بها رياح الشوق على وجه الاضطرار، لا على وجه الاختيار، ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيهَا وَمُرسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١).

ومن وجد خيراً فليحمد الله، فهذا عبد شرح الله بتوفيقه صدره، ويسر بمعونته، وتأييده، لاقتناء المكارم والخيرات أمره، فتنفعه الذكرى، وتعمل فيه الموعدة، وتزكو نفسه، وتبدل أوصافه السيئة بالحسنة.

فالمرىب بالمنيب، والخادع بالخاضع، والغافل بالعاقل، والجاهل بالعارف، والمسىء بالمحسن، والخائن بالأمين، والبعيد بالقريب، والمردود بالمودود، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فائدة:

قيل للشيخ سيدى عبد الرحمن بن محمد الفاسى - رضى الله عنه - :
ما سبب الكسل، وقلة النشاط للعبادة؟ فقال: بإحدى ثلاث: أكل الحرام، أو ارتكاب ذنب، أو اشتغال القلب بالدنيا.

فائدة:

من أحب القيام بالواجبات، فليترك المحرمات.
قال - تعالى - : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢).

(١) سورة هود - الآية رقم ٤١ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٩ .

وقال بعض الحكماء: درء المفسد أهم من جلب المصالح، والأصل فى ذلك: أن ترك الشهوات، والإقلاع عن المعاصى، أكد من نوافل الخيرات.

فالوجهة إلى الله - تعالى - لا تكون إلا بالتوبة التى هى الرجوع عن أفعال مذمومة إلى أفعال محمودة كما تقدم فى بابها.

فائدة:

من كثر إيمانه، قلَّ عصيانه، ومن قلَّ إيمانه، كثر عصيانه، فالطاعة والمعصية على قدر قوة إيمان العبد، وضعفه.

وقال بعضهم: من أحسن فى نهاره، عوفى فى ليله، ومن أحسن فى ليله عوفى فى نهاره. ومنها أن لا تشغل الدنيا عن الآخرة.

قال - تعالى - : ﴿رَجَالٌ لَا تُلِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾^(١) الآية. وهذا الوصف عزيز فى الوجود، كاد أن يكون المتصف به غير موجود إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم:

أَلَا إِنَّ قُطَاعَ الْفَيَافَى إِلَى الْحِمَى كَثُرُ وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ قَلِيلٌ

[من البحر الطويل]

فالمتسبون والمدعون كثيرون. كما قيل:

وَكُلُّ يَدْعَى وَصُلًّا بَلِيلَى وَلَيْلَى لَا تُقَرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

[من البحر الوافر]

قال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه - : كأن الحق تعالى يقول: يا بنى آدم.. ملأتم الدنيا طولاً وعرضاً، ولم يأتنا منكم إلا القليل.

(١) سورة النور - الآية رقم ٣٧.

وقد قيل :

- إِذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمُسَاعِدُ.

- ما كُلُّ مَنْ ثَبِتَ تَخْصِيصُهُ كَمَلَتْ تَخْلِيصُهُ.

مَا كُلُّ مَنْ وَصَلَ الْحِمَى سَمِعَ النَّدَا مِنْ أَهْلِهِ، أَهْلًا بِهِذَا الزَّائِرِ

[من البحر الكامل]

ومنها: - وهو أعظمها - : القيام بالواجبات فى الظاهر، والاستسلام لأمر الله فى الباطن، وتعلق القلب به فى جميع الأحوال، والتقرب بنوافل الخيرات.

كما قال ﷺ فى بعض الأحاديث القدسية: " لَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَىَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا " (١).

وقال الشيخ أبو القاسم القشيري - رضى الله عنه - فى رسالته: إذا أراد الله - تعالى - أن ينقل العبد من ذل المعصية، إلى عز الطاعة، آنسه بالوحدة، وأغنائه بالقناعة، وبصره بعيوب نفسه.

ومن أعطى ذلك فقد أعطى خير الدنيا والآخرة، ، ومن رزق التوفيق والهداية، بشره بالرضوان والولاية، من محض الفضل والعناية، فالكريم لا يدعو لحضرته إلا من يريد إكرامه، ولا يستخدم أحداً ويضيعه، وهو فى خدمته.

فمن وجد عبداً مهاناً جائعاً، أو عرياناً، وسيده غنى كريم، علم أن ذلك من شؤم العبد، لا من بخل سيده.

(١) رواه البخارى.

قال فى التجبير: حكى عن بعض الصالحين - رضى الله عنهم - : أنه سئل عن سبب توبته. فقال: إني كنت رجلاً دهقاناً، فاجتمع علىّ أشغال فى ليلة من ليال، كنت أحتاج أنى أسقى زرعاً لى، وكنت حملت حنطة إلى الطاحونة، ووثب حمارٌ لى، وضلّ.

فقلت: إن اشتغلت بطلب الحمار، فات سقى الزرع، وإن اشتغلت بالسقى، ضاع الطحين والحمار، وكان ذلك ليلة الجمعة، وبين قريتى وبين الجامع مسافة بعيدة، فقلت: أترك هذه الأمور كلّها، وأمضى إلى القصبة، لأدرك غداً صلاة الجمعة، فمضيت، وصليت، فلما انصرفتُ، اجتزت بالزرع، فإذا هو قد سقى. فقلت: من سقى هذا الزرع؟

ف قيل: إن جارك أراد أن يسقى زرعهُ، فغلبته عيناه، وانفتق السد فدخل الماء زرعك، فلما وافيت باب الدار، إذا بالحمار على المعلق، فقلت: من ردّ هذا الحمار؟

قالوا: طال عليه الذئب، فالتجأ إلى البيت، فلما دخلت الدار، إذا بالدقيق موضوع. فقلت: كيف سبب هذا؟

فقالوا: إن الطحان طحن هذا بالغلط!! فلما علم أنه لك، ردّه إلى الدار! فقلت: ما أصدق ما قيل: من كان لله كان الله له، ومن أصلح لله أمراً، أصلح الله أموره، فتركت الدنيا، وتبت إلى الله سبحانه.

وحكى أن رجلاً اشترى لحمًا، وحمله إلى منزله، فبينما هو فى الطريق، إذ حضرت الصلاة، فوضع اللحم بباب المسجد، ودخل يصلى، وإذا بحدأة احتطفت اللحم، وطارَتْ به، فرجع إلى منزله، وإذا باللحم فى منزله...!

فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ فقالوا له: إن حدثين تنازعنا عليه في الهواء، فسقط هنا!!!

فائدة:

قال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - : لا يدخل عليك الإهمال إلا بإهمالك متابعة النبي - ﷺ - ، ولا تحصل لك الرفعة عند الله - تعالى - إلا بمتابعة النبي - ﷺ - ، وشرف المسكن بشرف ساكنه .
قيل للحسن البصرى - رضى الله عنه - : أوصنى . فقال : أعزَّ أمر الله حيثما كنت يُعزُّكَ الله . وقيل :

بَجِيرَانَهَا تَغْلُو الدِّيَارُ وَتَرَحُّصُ

ورأت رابعة العدوية بعض الصالحين - رضى الله عنه - يتبختر فى مشيته، فقالت له فى ذلك، فقال: كيف لا؟ وقد أصبح لى سيِّداً، وأصبحت له عبداً. وفى تعبيره رضى الله عنه بـ(أصبح)، إشارةً إلى أنه كان فى ليل الجهل، وظلمة الغفلة، والقطيعة، فأشرقت عليه شمس المعرفة، فتحقق بالربوبية، وتخلَّق بالعبودية، فأصبح لله عبداً، لا لغيره، وإلا.. فمتى خرج عن وصف العبودية؟.

قال - تعالى - : ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (١)، إلا أن عبد السوء، أريدَ لخدمة سيده، فاشتغل بخدمة نفسه .

وأوحى الله - تعالى - إلى داود - عليه السلام - : يا داود... إنَّ أحبَّ أحبائى إلىَّ، مَنْ عبدنى لغير نوال، ليعطى الربوبية حقَّها، ومن أظلم ممن عبدنى لجنَّةٍ أو نار، يا داود...

(١) سورة مريم - الآية رقم ٩٣.

إنما خلقت النار سوطاً لأسوأ عبادى، أسوقهم بها إلى خدمتى،
 وخلقت الجنة لموصلى عبادى، أوصلهم بها إلى جوارى، وقربى، يا داود...
 لو لم أخلق جنةً ولا ناراً... ألم أكن أهلاً لأن أطاع، وأُعبدَ محبةً لى؟!
 قال ﷺ: "نعم العبدُ ضهيّبٌ، لو لم يخفِ اللهَ لم يعصه" (١).

وإذا استولت ظلمة المعاصى على القلب، كسلت الجوارح، وتعطلت
 البواعث، فتحكمت القساوة، وحصلت الشقاوة. قال - تعالى - : ﴿وَلَكِنْ
 قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢).

وقيل :

إِذَا قَسَا الْقَلْبُ لَمْ تَنْفَعْهُ مَوْعِظَةٌ كَالْأَرْضِ إِنْ سَبَخَتْ لَا يَنْفَعُ الْمَطَرُ

[من البحر البسيط]

قال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - : إما يؤثر فيك الكلام،
 على قدر عظم المتكلم عندك، ومن عقل سمع، ومن سمع استجاب. قال -
 تعالى - : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ (٣). وأنشدوا:

لَوْ يَسْمَعُونَ كَمَا سَمِعْتُ كَلَامَهَا خَرُّوا لِعِزَّةِ رُكْعًا وَسُجُودًا (٤)

[من البحر البسيط]

ومن قسا قلبه، فهو ميت الأحياء، عادم الإحساس، ظاهر الإفلاس،
 أعمى البصيرة، سيئ السريرة، قال - تعالى - : ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ
 أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٥).

(١) انظر كنز العمال.

(٢) سورة الأنعام - الآية رقم ٤٣.

(٣) سورة الأنعام - الآية رقم ٣٦.

(٤) أخطأ الشاعر فى قوله لأنه لا يجوز الركوع والسجود إلا لله سبحانه وتعالى

(٥) سورة الزمر - الآية رقم ٢٢.

الحى تؤلمه الشوكة، والميت لا يؤلمه شىء. وقيل: "ما لجرح بميتٍ إيلاًم".

قال - تعالى - : ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

ورحم الله القائل

وَإِذَا ضَلَّتِ الْعُقُولُ عَلَى عِلْمٍ فَمَاذَا يَقُولُهُ النَّصَحَاءُ؟

قال ﷺ: "حُبُّ الشَّيْءِ يَغْمِي وَيُصِمُّ" (٢).

وقال الشيخ أبو طالب المكي - رضى الله عنه - : فالهوى يغمى عن الحق، والشهوة تُصِمُّ عن النصيح، والصدق.

فائدة جليلة:

قال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه - : القلوب الغافلة إذا سمعت الحقائق نفرت، ولا يثبت لسماع الحقائق إلا قلبٌ أراد الله تعالى ترقّيه.

وقال - رضى الله عنه - : كلمة الحكمة عروسٌ كريمة، فإن لم تجد كفؤاً لها رجعت إلى بيت أبيها.

فائدة أخرى:

لا تتمكن حلاوة الإيمان إلا فى القلب الفارغ من الدنيا. كما قيل:

فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

(١) سورة يونس - الآية رقم ١٠١.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده، والبخارى فى التاريخ، وأبو داود.

وقال سيدى على الخواص - رضى الله عنه - : العلوم الإلهية لا تنزل
إلا فى الأوعية الفارغة - يعنى من حب الدنيا - وأما العامرة، فقد أماتها
الشهوة، إنك لا تسمع الموتى .

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

[من البحر الوافر]

قال - تعالى - : ﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١).

تنبيه...!

من تألَّم أصبعه، أصبح بيباب الطيب، وصبر على الكى، والحسم،
ومن دعت شهوة أجابها، ولا يبالي بتحمل المشاق العظيمة، ومن وقعت لمعة
فى ثوبه بادر إلى غسلها لئلا تشينه عند الناس، ولا عليه فى دنس عرضه،
وقلة دينه .

وارتكاب مساخط ربه - سبحانه - ومن ضاع له درهم حزن عليه، ولا
يحزن على ما فاته من ربه - سبحانه - بإهمال حقوقه !!

قال وهب بن منبه - رضى الله عنه - : واعجباً من الناس، يكون على
من مات جسده، ولا يكون على من مات قلبه، وهو أشدُّ!!، وليس المراد
من الإنسان إلا روحه، ومن عدم الروح، انتفى عنه سرُّ الآدمية . وقد قيل :

فَأَنْتَ بِالرُّوحِ لَا بِالْجِسْمِ إِنْسَانُ

وأشقى الناس من ينهض من مجالس الذكر إلى اللهو، ويجرى لشهوته
طلق الجموح، ويغدو ناشطاً فى طلبها، ويروح، ويصلى الفريضة خارج

(١) سورة النمل - الآية رقم ٨١ .

الوقت فذًا، جالسًا، ويتنخب المطاعم، والمشارب، ويتهاون بالمسنون،
والواجب.

وإذا أخبره أحدٌ بنيل ربح دنيوى، جدَّ فى طلبه، وصدَّق فيما أخبر به،
ولو من كافر!! وقد أخبرنا مولانا - جلَّ جلاله - بالربح العظيم، الدائم،
فما نهضت هممتنا إليه، ولا عوَّلنا بعملنا عليه.

ويسافر أحدنا لأرض العدو، وبلد السودان، ويستعذب عذابه فى البر،
والبحر، ويترك بلاده، ويهجر أولاده، ويستبدل بالراحة التعب، وبالسلامة
العطب، وما مطلبه إلا نشب يبلى.

ولذة تفنى، وربما فاجأته المنية، قبل حصول الأمنية، خسر الدنيا
والآخرة، ولا يبالى بما فاته من الله - عزَّ وجلَّ -، ولا بما ضيَّعه من أداء
الفرائض، ويتلف عمره بلا فائدة، ويدعى محبة الله، ورسوله، ويعذر نفسه
فى التقصير فى العبادة.

ففى طلب شهوته يقتحم المشاق، كما تقدم، ويطلب الجنة بلا عمل،
ويَهُونُ عليه ما يفوته من دينه، ولا يهون عليه دينار يتصدَّق به!، ويطلب
التوبة والمغفرة بلسانه، ويسعى فى طلب الدنيا ببدنه، وجنانه!!.. قال -
تعالى - : ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ (١).

كان أبو بكر بن عياش - رضى الله عنه - يقول: مسكينٌ محبُّ الدنيا،
يسقط له درهمٌ فيظلُّ نهاره يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وينقص عمره
ودينه ولا يحزن عليه!!..

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢).

(١) سورة الإسراء - الآية رقم ١٩.

(٢) سورة الحج - الآية رقم ٤٦.

عَمَى الْبَصَائِرِ أَذْهَى مِنْ عَمَى الْمَقَلِّ
أَبْنَى... إِنَّ مَنْ الرَّجَالِ بِهِيْمَةً فِي صُورَةِ الرَّجُلِ السَّمِيعِ الْمُبْصِرِ
فَطَنٍ بِكُلِّ مُصِيبَةٍ فِي مَالِهِ فَإِذَا أُصِيبَ بَدِينِهِ لَمْ يَشْعُرِ
[من البحر الكامل]

يدعى المحبة، والطاعة، ويقوم إلى الصلاة وهو كسلان، ينقرها نقرَ
الديك العجلان، ليتفرغ منها لما هو عنده آكد.

قال الشيخ أبو علي الروذباري - رضى الله عنه - : من علامة مقت
الله للعبد أن يتقلق من مجلس الذكر إذا طال، لأنه لو أحبه، لكان ألف سنة
في حضرته، كلحظة.

وقد قيل :

مَنْ يَسْتَطِيعُ بُلُوغَ أَعْلَى مَنْزِلٍ مَا بَالُهُ يَرْضَى بِأَدْنَى مَنْزِلٍ؟!
[من البحر الكامل]

استغفر الله... إن الهدى هدى الله، ومن لم يجعل الله له نوراً،
فماله من نور، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله، فالحكم لله العلى الكبير.

عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَسْعَى بِجَدٍّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَلْقَى نَجَاحاً
[من البحر الوافر]

قال بعض العارفين - رضى الله عنهم - : لو قال لك القائل : أعلمك
الحكمة. لأكبت وصرفت قلبك، وسمعت إليه، فإذا قال لك : هي التقوى،
والإنابة، والخشية، لويت عنقك عنه، وعبست وجهك، وقلت : حسبتك
تعلمنى فائدة!!.

قال - تعالى - : ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ (١).
أف... للذة بعدها النار. ولشهوة تعقبها الندامة والعار.

قال ﷺ : "أَلَا رُبَّ شَهْوَةٍ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا" (٢).
وقيل : لا خيرَ في لَذَّةٍ مِنْ بَعْدِهَا سَقَرٌ.

قال علي بن أبي طالب - رضى الله عنه - : ما شرُّ بعده الجنةِ بشرٍّ،
ولا خيرٌ بعده النارِ بخيرٍ، وكل نعيم دون الجنةِ حقيرٌ، وكل بلاء دون النارِ
عافية .

فائدة:

قال الورعجي - رضى الله عنه - فى قوله - تعالى - : ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ
أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ (٣) : لأنهم محجوبون عن مشاهدة الآخرة، ومكاشفة
الحضرة، بغطاء الغفلة، والشهوة لعلمهم بما قدموا من الآثام، والخلاف،
وهذا حال الكفار.

فواجبٌ على المؤمن أن يكون حاله ضدَّ هذا، مشتاقًا إلى الموت،
لمكاشفة الغيوب، ورفع حجاب الوحشة، والوصول إلى محل الأنس، ألا
ترى أن النبى ﷺ يقول : "مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ" (٤).

وأن بلالاً لما حضرته الوفاة، قالت امرأته: واحزاناه... فقال: بل...
واطرباه بلقاء الأحبِّ، انتهى محل الحاجة منه.

(١) سورة القيامة - الآيتان ٢٠ - ٢١.

(٢) رواه البيهقى .

(٣) سورة البقرة - الآية رقم ٩٦.

(٤) رواه الشيخان والإمام أحمد والترمذى والنسائى .

وكل من أحب غير الله تعالى يقال له يوم القيامة: انظر إلى إلهك الذى ظَلَّتْ عليه عاكفا، لُنْحَرِقْنَه ثم لننسنفنه فى اليم نسفاً، إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو، وسع كل شىء علماً. فالسعيد، كل السعيد من تجافى عن دار الغرور، وخالف النفس والغرور، وشمر ذيل البطالة، وقصر فى طلب الدنيا من الإطالة، وارتفعت همته، واستقامت سيرته، وخلصت سريرته، واعترف بذنبه، وأناب إلى ربه، ورضى عن مولاه، وشكر ما أولاه، قال عليه السلام: "مَنْ رَضِيَ عَنِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

ولقى سفيان الثورى رابعة العدوية - رضى الله عنهما -، فقال لها: سل الله أن يرضى عنا. . . فقالت له: يا سفيان. . . تطمع أن يرضى عنك، وأنت ما رضيت عنه فى شىء!!!.

وقال بعض العارفين - رضى الله عنهم - : إذا أراد أن يرحم عبده، أَلْهَمَهُ ما أنعم به عليه ظاهراً وباطناً، فكان من الذاكرين، الشاكرين، وهذه عين الرحمة، والسعادة، وسبب القرب والزيادة، والفتح والإفادة.

قيل: وقفت امرأة إلى بعض الملوك. فقالت له: أيها الملك. . . أحسنت إلينا فى العام الماضى، فأحسن إلينا فى هذا العام. فقال لها: مرحباً بمن طلب إحساننا بإحساننا.

فمن اعترف بذنبه، وتحقق بإحسان ربه، واستغرق العمر فى الشكر، واللهج بالذكر. وأنشدوا:

إِلَهِي لَكَ الْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ عَلَى نِعَمٍ مَا كُنْتُ قَطُّ لَهَا أَهْلًا
مَتَى أَزْدَدْتُ تَقْصِيرًا تَزِدْنِي تَفْضُلًا كَأَنِّي بِالتَّقْصِيرِ أَسْتَوْجِبُ الْفَضْلًا

[من البحر الطويل]

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الباب الرابع عشر
فى
القناعة وذم الاغترار والطمع

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الرابع عشر

فى القناعة، وذم الاغترار، والطمع

القناعة: الاكتفاء بالميسور، وقطع النظر عن المخلوقين.

وقيل: القناعة: السكون عند عدم المألوفات.

وقال محمد بن على الترمذى - رضى الله عنه - : رضا النفس بما قسم لها من الرزق.

وهى كنز الفقير، وعزُّ الحقيق. وفى التوراة: من قنع شبع.

وقال ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِالقَنَاعَةِ، فَإِنَّ القَنَاعَةَ مَالٌ لَا يَنْفَدُ" (١) وفى رواية: (كَنْزٌ لَا يَفْنَى).

وقال ﷺ: "الغنى الإياسُ مما فى أيدى الناسِ، وإياك والطَّمَعُ فإنه الفقرُ الحاضر" (٢).

وقال ﷺ: "أَفْلَحَ مَنْ هَدَى إِلَى الإسلامِ وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا وَقَنَّعَ بِهِ" (٣).

وقال ﷺ: "مَنْ رَضِيَ عَنِ اللَّهِ بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْقَلِيلِ مِنَ الْعَمَلِ" (٤).

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط.

(٢) انظر: الجامع الصغير.

(٣) رواه الطبرانى فى معجمه والحاكم فى مستدركه.

(٤) انظر الجامع الصغير.

وفى بعض الكتب المنزلة: عبدى . . خلقتك لى وحدى، وسخرت لك
الملائكة تقودك إلى حضرتى بزمام ما دمت قانعاً منى فى عمرى كله بالرغيف،
وستر العورة، فأنت عبدى، فإذا طلبت منى فوق ذلك قطعت الحبل بينى
وبينك، فلا تقدر بعد ذلك على النهوض إلى حضرتى خطوة واحدة.
وقال ﷺ: "خيار المؤمنين القانع، وشرار المؤمنين الطامع" (١).

وقال ذو النون المصرى - رضى الله عنه - : من قنع استراح من أهل
زمانه، واستطال على أقرانه.

وقال الشيخ القشبرى فى رسالته - رضى الله عنه - : لما نطق موسى
بالطمع فى قوله تعالى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ (٢) قال الخضر: ﴿هَذَا
فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ (٣).

وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازى - رضى الله عنه - يأكل الكسر
اليابس بالماء وينشد:

خُبْرٌ وَمَاءٌ وَظِلٌّ هَذَا النَّعِيمُ الْأَجَلُ
جَحَدْتُ نِعْمَةَ رَبِّي إِنْ قُلْتُ: إِنِّي مُقِلُّ

[من البحر المضارع]

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : من رضى بقسم الله لم
يحزن على ما فاته.

وقال بعض الصالحين: المؤمن قانع بالميسور، وراضٍ بالمقدور.

(١) الجامع الصغير.

(٢) سورة الكهف - الآية رقم ٧٧.

(٣) سورة الكهف - الآية رقم ٧٨.

وقيل :

أَفَادَتْنِي الْقَنَاعَةُ أَيَّ عِزٍّ وَلَا عِزٍّ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ
فَخَذْتُ مِنْهَا لِنَفْسِكَ رَأْسَ مَالٍ وَصَيَّرَ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةً
فَإِنَّكَ سَوْفَ تَرْحَلُ عَنْ قَرِيبٍ وَتَخْلُدُ فِي الْجَنَانِ بِصَبْرِ سَاعَةٍ

[من البحر الوافر]

تنبيه...!

انظر إلى الفراش، لو قنع بضوء المصباح لم يحترق باقتحامه فيه .
وقال بعض الصالحين - رضى الله عنه - : ليس القناعة بأكل الشعير،
ولبس الخشن، إنما القناعة بالرضا عن الله سبحانه .
والطمع أعظم آفة في العبد، وربما التبس للجاهل بالرجاء . وقد بين
ذلك الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - بقوله : الرجاء ما قارَنَهُ عَمَلٌ،
وإلا فَهُوَ أَمْنِيَّةٌ، وحقيقته : تعلق القلب بمحبوب يحصل في المستقبل مع الأخذ
في العمل .

وافهم قوله تعالى - : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ، فقد رَتَّبَ الرَّجَاءَ عَلَى الْعَمَلِ .

وقال الشيخ ابن عباد - رضى الله عنه - : من رجا شيئاً طلبه، ومن
خاف من شيء هرب منه .

وأما الرجاء الكاذب الذى يفتّر صاحبه عن العمل، ويجزئه على
المعاصى، والذّبون، فليس هو رجاء عند العلماء، ولكنه أَمْنِيَّةٌ، واغترارٌ بالله
تعالى .

(١) سورة البقرة - الآية رقم ٢١٨ .

وقد ذم الله تعالى قومًا ظنوا مثل هذا وأصرُّوا على حب الدنيا، والرضا بها، وتمنَّوا المغفرة على ذلك، فسَمَّاهم خُلَفَاءُ، والخُلَفُ، الرديُّ من الناس. قال - تعالى - : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ (١).

وقال بعضهم - رضى الله عنه - : من رجا من غير عمل، وقال : رحمة الله واسعة، فذلك رجل أحرق، ومنهم من جعله بدعيًا، ومنهم من جعله فاسقًا.

وروى أن سهل بن عبد الله - رضى الله عنه - قال : أصل المعاصي قول العبد إن الله غفور رحيم فيطمع في المغفرة والرحمة من غير عمل، ومن قال إنه توكل على سعة فضل الله ورحمته، وأنه حسن الظن بالله.

فهو راجٍ فقط مع شرط العمل كما تقدم لكن يحتاج من الخوف بمقدار رجائه، وذلك شأن المؤمن يستوى عنده الخوف والرجاء، وإلا فهو مغرور، وهلاً حسن ظنه، وقوى رجاءه في إيصال الرزق المضمون له، وصدق بأن الله هو الرزاق.

كما صدق بأن الله غفور رحيم، واستوى عنده حسن الظن في الحالتين، فأين هذا من أوصاف الإيمان؟ وهل درج أحد على ذلك من الصحابة، والتابعين، وصلاح المؤمنين.

وَأَمَّا أُمُورُ الدِّينِ مَا كَانَ سُنَّةً وَشَرُّ الْأُمُورِ الْمُحَدَّثَاتُ الْبَدَائِعُ

[من البحر الطويل]

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ١٦٩.

وأين غاب عقل هذا القائل ، وسمعه عند تدبر قوله - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (١) ، وقوله - تعالى - : ﴿ وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ﴾ (٣٩) وَأَنْ سَعِيَهُ سَوْفَ يَرَى ﴾ (٤٠) ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴾ (٢) ، وقوله - تعالى - : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴾ (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ (٣) .

وقوله - تعالى - : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ (٤) .

وقوله - تعالى - : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴾ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ (٥) .

قال ﷺ : " اَعْمَلُوا فِكُلُّ مِيسَرٍ لِّمَا خُلِقَ لَهُ " (٦) .

تنبيه:

لو كان حسن الظن والطمع في الجنة يفيد بلا عمل لاسيما مع كثرة المخالفة، والزلل، ما قال ﷺ : يا صفية عمه رسول الله، ويا فاطمة بنت محمد . . أنقذا أنفسكما من النار، فإنني لا أغني عنكما من الله شيئا (٧) .

وقد خاف الصحابة، وأكابر العارفين، والعلماء العاملين - رضى الله عنهم - من دخول النار وسوء الخاتمة . قال الجزائري - رضى الله عنه - :

(١) سورة النور - الآية رقم ٥٢ .

(٢) سورة النجم - الآيات ٣٩ - ٤١ .

(٣) سورة النازعات - الآيات ٣٧ - ٤١ .

(٤) سورة الزلزلة - الآيتان ٧ - ٨ .

(٥) سورة العصر .

(٦) رواه الطبراني في معجمه الكبير .

(٧) مروى في مراسيل عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه .

... النَّوَاهِي خُصُوصًا سُوءَ خَاتِمَةٍ قَدْ خَافَ مِنْهَا فَحُولُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ

[من البحر البسيط]

وقال الإمام أبو حامد الغزالي - رضى الله عنه - : ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة، والنفاق، والكفر، وجملة من الأوصاف المذمومة، ولذلك اشتد خوف الصحابة والتابعين - رضى الله عنهم - من النفاق، فانظره فى باب الرجاء والخوف من الإحياء .

قال عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - : ليتنى كنت هناداً وهو الذى قيل فيه إنه آخر من يخرج من النار ويدخل الجنة .

وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه - حين سمع بهذا الحديث : يا ليتنى كنت ذلك الرجل ، فقليل له فى ذلك . . فقال : أليس يخرج من النار؟ .

وكان بشر الحافى - رضى الله عنه - يقول إذا سمع " مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ " (١) ، من لى بأن يختم لمثلى بمثلها؟

ثم يبكى . فانظر من هو أعرف بالله ، وأقرب لرحمته هل هؤلاء الأئمة الكرام ، أو غوغاء العوام .

وما أدهش الفحول ، وأذهل العقول إلا قوله ﷺ : " إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى لَا يَبْقَى بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ إِلَّا شِبْرٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَيَكُونُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ " أو كما قال - ﷺ .

فإن قلت : هذا الحديث يعارضه حديث : الرجل على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه " (٢) .

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والحاكم .

(٢) انظر الجامع الصغير .

فالجواب: أنه لا معارضة بينهما، لأن من ختم له بخير، فذلك أمر سابق فى الأزل وكان مطوياً عليه، وإن كان يخالفه عمله الظاهر، ومن ختم له بشر - والعياذ بالله - فذلك إذ لا عبرة بالظاهر، "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ لِأَعْمَالِكُمْ" (١) الحديث.

وقال عَلَيْهِ السَّلَام: "مَا أَتَانِي جَبْرِيلُ قَطُّ إِلَّا وَهُوَ خَائِفٌ يَرْعُدُ مِنْ هَيْبَةِ اللَّهِ" (٢).

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : تستريح البهائم، والطيور، والحيتان، وأنا مرتهن بعملى! وقال الفضيل بن عياض - رضى الله عنه - : خوف العباد من الله على قدر معرفتهم به. وهو معنى قوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (٣)، أى العارفين به.

وقال عمران بن حصين - رضى الله عنه - : والله.. إني لأود أن أصير رمادا تسفنى الرياح عاصفة.

وقال عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - : لولا الغفلة لمات الخلق كلهم من خشية الله - عز وجل - .

وكان مالك بن دينار - رضى الله عنه - يقول: يمنى أحدكم نفسه بدخول الجنة، والتنعيم بالخور والقصور، وهو مستوجب للسعير، والثبور.

ووقف الفضيل فى يوم عرفة، قابضاً على لحيته يبكى من الزوال إلى الغروب، وهو يقول: واسوأته... وإن غفرت لى.

وكانت رابعة العدوية - رضى الله عنها - تبكى، وترش دموعها حولها حتى يظن الداخل أن ذلك ماء المطر، أو الوضوء..!!

(١) انظر الجامع الصغير.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) سورة فاطر - الآية رقم ٢٨.

فإن قيل: هذا مقامٌ عالٍ، لا يخاطب به أمثالنا الضعاف!

فالجواب: إن الضعيف هو الذى لا يدبر مع الله - تعالى - قاله بعض العارفين - رضى الله عنهم -، وأين غاب عنه الضعف فى طلب الدنيا، حين لا يملُّ من الحرص عليها، ولا يقنع بالكثير منها، وكيف يستعظم هذا المقام، ويطمع أن يزاحم أهله فى دار المقام؟!!!

والعبد مطالب بالمقامات الثلاثة: مقام الإيمان، ومقام الإسلام، ومقام الإحسان، بدليل قوله ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام، وسأله عن الإيمان، والإسلام والإحسان، ذلكم جبريل جاء يعلمكم دينكم^(١). قال الإمام البخارى - رضى الله عنه - : فجعل ذلك كله ديناً وهذا تعليم لأئمة ﷺ فالإسلام هو انقياد الظاهر لما كُلف من وظائف الدين مع ما لا بد له منه من التصديق.

والإيمان: تصديق القلب بجميع ما نظمه الدين من الإخبار بالغيوب، مع ما لا بد منه من شُعبه، والإحسان: تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية، والإيمانية على كمال شروطها.

وتمام وظائفها خالصة من شوائبها، سالمة من طوارقها، ويفاتها، والإسلام داخل تحت الإيمان، فلا إيمان لمن لا إسلام له.

والإسلام والإيمان داخلان تحت الإحسان، فلا إحسان لمن لا إسلام له، ولا إيمان له، انتهى، من شرح المباحث.

وعلى ذلك كله كان السلف الصالح، أئمة الموحدين، ونجوم المهتدين، وهم القدوة لمن بعدهم.

(١) رواه مسلم

وإذا كانوا على جلالة قدرهم، وعلو منصبهم، وكمال معرفتهم بربهم، يخافون، كما تقدم، فكيف لا يخافه المتلطفون بالذنوب، الذين ساءت أعمالهم، وطالت آمالهم.

تنبيه...

قال معروف الكرخي - رضى الله عنه - : طلب الجنة بلا عمل، ذنب^١ من الذنوب، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق.

وقالوا: من زعم أن الرجاء مع الإصرار صحيح، فكذلك فليزعم أن طلب الربح في الفقر، وقدر النار من البرد صحيح.

وقال عليه السلام: " الكَيْسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْأَمَانِي " (١).

فائدة:

سئل سعيد بن جبير - رضى الله عنه - عن الاغترار بالله ما هو؟ فقال: هو تمادى العبد في العصيان، ثم يتمنى على الله المغفرة.

وفى الزبور: يا داود... قل لبنى إسرائيل: أراكم تتمنون على الجنة لأعمالكم الزكية؟ أم لهجرانكم أهل المعاصي من أجل؟ أم لتترككم أكل الحرام.

كلا سوف تعلمون إذا نوقشت الوحوش والبهائم عن زلاتها، ثم صارت تراب.

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

وقال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : إن قومًا ألتهتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم حسنة، يقول أحدهم: أحسن الظنِّ بربى... كذب!، لو حسنَ الظنَّ به لحسنَ العمل. وتلا قوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١).

وكان - رضى الله عنه - يقول: عباد الله... اتقوا هذه الأمانى، فإنها أودية النُّوكى، يحلون فيها، والله... ما آتى الله عبداً قط بأمانيه خيراً فى الدنيا، ولا فى الآخرة.

وكتب أبو محمد المنصورى إلى بعض إخوانه: أما بعد... فإنك أصبحت تؤمل بطول عمرك، وتتمنى على الله الأمانى بسوء فعلك، فأنت تضرب حديداً بارداً.

وقال الفضيل بن عياض - رضى الله عنه - : المؤمن يغرس نخلاً، ويخاف أن تثمر شوكتاً! والمنافق يغرس شوكتاً، ويطمع أن تثمر رطباً.

وقد اتفق العلماء على أن المؤمن يكون بين الرجاء والخوف، كالطير بين جناحيه لأنه مطالب بهما معاً، بدليل قوله - تعالى - : ﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ (٢).

وقوله - تعالى - : ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (٣).

وقوله - تعالى - : ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (٤).

(١) سورة فصلت - الآية رقم ٢٣.

(٢) سورة الأعراف - الآية رقم ٥٦.

(٣) سورة الإسراء - الآية رقم ٥٧.

(٤) سورة الزمر - الآية رقم ٩.

وقد كان ﷺ متواصل الأحزان، دائم البشر، واستحب بعضهم أن يغلب فى صمته جانب الخوف، ليحمله على العمل، وفى مرضه جانب الرجاء ليموت حسن الظن بربه، وردّه بعضهم.

فإن العبد فى كل لحظة هو بصدد الموت، وحيث كان الأمر مبهمًا، وجب أن يكون المؤمن راجيًا، خائفًا، وذلك كله بيد الله سبحانه ولا اختيار للعبد فى ذلك.

قال الشيخ أبو الحسن - رضى الله عنه - : وقد أبهت الأمر علينا، لنرجو ونخاف، فأمن خوفنا، ولا تخيب رجاءنا.

وقال سيدى على الخواص - رضى الله عنه - : إذا كنت مؤمنًا وسمعت أن الله تعالى يمدح المؤمنين، فلا تبادر إلى كونك مؤمنًا، وتأمل قبل ذلك هل أنت على ما وصف الله المؤمنين من الصفات التى مدحهم عليها أم لا؟ ثم . . . إن كنت على ما وصف، فهل تموت على ذلك أم لا؟

فإن علمت أنك تموت على ذلك فقد أمنت مكر الله، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، وإن عملت أنك تموت على غير ذلك فقد أيست من روح الله، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، فكن بين الخوف والرجاء، فإنه الصراط المستقيم، وأما الطمع فى الخلق فهو مضاد لحقيقة الإيمان، قال فى التنبيه: الطمع من أعظم آفات النفوس، وعبوبها القاذحة فى عبوديتها، بل هو أصل جميع الآفات.

لأنه محض تعلق بالناس، والتجاء إليهم، واعتماد عليهم، وعبودية لهم، وفى ذلك من الذلة والمهانة، مالا مزيد عليه، والمؤمن لا يذل نفسه. وقيل:

حَرَامٌ عَلَى مَنْ وَحَّدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَأَفْرَدَهُ أَنْ يَحْتَدِيَ أَحَدًا رِفْدًا
وَيَا صَاحِبِي قِفْ لِي مَعَ الْحَقِّ وَقْفَةً أَمُوتْ بِهَا وَجَدًا، وَأَحْيَا بِهَا وَجَدًا
وَقُلْ لِمُلُوكِ الْأَرْضِ تَجْهَدُ جَهْدَهَا فَذَا الْمُلْكُ مُلْكٌ لَا يُبَاعُ وَلَا يُهْدَى
[من البحر الطويل]

وقال فى التنبيه أيضاً: الطمع انقياد إلى الأوهام الباطلة، لأن الطمع تصديق الظن الكاذب.

قال أبو بكر بن الوراق: لو قيل للطمع: مَنْ أبوك؟ لقال: الشك فى المقدور...!، ولو قيل له: ما حرفتك؟ لقال: اكتساب الذل!، ولو قيل له: ما غايتك؟ لقال: الحرمان! . والطماع فاسد الدين، مفلس من أنوار اليقين.

قال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه -: تطهّر من الطمع فى الخلق، فلو تطهّر الطامع فيهم بسبعة أبحر، ما طهره إلا الإياس منهم، ورفع الهمة عنهم.

وقال فى الحكم: ما بسقت أغصان ذل، إلا على بذر طمع.
وقال - رضى الله عنه -: أنت حرٌّ مما أنت عنه آيس، وعبدٌ لما أنت له طامع.

وقال بعضهم: العبد حرٌّ ما قنع، والحر عبدٌ ما طمع.
وقيل: إن العقاب يطير فى فضاء عزه بحيث لا يرتفع طرفٌ إلى مطارّه، فيعلق بالشبكة جناحه، فيصيده صبيٌّ يلعب به!!.

وكذلك الطامع فى الخلق، يذل نفسه إليهم، ويذلونه، ويملون رؤيته، ويتجنبون لقاءه، مع ما فى ذلك من الإعراض عن باب الله تعالى، وتعلق

القلب بالمخلوق فى طلب ما لم يُقدَّر له . وقد قالوا: مَنْ طَلَبَ ما لَمْ يُخْلَقْ
أَتَعَبَ نَفْسَهُ وَلَمْ يَرْزُقْ!! .

وقال بعضهم: ما كتب لِمَاضِيكَ أَنْ يَمْضِغَاهُ، لَأَبْدَّ أَنْ يَمْضِغَاهُ، فَكُلُّهُ
- ويحك - بعز ولا تأكله بِذُلِّ .

وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : مكتوب على ظهر
الحوت فى البحر، وعلى النواة فى التمر: هذا رزق فلان بن فلان لا يأكله
غيره!! . فالمقدور واصل لا محالة، كما قيل:

مَنْ لَهُ فِي الْغَيْبِ شَيْءٌ لَمْ يَمُتْ حَتَّى يَنَالَهُ
وكيف يُعطى المخلوق ما لم يقدره الخالق؟! . . وأنشدوا:

إِذَا أُعْطِشْتُمْ أَكْفُ اللَّئِمِ كَفَتْكَ الْقَنَاعَةُ شِبَعًا وَرَبًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هَمَّتْهُ فِي الثَّرِيَّا

[من البحر المتقارب]

وقال غيره:

أَرْضَ بَادِنَى الْعَيْشِ وَاشْكُرْ عَلَيْهِ	شُكْرٌ مِنَ الْقَلِّ كَثِيرٌ لَدَيْهِ
وَجَانِبِ الْحَرِصِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ	يَحْطُّ قَدْرَ التَّرَاقِي عَلَيْهِ
وَحَامٍ عَنْ عَرْضِكَ وَأَسْتَبْقِهِ	كَمَا يُجَافِي اللَّيْثُ عَنْ لِبْدَتِيهِ
وَأَصْبِرْ عَلَى مَا نَابَ مِنْ نُوْبٍ	صَبْرَ أُولَى الْعَزْمِ وَأَغْمِضْ عَلَيْهِ
وَلَا تُرْقِ مَاءَ الْمُحْيَا وَلَوْ	خَوَّلَكَ الْمَسْؤُولُ مَا فِي يَدَيْهِ
فَالْحَرُّ مَنْ إِنْ قَذِيَتْ عَيْنُهُ	أَخْفَى قَذَا جَفْنِيهِ عَنْ نَاطِرِيهِ

وَمَنْ إِذَا أَخْلَقَ دِيْبَاجُهُ لَمْ يَرَ أَنْ يُخْلَقَ دِيْبَاجَتِيهِ
[من البحر السريع]

ومن علم أن مولاه غنى، كريم، لا يؤلمه المنع، ويعلم أنه إنما منعه
لحكمة. كما قال فى الحكم: العطاء من الخلق حرمان، والمنع من الله
إحسان.

قال سفيان الثورى - رضى الله عنه - قال لى حبيب البدوى: يا
سفيان.. منع الله لك عطاء، فإنه لم يمنعك من بخل، ولا عدم، وإنما هو
نظر، واختيار، ورحم الله القائل:

فَلَا أَلْبَسُ النُّعْمَا وَغَيْرُكَ مُلْبَسَى وَلَا أَقْبِلُ الدُّنْيَا وَغَيْرُكَ وَاهِبُ
[من البحر الطويل]

قال الشيخ زروق - رضى الله عنه - عن بعض العارفين - رضى الله
عنهم -: قيل لى فى نوم كاليقظة، أو يقظة كالنوم: لا تبدين فاقة إلى
غيرى؛ فأضاعفها عليك مكافأة بسوء أدبك! وخروجك عن عدك فى
عبوديتك، إنما ابتليتك بالفاقة لتفرع منها إلى، وتتضرع بها لى، وتتوكل بها
على، سبكتك بالفاقة لتصير ذهباً خالصاً، فلا تزيفن هذا السبك، وسمتك
بالفاقة.

وحكمت لنفسى بالغنى، فإن وصلت بها بى، وصلت بالغنى، وإن
وصلت بها بغيرى، قطعت عنك مواد معونتى، وحسنت أسبابك من أسبابى
طرداً لك عن بابى، فمن وكلته إلى، ملك، ومن وكلته إلى نفسه هلك،
انتهى.

اللهم... لا تكلنا إلى غيرك، وأفض علينا ما تعودناه من خيرك آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الباب الخامس عشر

فى

التحذير من خاطة الغافلين

والحض على معرفة الصالحين

obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب الخامس عشر فى التحذير من خلطة الغافلين والحض على معرفة الصالحين

قال الله العظيم: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (١).

وقال - تعالى - : ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٢).

وقال - تعالى - : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (٣).

وقال - تعالى - : ﴿وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٤).

وأوحى الله إلى داود - عليه السلام - : يا داود . . كن يقظاناً، وارثاً لنفسك إخواناً، وكل خدين لا يوافقك على مسرّتى فلا تصحبه، فإنه لك عدو، يقسّى قلبك، ويبعدك منى.

وعن عيسى - عليه السلام - : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم، قيل : ومن الموتى؟ قال : المحبون للدنيا، الراغبون فيها.

(١) سورة الكهف - الآية رقم ٢٨.

(٢) سورة النجم - الآية رقم ٢٩.

(٣) سورة الزخرف - الآية رقم ٦٧.

(٤) سورة الفرقان - الآيتان ٢٧ - ٢٨.

وقال ﷺ: "الجلسُ الصَّالحُ، والجلسُ السُّوءُ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الْمِسْكِ، وكِيرِ الْحَدَّادِ، لَا يَعْدُمُكَ مَنْ صَاحِبِ الْمِسْكِ إِلَّا أَنْ تَشْتَرِيَهُ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبًا، وكِيرِ الْحَدَّادِ يَحْرِقُ ثَوْبَكَ، أَوْ بَيْتَكَ، أَوْ تَجِدُ مِنْهُ رِيحًا خَبِيثًا" (١).

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - : أوصانى حبيبى جبريل فى النوم، فقال: لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله.

ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعتك، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقينا وقليل ما هم.

وقال ﷺ: "أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي ضَعْفُ الْيَقِينِ" (٢).

وضعف اليقين إنما يكون من أهل الغفلة، وأرباب البطالة، والقسوة.

وقال وهب بن منبه - رضى الله عنه - : أوحى الله إلى داود - عليه السلام - يا داود لا تجالس من يحب الرياسة، ولا من يصحبك لنفسه.

وقال بعض الصالحين: قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله تعالى: كيف الطريق إلى التحقيق، والوصول إلى الحق، فقال: لا تنظر إلى الخلق؛ فإن النظر إليهم ظلمة، قلت: لأبدّ لى. قال: فلا تسمع كلامهم، فإن كلامهم قسوة، قلت: لأبدّ لى. قال: فلا تعاملهم؛ فإن معاملتهم خسران ووحشة، ووحشة.

قلت: أنا بين أظهرهم، لا بُدَّ من معاملتهم. قال: فلا تسكن إليهم، فإن السكون إليهم هلكة. قلت: هذا لعلة!! قال: يا هذا.. تنظر إلى اللعين، وتسمع كلام الجاهلين، وتعامل البطالين.

(١) انظر السيوطى الجامع الصغير.

(٢) لم نقف عليه.

وتسكن إلى الهلكى، وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع الله - عز وجل -!! هذا ما لا يكون أبداً.

وقال صلى الله عليه وسلم: " لَا يَصْلُحُ الْمَرْءُ حَتَّى يَصْلُحَ جَلِيسُهُ " (١).

وقال ذو النون المصرى - رضى الله عنه - على ما قيل عنه:

وَلَا عَيْشَ إِلَّا مَعَ رِجَالٍ قُلُوبُهُمْ تَحْنُ إِلَى التَّقْوَى وَتَرْتَاحُ لِلذِّكْرِ

[من البحر الطويل]

وقالوا: ما أفلح من أفلح إلا بمخالطة من أفلح، ولا فسد من فسد إلا بمخالطة من فسد.

وقال بعضهم: تعلموا اليقين بمجالسة أهل اليقين.

وقيل:

اخْتَرْ لَصُحْبَتِكَ مَنْ أَطَاعَا إِنَّ الطَّبَاعَ تَسْرِقُ الطَّبَاعَا

[من البحر السريع]

وقال بشر بن منصور - رضى الله عنه -: الاجتماع بالناس محل للغفلات، والله... ما جلس عندى أحد إلا ورأيت ترك مجالستى خيراً لى وله. وأنشدوا:

وَمَا ضَرَّنِي إِلَّا الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ جَزَى اللَّهُ بِالْخَيْرَاتِ مَنْ لَسْتُ أَعْرِفُ

[من البحر الطويل]

وقال سيدى على الخواص - رضى الله عنه -: خُصَّ البلاء بمن عرفه الناس، أو عرف الناس، فمن طلب سلامة الدين والدنيا؛ فلينج بنفسه إلى الذروة العليا.

(١) لم نقف عليه.

وهى الوجهة إلى الله سبحانه، بالإعراض عمّن يشغل عن ذكره، أو عن إقامة صلاة فى وقتها، أو أداء حق من حقوق الله - سبحانه - أو يورطه فى ذكر أعراض المسلمين، أو سماع محرم، أو بالتلذذ بذكر الدنيا، وزهوها، وأخبار أهلها، أو تمنى ما لم يُقدَّر له منها، وبالبحث عن أخبار الزمان.

والوقائع المرجفة، فصحة مثل هذا تُظلم القلب، وتُسخط الرب، وتنسى ما لديك من النعم الحاصلة، وتقوى حب العاجلة.

ومن ذلك الاغترار بخلطة التشبهين، الملبسين على العوام بإظهار التنسك، والتدين، وجمع الناس عليهم، وإظهار نصحتهم، وإرشادهم، ووعظهم، والتهيو للمشيمة من غير استحقاق، ولا إذن.

ويظهر أثر ذلك فى محبة النفس، والدنيا، وإيثارهما، والركون إلى أهلها، واتباع الهوى، وعدم حصول الفائدة فى معرفته بالإقلاع عن شىء من الأوصاف المذمومة ونهوض الحال.

قال فى الحكم: لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدللك على الله مقاله.

فللمصحوب شروط يطلبها من تعلقته همته بها، فما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمر.

ورحم الله القائل:

لا... وَالَّذِي حَجَّتْ قُرَيْشُ بَيْتَهُ	مُسْتَقْبِلِينَ الرُّكْنَ مِنْ بَطْحَائِهَا
مَا أَبْصَرَتْ عَيْنِي خِيَامَ قَبِيلَةٍ	إِلَّا حَسِبْتُ أَحَبَّتِي بِفَنَائِهَا
أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ	وَأَرَى نِسَاءَ الْحَى غَيْرَ نِسَائِهَا

[من البحر الكامل]

فقله - رحمه الله - : (أما الخيام فإنها كخيامهم) كان هذا فى زمانه،
وأما اليوم فلا والله ما هى كخيامهم، ولا مناسبة بينهم.

وكيف تكون المناسبة بين طالب الدنيا وطالب الله سبحانه وإنما ناسبوهم
كما ناسب الزنبر النحل، فما أقربهما فى الشبه! وما أبعدهما فى السرّ لمن
انتبه!

لقد حكيت ولكن فاتك الشنب

قال الحسن البصرى - رضى الله عنه - : مصارمة الفاسق قرينة إلى الله
- عز وجلّ - .

وقد اتفق كلام الصوفية على أن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها
كما أن التابع معدود من جملة المتبوع . قال - تعالى - حاكياً عن إبراهيم عليه
السلام : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ (١).

وقال ﷺ : " سَلَمَانُ مِّنْ أَهْلِ الْبَيْتِ " (٢).

ورحم الله القائل :

صَاحِبُ خِيَارٍ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَنْ يَصْحَبُ الْأَشْرَافَ يَوْمًا يَشْرُفُ
أَوْ مَا تَرَى الْجِلْدَ الْحَقِيرَ مُقْبَلًا لَمَّا أَقَامُوهُ غِشَاءَ الْمُصْحَفِ

[من البحر الكامل]

وقال حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - : من تشبه بقوم فهو منهم
ومن رضى فعل قوم فهو شريكهم .

(١) سورة إبراهيم - الآية رقم ٣٦ .

(٢) رواه الطبرانى والحاكم فى مستدركه .

وقال رجل للنبي ﷺ: متى الساعة يا رسول الله؟ فقال: "ما أعددت لها؟" قال لا شيء إلا أنى أحب الله ورسوله. فقال ﷺ: "المرء مع من أحب" (١).

وقال ﷺ: "من أحبَّ قوماً حشره الله في زمرة" (٢).

وقال ﷺ: "المرء على دين خليله فلينظر الإنسان من يخالل" (٣).

وقال عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - : لو أن رجلاً أقام بين الركن والمقام، يعبد الله - تعالى - سبعين سنة، وهو يحب ظالماً، لبعثه الله يوم القيامة مع من يحب! . وفى ذلك قيل:

عليك بأرباب الصدور فمن غداً مضافاً لأرباب الصدور تصدراً
وإياك أن ترضى بصحبة ساخط فتخط قدراً من علاك وتحقراً

[من البحر الطويل]

والعزلة عن الناس أجمع للفكر، وأعون على الذكر، وأسلم للدنيا وللدين، وراحة للكرايم الكاتيين. وقد قيل:

عش حامل الذكر بين الناس وأرض به فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته ولم يزل بين تحريك وتسكين

[من البحر البسيط]

وقال بعضهم: حرام عليك أن تتصل بالمحسوب، ويبقى لك فى العالمين مصحوب.

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد فى مسنده.

(٢) رواه الطبرانى فى معجمه والضياء.

(٣) رواه أبو داود والترمذى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضى الله عنه : إن إردت أن يكون لك نصيب مما لأولياء الله - تعالى - ، فعليك برفض الناس جملة ، إلا من يدلُّك على الله بإشارة صادقة ، وأعمال ثابتة ، لا ينقصها كتاب ولا سنة ، وأعرض عن الدنيا بالكلية .

ولا تكن ممن يعرض عنها ليعطى شيئاً على ذلك ، بل كن فى الدنيا عبداً لله ، أملك أن ترفض عدوه .

وقال - رضى الله عنه - : إن كنت مؤمناً موقناً فاتخذ الكل عدواً ، كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(١) . قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مِنْ سَفَهٍ نَفْسَهُ ﴾ ^(٢) .

وقال ﷺ لعبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - : " كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ " ^(٣) .
وقال بعضهم : أنكر من تعرف ، ولا تتعرف لمن لا تعرف .

قال - تعالى - : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٤) إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ^(٥) .

وقالوا : الناس كالحجارة ، ما أخطأك منهم خير مما أصابك ! . وأنشدوا :

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ الْبُعْدُ مِنْهُمْ سَلَامَةٌ
وَقَدْ نَصَحْتُكَ فَاسْمَعْ لَا تُدْرِكَنَّكَ النَّدَامَةُ!

[من البحر المضارع]

(١) سورة الشعراء - الآية رقم ٧٧ .

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٣٠ .

(٣) رواه البخارى فى صحيحه .

(٤) سورة الجاثية - الآيتان ١٨ - ١٩ .

وقال وهيب بن الوردى - رضى الله عنه - : العافية عشرة أجزاء ،
تسعة منها فى الصمت ، وواحدة فى الهرب من الناس .

قال منصور بن عمار - رضى الله عنه - : قد تغير الزمان حتى كَلَّ فى
وصفه اللسان ، فلا ترى لبيباً إلا ذا كمد ، ولا عاقلاً واثقاً به أحد ، ما بقى من
العلم إلا الاسم ، ولا من الدين إلا الرسم .

لا تواضع فى هذا الزمان إلا لمخادعة ، ولا زهد إلا لجبله ، ولا أمر
بمعروف ، ولا نهى عن منكر إلا لحمية النفس ، فالناس اليوم ذئاب فى ثياب ،
إن استرفدتهم حرموك ، وإن استنصحتهم غشوك .

وإن كنت شريفاً حسدوك ، وإن كنت وضيعاً حقروك ، وإن كنت عالماً
جهلوك ، وإن كنت جاهلاً لم يرشدوك ، وإن نطقت قالوا : مهذارا ، وإن
تغافلت قالوا : بليدا ، فمعاشرتهم داء ، وشقاء ، والفرار منهم دواء وشفاء !

انتهى من شرح المباحث الأصلية للشطبي - رضى الله عنه - .

النَّاسُ دَاءٌ دَفِينٌ لَا دَوَاءَ لَهُمْ	تَحِيرَ الْعَقْلُ فِيهِمْ فَهُوَ مُنْذَهَلٌ
إِنْ كُنْتَ مُنْبَسِطًا سَمَّوكَ مَسْخَرَةً	أَوْ كُنْتَ مُنْقَبِضًا قَالُوا بِهِ ثَقُلٌ
إِنْ أَنْتَ خَالَطْتَهُمْ قَالُوا بِهِ طَمَعٌ	أَوْ أَنْتَ جَانَبْتَهُمْ قَالُوا بِهِ مَلَلٌ
وَإِنْ تَعَفَّفْتَ عَنْ أَمْوَالِهِمْ كَرَمًا	قَالُوا غِنًى .. وَإِنْ تَسَأَلَهُمْ بَخِلُوا
فَانْبِذْ جَمِيعَ الْوَرَى وَرَأْ ، وَكُنْ أَبَدًا	بِاللَّهِ مُعْتَصِمًا وَفَقْتُ يَا رَجُلٌ

[من البحر البسيط]

وقيل :

إِنْ عَلِمُوا بِخَيْرٍ أَخَفَوْهُ ، وَإِنْ عَلِمُوا
شَرًّا أَدَاعَوْا وَإِنْ لَمْ يَعْلَمُوا كَذَّبُوا

وكان سفيان الثوري - رضى الله عنه - يقول: هذا زمان السكزت،
وملازمة البيوت، والرضى بالقوت.

وقال الفضيل - رضى الله عنه -: من سخافة عقل الرجل كثرة
معارفه.

وقال - رضى الله عنه -: لا أجِدْ لَذَّةً، ولا راحة، إلا إذا جلست
وحدى!

وقال حاتم الأصم - رضى الله عنه -: اجعل الناس كالنار، لا تدن
منهم إلا عند الحاجة، وإن دنوت منهم فكن على حذر، كما تحذر من النار
إذا قربت منها.

وقال مالك بن دينار - رضى الله عنه -: ما بقى لأحد رفيق يساعده
على عمل الآخرة، إنما هم يفسدون على المرء قلبه.

وقالوا: من خالط العلماء أدبوه، ومن جالس السفهاء أفسدوه.

وأعظم الآفات صحبة الحداث، وحكى عن الشيخ زروق - رضى الله
عنه - أنه قال: كل ما يشغلك عن الله تعالى فهو حدث.

وقال بعض المشايخ - رضى الله عنهم -: أجمع الشيوخ على أن من
ابتلاه الله - تعالى - بصحبة الأحداث فهو عبد أهانه الله تعالى وخذله،
وعنه شغلّه، وللعقوبة أهله.

وأوصى بعضهم ولده فقال: يا بنى... لا تصحب إلا من يخاف الله،
فإن أحببك، نفعت فى الدنيا والآخرة، وإن كرهك لا تلحقك منه مضرة،
لأنه يرده عنك خوف الله تعالى، انتهى.

ولا تبغض أحداً لذاته، وليكن بغضك أو حبك لله تعالى، ولا تنكر

إلا ما أنكره الشرع، وأبغض الوصف، ولا تبغض الذات. وافهم قوله ﷺ
فى الثوم: "إنها شجرة أكره ريحها"^(١) ولم يقل أكرهها.

ولا يحملك البعد من الناس على إساءة الظن بهم، أو تنقصهم، فإنهم
عباد الله، وكلُّ ميسرٍّ لما خلق له، ومن وجد خيراً فليحمد الله.

فعليك أيها العبد بمعرفة العارفين، فإن فيها شفاء الداء الدفين، وبها
تنال محبته ورضاه، إذ لا بد للمؤمن ممن يريه، ويأخذ بيده ويرقيه.

قال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه -: من دخل الدنيا ولم
يصادف رجلاً كاملاً يريه، خرج منها وهو متلوث ولو كان على عبادة
الثقلين. كما قيل:

فَالْعَيْنُ تَنْظُرُ مِنْهَا مَا دَنَا وَنَأَى وَلَا تَرَى نَفْسَهَا إِلَّا بِمِرَاةٍ

[من البحر البسيط]

قال لى سيدنا - رضى الله عنه -: إنما عظم المخصوص فى قلب المريد
لأن مقصوده منه ومطلوبه أمر عظيم، وهو التوحيد لا غير، وأما قولهم:
اتخذوا عند الصالحين يداً فإن لهم دولة يوم القيامة^(٢). فهو ترغيب للضعفاء،
وأما من كان الله مقصوده فإنه لا يعتبر دنيا ولا آخرة، من كان عبداً لله
تعالى، لم يكن عبداً لغيره.

قال أبو هريرة - رضى الله عنه -: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيوقف بين
يدى الله تعالى فيقول الله - عز وجل -: هل أحببت لى ولياً حتى أحبك
لأجله.

(١) رواه مسلم والإمام أحمد

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية.

وقال فى روضة المحاسن : سئل النبى ﷺ عن أفضل الأعمال؟ فقال :
" جلوسك بين يدى ولى ولو بقدر حلب شاة " . فقيل له : يا رسول الله . . .
حيًا كان أو ميتًا؟ فقال ﷺ : " حيًا كان أو ميتًا؟ " .
انتهى بالمعنى .

ومن سعادة المؤمن أن يمن الله عليه بمن يدلّه عليه ، ويعرفّه الطريق
إليه . . فقد قالوا : إذا أراد الله بعبد خيراً أوقعه فى يد الصوفية .

قال سيدى على بن وفا - رضى الله عنه - : من ليس له أستاذ، ليس
له مولى ، ومن ليس له مولى فالشيطان أولى به .

وقال الشيخ أبو على الدقاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها لا تثمر ، وإذا
أثمرت لا يتم نتاجها ، انظروا إلى ما قتله البازى المعلم كيف جاز أكله ، وما
لم يقتله المعلم لم يجز أكله؟! .

يا معشر المريدين من لم ير مفلحًا ، لم يفلح ، ومن حضر بين يدى
مخصوص ولم يجد فى قلبه تعظيمًا له ، فذلك من سوء طويته ، لأن الولى
كالمرأة تظهر فيه صورة الرأى ، ومن كان مصروفًا ببلوى ، أو محجوبًا
بدعوى ، فليبك على نفسه فقد قيل :

وَالنَّجْمُ يَسْتَصْغِرُ الْإِنْسَانَ رُؤْيَاهُ وَالذَّنْبُ لِلْعَيْنِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغْرِ
[من البحر البسيط]

قال فى العهود : قال سيدى على الخواص : أنت على الصورة التى
تشهد عليها أستاذك فاشهد ما شئت ، وانظر ماذا ترى؟ فكما أن القبس لا
يؤثر فى الوقود البارد إلا دخانًا ، كذلك لا يتولد من صحبتك لشيخ بغير
صدق إلا دعاوٍ ورعونات .

وتعظيم الولي بتعظيم النبي ﷺ وذلك على قدر محبة الله تعالى .
قيل للإمام أبي حنيفة - رضى الله عنه - : أيُّما أفضلُ ، الأسودُ ، أو
علقمة - رضى الله عنهما - ؟

فتشهد ثم قال : والله . . . ما نحن بأهل لأن نذكرهما ، فكيف نفاضل
بينهما؟! . . .

وقال - رضى الله عنه - : إذا توجه مرید إلى شيخ فى دفع شىء من
العوارض الطارئة عليه من أمور الدنيا ، أو الآخرة ، ولم يزل العارضُ ، فذلك
من عدم صدق المرید ، لا من عجز الشيخ .

وإن لم يهتد لشيخ فهو من عدم صدقه أيضاً . وقد قالوا : جدُّ صدقاً ،
تجد مرشداً ، وعلى الله قصد السبيل ، وعليك بالطريق ، وعلى الله بالرفيق .

وقال الشيخ زروق - رضى الله عنه - : إنما جعل الله الشيخ مريباً ، لا
خالقاً ، ومعيناً لا موجداً ، ومن لم يهتد إليه أصلاً ، فلا ينكر وجوده ، فيقع
فى أمر عظيم .

وقال سيدى أبو المواهب التونسى - رضى الله عنه - : لا تخلو الدنيا
من رجال الله إلى قيام الساعة .

وقال الشطيبى فى شرح المباحث لابن البنا - رضى الله عنهما - :
والله . . لا خلت الدنيا من الرجال ، فإنهم دعائم الوجود على كل حال ، بهم
تمطر السماء ، وتثمر الخضراء ، وبهم تنزل الرحمة ، وبهم يرفع البلاء ، وليس
فساد الأرض من ذهابهم بل باختفائهم .

وحكى عن الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - أنه قال : إذا فسد
الزمان كان اختفاء أهل الله أكثر من ظهورهم مع بقائهم ، ووجودهم وذلك

لأن الله سلب التصديق من قلوب الخلق، فلا تنهرهم الموعظة، ولا تذكرهم الآيات، وهى علامة تمام الدنيا، انتهى.

وَإِذَا لَمْ تَرَ الْهَلَالَ فَسَلِّمْ لَأَنْاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصَارِ
فلا بد فى الخلق من محل نظرة الحق.

قال سيدى على بن وفا - رضى الله عنه - : وجود العارف بين الخلق أمان لهم من قيام القيامة. قال ذلك فى معنى قوله ﷺ : " لا تقوم الساعة وعلى وجه الأرض من يقول الله... الله " (١)، فالمراد به العارف بالله.

وقال - رضى الله عنه - : من أعظم من الله على العباد، أن يُظهرَ بينهم عارقاً وإن لم يعرفوه.

وقال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - فى لطائف المنن: ولا بد للشمس من سحاب، وللحسنة من نقاب، وقد ستر الله - سبحانه - أولياءه فلا يظهرهم إلا لمن أكرمه الله تعالى، وأراد به خيراً.

قال فى الحكم: سبحانه من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ولو يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

قيل لبعضهم: ما لنا لا نلقى الصالحين؟ فقال: لأنكم لا تسرون فى طريقهم وقد حجبهم الله - سبحانه - بما أظهر عليهم من أوصاف البشرية، صيانة أن يطلع على سرهم من لا يصلح لمعرفتهم.

وقد قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون!

وقال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه - لا يعرف الولي من لا يعرف الله لأنه عبده، فلا يعرفه إلا بعد معرفته.

(١) رواه مسلم والإمام أحمد.

وقال - رضى الله عنه - : والله... لولا أن الله تعالى يريد ستر أوليائه فى هذه الدار، ما سلَّط عليهم أحدًا يؤذيهم.

ثم إذا أكرمك الله بمعرفتهم فلاحظ حقوقها، وراع شروطها، وهى أن تكون لله، لا لشيء سواه، وسواء عليك وضعوك أو رفعوك، أو قربوك أو أهملوك، فمقصودك الله، لا يهملك سواه، بعد تطهير القلب من جميع الدعاوى، والقاء ما لديك من العلوم، والعمال، فتأتى بإناء فارغ، قابل للعمارة. كما قيل :

فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا

واعتبر ذلك بما وقع للشيخ أبى الحسن الشاذلى مع شيخه سيدى عبد السلام بن مشيش - رضى الله عنهما - حينما أتاه أولاً، وثانياً.

قال الشيخ ممشاد الدينورى: ما دخلت قط على فقير إلا وأنا خال من جميع النسب، والعلوم، والمعارف، انتظر بركات ما يرد على من رؤيته أو كلامه، وذلك لأن من دخل على شيخ بحظ انقطع بحظه عن بركات رؤيته، ومجالسته وآدابه.

تنبيه...

قال سيدى داود الباخرى - رضى الله عنه - : إنما كان العبد يدخله الوسواس فى الصلاة، ولا يدخله إذا سمع كلام عارف وهو بين يديه، لأن المصلى يناجى ربه، والمستمع للعارف يناجيه ربه.

وقال سيدى أبو المواهب - رضى الله عنه - : إساءة الأدب مع أهل الرتب توجب العطب.

وقال الشيخ شمس الدين الحنفى - رضى الله عنه - : الفقراء ما عندهم عصا يضربون بها من أساء الأدب، وما عندهم إلا تغيير خواطرهم .
وقال غيره: من أشغل مشغولاً بالله - تعالى - ظهر عليه المقت من حينه .

وفى بعض الأحاديث القدسية: " مَنْ آذَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ " (١) .
تنبيه...

قال الشيخ أبو عبد الله المغربى - رضى الله عنه - : إذا أراد الله أن يسلب إيمان عبد عند الموت سلطه على ولى يؤذيه، نسأل الله السلامة .
وقال - رضى الله عنه - : اطلب طريق ساداتك وإن قَلَّوا، وإياك طريق غيرهم وإن جَلَّوا . فجماع خير الدنيا والآخرة فى معرفة الصالحين .
قال الشيخ أبو المحاسن الفاسى - رضى الله عنه - : من استنكف عن خدمة الخصوص، ابتلى بخدمة أبناء الدنيا والصوص .
وقد أغنى عن هذا النزر القليل ما دوَّنه فى ذلك الأئمة - رضوان الله عليهم - فى كل جيل حرصاً على نفع العباد، وتنبهها لهم على معالم الرشاد . ورحم الله القائل :

وَمَفْتَا حُ أَبْوَابِ الْهَدَايَةِ وَالْخَيْرِ	زِيَارَةُ أَرْبَابِ التَّقَى مَرَهْمٌ يُبْرِى
وَتَشْرَحُ صَدْرًا ضَاقَ مِنْ سِمَةِ الْوِزْرِ	وَتُحَدِّثُ فِي الْقَلْبِ الْخَلَى إِرَادَةً
وَتُكْسِبُ مَعْدُومًا وَتَجْبِرُ ذَا الْكَسْرِ	وَتَنْصُرُ مَظْلُومًا، وَتَرْفَعُ خَامِلًا

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية .

عَلَيْكَ بِهَا فَالْقَوْمُ بَاحُوا بِسَرِّهَا وَوَصَّوْا بِهَا يَا صَاحِ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ
فَزُرْ وَتَأَدَّبْ بَعْدَ تَصْحِيحِ نِيَّةٍ تَأَدَّبَ مَمْلُوكٌ لَدَى الْمَلِكِ الْحَرِّ
وَلَا فَرْقَ فِي أَحْكَامِهَا بَيْنَ سَالِكٍ مَرْبٍ وَمَجْدُوبٍ وَحَيٍّ وَذِي قَبْرِ
[من البحر الطويل]

وقيل :

مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا صُحْبَةُ الْفُقَرَا هُمُ السَّلَاطِينُ وَالسَّادَاتُ وَالْأُمَرَا
فَاصْحَبَهُمْ وَتَأَدَّبْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَخَلَّ حَظَّكَ مَعَهُمَا خَلْفُوكَ وَرَا
[من البحر البسيط]

قال عليه السلام : " إِنَّ الْإِيمَانَ يَخْلُقُ فِي صُدُورِكُمْ يَخْلُقُ الثَّوْبُ فَجَدِّدُوهُ
بِمَلَاقَةِ الْإِخْوَانِ " (١).

وقال الشيخ أبو المواهب - رضى الله عنه - : حرمتهم أمواتاً كحرمتهم
أحياء ، والأدب معهم بعد موتهم كالأدب معهم حال حياتهم ، فلا يعرض
عنه ، ولا يمشى على قبره برجليه .

وقال - رضى الله عنه - : سمعت شيخنا أبا عثمان يقول : إذا زار
الإنسان قبر الولي ؛ فإن ذلك الولي يعرفه ، وإذا سلم عليه ردَّ سلامه ، وإذا
ذكر الله على قبره ذكر الله معه ، لاسيما إن ذكر لا إله إلا الله ، فإنه يقوم
ويجلس متربعا ، ويذكر معه ، وعلى هذا قول صاحب الحقائق والرقائق :
حاشا الصديق أن يموت .

وقال - رضى الله عنه - : التسليم للقوم أسلم ، ولكن الاعتقاد أغنم ،

(١) لم نقف عليه .

فكم استغنى بصحبتهم فقير، وانجبر كسير، وارتفع وضع، وستر شنيع،
ومات هوى، وهلك ظالم، وارتفعت مظالم، وفيهم ورد الحديث، بهم
ترزقون، وتمطرون، وترحمون، وفيهم قيل:

هُمُ الرَّجَالُ وَعَارٌ أَنْ يُقَالَ لِمَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمَعَانِي وَصَفِهِمْ رَجُلٌ

[من البحر البسيط]

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا فى حماهم، ويرزقنا رضاهم. آمين.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

obeikandi.com



obeikandi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الباب السادس عشر

فى الذكر وفضيلته، والدعاء وكيفيته...

الذكر أشرف العبادات، وأقرب الطرق إلى الله تعالى، وهو عَمٌّ على وجود الولاية، قاله الشيخ ابن عباد - رضى الله عنه - .

قال الإمام أبو القاسم القشيري - رضى الله عنه - : الذكر عنوان الولاية، ومنارة الوصلة، وتحقيق الإرادة، وعلامة صحة البداية، ودلالة صفاء النهاية، انتهى .

وأعظم فضائل الذكر وأشرفها، قول الله العظيم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا﴾ (١) .

قال الشيخ الورع - رضى الله عنه - فى معنى هذه الآية: اذكرونى فى زمان الغفلة، أذكركم بإنزال الرحمة، واشكروا لى بقصد القربة، ولا تكفرون بمساوى البشرية .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : "أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذُكِرْنِي" (٢) . وأى شرف للعبد أعظم من هذا، فَمَنْ أَفْضَلُ وَأَكْرَمُ، وأشرفُ، وأعظمُ ممن ذكره الله سبحانه، وكان الله معه، وأحدنا إذا سمع أن الملك ذكره يستطير قلبه فرحاً، ويكتسب به شرفاً .

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٥٢ .

(٢) رواه الشيخان .

فما ظنك بمن يذكره ملكُ الملوك ورب الأرباب؟ وقد أمر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بكثرة الذكر، وإدامة التسبيح، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۖ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾^(١)، قال في التنبيه: أى بالليل والنهار، وفى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والصحة والسقم، والسر والعلانية، وعلى كل حال.

وقال مجاهد: الذكر الكثير أن لا تنساه أبداً.

وقال بعضهم - رضى الله عنه -: لكل فريضة حظ معلوم، وعذر يسقطها إلا الذكر، بدليل الآية المذكورة.

وقال - تعالى -: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾^(٢).

فائدة:

قال ﷺ: "مَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ اللَّهِ أَحَبَّهُ تَعَالَى" ^(٣).

وقال سيدى أبو المواهب - رضى الله عنه -: إنما كان ذكر الله أكبر من الصلاة، لأن الصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لا تجوز فى بعض الأوقات بخلاف الذكر فإنه يستدام فى عموم الحالات.

قال - تعالى -: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤).

وقال - تعالى -: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ

(١) سورة الأحزاب - الآيتان ٤١ - ٤٢.

(٢) سورة النساء - الآية رقم ١٠٣.

(٣) رواه الديلمى فى مسند الفردوس (الجامع الصغير).

(٤) سورة الأحزاب - الآية رقم ٣٥.

مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿١﴾ .

وقال - تعالى - : ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ﴾ (٢) .

وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٣) .

وقال - تعالى - : ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ (٤) .

وقال ﷺ : " مَا عَمِلَ آدَمِيُّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ " (٥) ، رواه معاذ بن جبل رضى الله عنه .

وقال ﷺ : " أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ حَتَّى يَقُولُوا مَجْنُونٌ " (٦) .

وقال ﷺ : " إِذَا مَرَرْتُمْ بَرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا... قِيلَ : وَمَا بَرِيَاضُ الْجَنَّةِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : حَلَقُ الذِّكْرِ " (٧) .

وقال ﷺ : " لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ " (٨) .

(١) سورة الرعد - الآيتان ٢٧ - ٢٨ .

(٢) سورة البقرة - الآية رقم ١٩٨ .

(٣) سورة الحشر - الآية رقم ١٩ .

(٤) سورة التوبة - الآية رقم ٦٧ .

(٥) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٦) انظر الجامع الصغير .

(٧) رواه الإمام أحمد فى مسنده والترمذى فى سننه والبيهقى .

(٨) رواه ابن حبان .

وقال ﷺ: "ما من آدمي إلا لقلبه بيتان في أحدهما الملك وفي الآخر الشيطان فإذا ذكر الله تعالى خنس وإذا لم يذكر الله وضع الشيطان منقاره في قلبه ووسوس له" (١).

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه - عز وجل - : "من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق سؤال السائلين" (٢).

وقال ﷺ: "لا يموتن أحدكم إلا ولسانه رطب بذكر الله" (٣). وإذا داوم العبد على الذكر مات عليه لقوله ﷺ: "يموت المرء على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه" (٤).

وقال ﷺ: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ ذكر الله" (٥).

وقال ﷺ: "الذاكر الله مع الغافلين كالحی بين الموتى" (٦).

وقال ﷺ: "ما من ساعة تأتي على ابن آدم لا يذكر الله - عز وجل - فيها إلا كانت عليه حسرة وإن دخل الجنة" (٧).

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) لم نقف عليه.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ.

(٥) رواه الشيخان في صحيحيهما، والحاكم في مستدركه، والنسائي وابن ماجه.

(٦) لم نجد بهذا اللفظ إنما له شاهد قوى في معناه رواه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه.

(٧) لم نقف عليه فيما بين أيدينا من مصادر.

ورحم الله القائل :

الذِّكْرُ أَعْظَمُ بَابٍ أَنْتَ دَاخِلُهُ لِلَّهِ فَاجْعَلْ لَهُ الْإِنْفَاسَ حُرَّاسًا

[من البحر البسيط]

وشكا رجلٌ للحسن البصرى - رضى الله عنه - قسوة قلبه ، فقال له :
أدُنْ من مجالس الذكر .

وقال - رضى الله عنه - إن الذين أَلَسْتَهُمْ رَطْبَةً بذكر الله تعالى يدخل
أحدهم الجنة وهو يضحك .

قال سيدى عبد الوهاب الشعرانى - رضى الله عنه - : المراد بالرطوبة
عدم الغفلة ، فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا غَفَلَ يَيْسُ اللِّسَانُ ، وخرج عن كونه رطبًا .

وقال بعض العارفين - رضى الله عنهم - : القلب الغافل عن ذكر الله
تعالى تكثر فيه الخواطر الرديئة ، والوساوس ، والأوهام ، كالبيت المظلم تسكنه
الحشرات ، وتنسج فيه العنكبوت .

فإذا وَقَّفه الله تعالى للذكر استنار وانزاحت عنه الهموم والأكدار كالبيت
المظلم إذا دخله الضوء فرَّت منه الحشرات ، ولا تعمره مادام مستنيرًا .

قال - تعالى - : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ
قَرِينٌ ﴾ (١) .

فائدة...

قال أبو العباس الطوسى - رضى الله عنه - : المؤمن يتقوى بذكر الله
تعالى كما وقع لفاطمة رضى الله عنها حين طلبت من النبى ﷺ خادمًا

(١) سورة الزخرف - الآية رقم ٣٦ .

تطحن معها فعلمها رسول الله ﷺ التسبيح والتحميد والتكبير، وقال لها هي خير لك من خادم.

وقال وهب بن منبه - رضى الله عنه: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام، إن أسرع الناس مروراً على الصراط الذين يرضون بحكمي وألستهم رطبة بذكرى.

وقال عون بن عبيد الله - رضى الله عنه -: مجالس الذكر صقال القلوب وشفاء لها.

وقال فتح الموصلى - رضى الله عنه -: القلب إذا منع الذكر مات.

وقال ثابت البناني - رضى الله عنه -: إن أهل الذكر يحاسبون وعليهم من الذنوب أمثال الجبال، فيقومون وليس عليهم ذنب واحد.

وقال ﷺ: «ما من صيد يُصاد ولا شجرة تُعصد إلا لغفلتها عن ذكر الله»^(١).

وفى رواية: «ما صيد صيد ولا قطعت شجرة إلا لتضييع من التسبيح»^(٢).

وقال محمد بن على بن زيد العابدين - رضى الله عنهم -: إن الصواعق تنزل على المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكِر لله تعالى، وكل مصيبة سببها الغفلة عن الله تعالى إلا ما وقع للأكابر رضى الله عنهم، فإنهم أقوىاء، وجعل الله مصائبهم تعظيماً لأجورهم، لأن ثواب المصيبة أعظم من ثواب العبادات.

(١) لم نقف عليه فى المصادر التى بين أيدينا.

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية.

وقال داود الطائي - رضى الله عنه - : كل نفس تخرج من الدنيا عطشانة إلا نفس الذاكرين .

فعلى المؤمن أن لا يجلس ولا يقوم ولا ينام ولا ينتبه إلا على ذكر الله تعالى ، ويشغل لسانه عن الهذر ، وقلبه عن الأوهام والخواطر الردية بملازمة الذكر .

وكثيراً ما ورد من الأحاديث فيما يذكر عند النوم ، وعند الانتباه ، وفى الصباح والمساء ، وعند دخول المنزل ، والمسجد ، والخلاء ، والخروج منهم ، وعند الخوف ، والهجم ، والحزن ، والمرض ، والسفر ، والإياب .

وعند سماع الأذان ، والإقامة ، والدخول فى الصلاة ، وبعد السلام منها ، وبين صلاة الفجر والصبح ، وبعد صلاة المغرب ، والوتر إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعمول به عند الخاصة والجمهور ، وقد ألّفت من ذلك ما يسّر الله فيه فى غير هذا . والذكر على قسمين :

- ذكر قلبى وهو دوام الحضور مع الله سبحانه بحيث لا ينساه كما تقدم .

- وذكر لسانى ، وهو وإن كان دون الأول فليس للعبد تركه لعدم الحضور فيه ، فإن الغفلة عنه أشد من الغفلة فيه .

قال فى الحِكَم : فعسى أن يرفعك من ذكرٍ مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غفلة عما سوى المذكور ، وما ذلك على الله بعزيز .

وقال عمر - رضى الله عنه - : وأفضل من ذكر الله باللسان ، ذكر الله عند أمره ونهيهِ .

وقال الشيخ أبو الحسن الجمال - رضى الله عنه - : ذكر الله تعالى
باللسان يورث الدرجات وذكره بالقلب يورث القربات .

وأفضل الذكر لا إله إلا الله . قال ﷺ : «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ
قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (١) .

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : « لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حِصْنِي مَنْ قَالَهَا
دَخَلَ حِصْنِي وَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي » (٢) .

وقال ﷺ : «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٣) .

وقال ﷺ : «عَلَيْكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ فَأَكْثَرُوا مِنْهُمَا فَإِنَّ إِبْلِيسَ
قَالَ أَهَلَكْتَ النَّاسَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارَ، فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَهَلَكْتُهُمْ بِالْأَهْوَاءِ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ مَهْتَدُونَ» (٤) .

وقال ﷺ : «عَلَيْكُمْ بِهَذِهِ الْخَمْسِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» (٥) .

وقال ﷺ : «أَحَبُّ الْكَلَامِ إِلَى اللَّهِ أَرْبَعٌ لَا يَضُرُّكَ بَأْيُهُنَّ بَدَأْتَ سُبْحَانَ
اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ» (٦) .

وقال ﷺ : «أَمَرْتُ أَنْ أُقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِذَا قَالُوهَا
عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» (٧) .

(١) لم نقف عليه .

(٢) لم نقف عليه .

(٣) انظر السيوطى الجامع الصغير .

(٤) لم نقف عليه .

(٥) انظر الجامع الصغير .

(٦) رواه الإمام مسلم .

(٧) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

وقال ﷺ: «لَيْسَ عَلَى أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحُشَّةٌ فِي قُبُورِهِمْ وَلَا فِي نَشُورِهِمْ وَكَأَنِّي بِهِمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ قُبُورِهِمْ يَنْفُضُونَ التُّرَابَ عَنْ رُؤُوسِهِمْ وَهُمْ يَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ». وفي رواية: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ» (١).

وقال ﷺ: «جَدُّوا إِيمَانَكُمْ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» (٢).

وقال ﷺ: «لَنْ يُوَافِيَ عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَتَغْنَى بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ» (٣).

وقال ﷺ: «لَتَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ كُلُّكُمْ إِلَّا مَنْ أَبَى وَشَرَّدَ عَنِ اللَّهِ شُرُودَ الْبَعِيرِ عَنْ أَهْلِهِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ... وَمَنْ الَّذِي يَأْبَى؟ فَقَالَ: مَنْ لَمْ يَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَأَكْثَرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَبْلَ أَنْ يُحَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهَا، فَإِنَّهَا كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ، وَكَلِمَةُ الْإِخْلَاصِ، وَكَلِمَةُ التَّقْوَى، وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ، وَهِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ، وَهِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى، وَهِيَ ثَمَنُ الْجَنَّةِ» (٤).

وكان هجير أبى بكر لا إله إلا الله.

وقال مجاهد - رضى الله عنه - : ليكن آخر كلام أحدكم عند منامه لا إله إلا الله فإنها وفاة، لا يدرى لعلها تكون منية.

فائدة:

قال ابن عباس - رضى الله عنه - : لو يعلم المذنبون ما فى قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، لكثروا من ذكرها، فإن الليل والنهار أربعة

(١) الجامع الصغير.

(٢) انظر الجامع الصغير.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده والبخارى فى صحيحه.

(٤) رواه الطبرانى والحاكم.

وعشرون ساعة، وقول لا إله إلا الله محمد رسول الله أربعة وعشرون حرفاً كل حرف منها يكفر ذنوب ساعة.

وقال الشيخ أبو المحاسن الفاسي - رضى الله عنه - : أكمل الأذكار هو لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وقال سفيان بن عيينة - رضى الله عنه - : لا إله إلا الله بمنزلة الماء في النبات، فمن لم يكن معه لا إله إلا الله فهو ميت، ومن كانت معه فهو حي .

والمراد بالذكر معرفة المذكور لا مجرد حركة اللسان فقط... ! قال - تعالى - : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾^(١) .

وقال ﷺ : «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة» .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي - رضى الله عنه - : واجعلنا عند الموت ناطقين بالشهادة عالمين بها، والعلم بها هو أن تستحضر معناها وتعمل بمقتضاها .

قال سيدى داود الباخلي : إقبال القلب مع لا إله إلا الله خير من ملء الأرض عملاً مع الإعراض عن الله .

وقال بعضهم - رضى الله عنه - : إذا قلت لا إله إلا الله وأنت عابد هواك، ودرهمك ودنياك، ماذا يكون جوابك إذا قيل لك : يا عبدى لم تقول ما لا يكون؟ ﴿ لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾^(٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ^(٢) ، . . . أنت عابد هواك؛ ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾^(٣) ، وأنت

(١) سورة محمد - الآية رقم ١٩ .

(٢) سورة الصف - الآيتان ٢ - ٣ .

(٣) سورة الجاثية - الآية رقم ٢٣ .

عابد دنياءك ودرهمك «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ»^(١)، ما دمت تقول: لا إله إلا الله وأنت تسكن إلى مال، وأهل، ووطن، وتركن إلى ولد ومسكن.

فلمست بقائل. كل قول كذبه الفعل فهو مردود، لسان الحال أفصح من لسان المقال.

إن كان قولك لا إله إلا الله مثيراً معنى في القلب فلم تتعوذ بفلان؟ وترجو فلاناً وتخاف فلاناً، مادمت تقول: لا إله إلا الله وتتأنس بغيرنا!! فلسنا لك، ولست لنا.

من كان لله، كان الله له (كانوا لنا خاشعين، وكنا لهم حافظين، كانوا لنا وكنا لهم، يا عبدى... لم تلوذ بغيرى والأمور كلها بيدى...! أنا مالك الملوك أتصرف فى ملكى كيف أشاء، لا يكون فى العالم إلا ما أشاء، ولا يقع فى الكون إلا ما أريد، فلا تيأسوا ولا يقنط من رحمتى إلا الكافرون، انتهى بالمعنى.

وقال الشيخ السنوسى: لا إله إلا الله الحصن الأكبر، وهو علم التوحيد، من تحصن بها فقد حصل سعادة الأبد، ونعيم السرمد.

ثم قال: ومجرد قول لا إله إلا الله، لا يزن مثقال ذرة، ولا يعدل جناح بعوضة فانظر ما هو نصيبك من هذه الكلمة، فإن كان نصيبك منها روحها ومعناها. ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(٢)، وإن كان مجرد القلقلة بلسانك، قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا، فهو نصيب المنافقين ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾^(٣) الآية.

(١) رواه الإمام البخارى وابن ماجه.

(٢) سورة المجادلة - الآية رقم ٢٢.

(٣) سورة المنافقون - الآية رقم ١.

إن الله لا ينظر لأعمالكم ولا لصوركم، وإنما ينظر لقلوبكم^(١)، سلبوا معنى لا إله إلا الله فبقى معهم لقلقلة اللسان وهو ذكر الحصن لا معنى الحصن، فكما أن ذكر النار لا يحرق، وذكر الماء لا يروى.

وذكر الخبز لا يشبع، وذكر السيف لا يقطع، فكذلك ذكر الحصن لا ينفع، ثم قال: وهذه الكلمة مع معناها بمنزلة الروح مع الجسد، فكما لا ينتفع الجسد بلا روح، كذلك لا ينتفع بهذه الكلمة دون معناها، انتهى.

وقال الإمام ابن العربي - رضى الله عنه - : الذى يجب أن يعتقد فى معناها ولا يكفى غيره أن هذا التركيب الشريف قد احتوى على نفى وإثبات فالنفى . . . كل واجب الوجود غير مولانا جلّ وعزّ، وإن شئت قلت كل مستغن عن كل ما سواه مفتقر إليه كل ما عداه، وإن شئت قلت: كل مستحق العبادة غير مولانا جلّ وعلا، لأن هذه المعانى هى معنى (لا إله) . . .

إلى أن قال: وأما المثبت من معنى (إلا الله) فهو الفرد الموجود منه، وهو مولانا جلّ وعلا، الموضوع له اسم (الله) فقد بان لك من هذا أن المنفى هو المعدوم المستحيل وجوده مع الله، انتهى محل الحاجة منه.

فعلى العبد أن يكثر منها حتى تمتزج بلحمه ودمه، مستحضراً معناها، ويطلب من الله سبحانه أن يثبت فى قلبه علمها عند الشدائد، والرجوع إليها فى الدنيا والآخرة.

اللهم أحيها عليها، وامتنا عليها، وثبتنا عليها، حتى نلقاك عليها يا أرحم الراحمين . . .

(١) رواه الإمام مسلم وابن ماجه .

اللهم كما أنعمت علينا بها، ووفقتنا إليها فأقمنا بحقتها، وأحينا عليها، وثبتنا بقولها، وأمتنا عليها، وابعثنا عليها... يا أرحم الراحمين. وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

تنبيه...!

إذا أطلقها الله تعالى على لسان عبده، ووجد في نفسه خفةً، وارتياحًا لذكرها فليكن على يقين من ورود فضل الله عليه ورحمته، وإقباله عليه بمحض منته، لولا الوارد ما كان ورود.

فإذا استقر على ذلك استنار قلبه، وانشرح صدره، وانجلت عنه الأكدار، وانزاحت عنه الغيار، وصار ليله نهارًا، وظلمته أنوارًا، كما قيل:

لَيْلِي بِوَجْهِكَ مُشْرِقٌ وَظِلَامُهُ فِي الْكَوْنِ سَارٍ
وَالنَّاسُ فِي سُوقِ الظَّلَامِ وَنَحْنُ فِي ضَوْءِ النَّهَارِ

وأما (الله) فإنه اسم علم على ذات واجب الوجود، المستحق العبادة، وهو مولانا تبارك وتعالى، وملازمة ذكره تحدث في القلب سرًا عظيمًا. قال - تعالى - ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(١)، وهو جامع لمعاني الأسماء الحسنى.

قال الشيخ الورعجي - رضى الله عنه - : وأما (الله) فإنه اسم الجمع، لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من صفاته إلا (الله) فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته، لأجل ذلك هو اسم الجمع، أخبر الحق عن نفسه باسم (الله) فما يعرفه إلا هو.

وقال سيدى أبو العباس المرسى - رضى الله عنه - : جميع أسماء الله

(١) سورة الإنعام - الآية رقم ٩١.

تعالى جاءت للتخلق إلا اسم (الله) فإنه جاء للتعلق فقط، إذ مضمونه الألوهية، والألوهية لا يتخلق بها أصلاً، وكان يحث أصحابه على كثرة ذكر اسم (الله)، ويقول: هذا الاسم سلطان الأسماء، انتهى.

وذكر اسم الجلالة والهيللة يمكن ستره عن العيون فيكون إنسان مجتهداً في الذكر ولا يشعر به حاضروه لعدم تحرك الشفتين.

لأن مخارج حروف الكلمتين الشريفتين الحلق واللسان لا سيما مع الأسرار، وهو المطلوب هنا، وهذه الفائدة سمعتها من شيخنا العلامة سيدى أحمد بن الحاج رحمه الله.

وقال صاحب مفتاح الفلاح^(١): ومنهم من اختار لا إله إلا الله محمد رسول الله فى الابتداء والانتهاء، ومنهم من اختار لا إله إلا الله فى الابتداء، وفى الانتهاء الاقتصار على (الله) وهم الأكثرون.

ومنهم من اختار شيء، والقلب الواحد لا يصلح أن يكون محلاً لشيئين فضلاً عن أشياء، ومن امتلأ قلبه بصور المحسوسات، لو قال (الله) ألف مرة قلماً يشعر قلبه بمعناها، وإذا فرغ القلب من غير الله لو قال مرة واحدة (الله) يجد من اللذة ما لا يستطيع اللسان وصفه، انتهى.

وأفضل العبادة قراءة القرآن:

قال صلى الله عليه وسلم: «أَفْضَلُ عِبَادَةٍ أُمْتَى قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»^(٢).

وقال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَلَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ لَا أَقُولُ أَلَمْ حَرْفٌ وَلَكِنْ الْأَلِفُ حَرْفٌ وَاللَّامُ حَرْفٌ وَالْمِيمُ حَرْفٌ»^(٣).

(١) مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح فى ذكر الله - للإمام ابن عطاء الله السكندرى رحمه الله

بتحقيقنا - نشر دار الآفاق بالقاهرة ٢٠٠٩.

(٢) رواه البيهقى.

(٣) رواه البخارى فى تاريخه، والترمذى فى سننه، والحاكم فى مستدركه.

وفى الحديث: «حَمَلَةُ الْقُرْآنِ أَهْلُ اللَّهِ»^(١).
وجاء فيه: «شَافِعٌ مُشَفَّعٌ»^(٢).

فهو كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب سيد المرسلين، لينذر به وذكرى للمؤمنين. كما قال - تعالى - : ﴿ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ وَيَلْعَلُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾^(٣).

وقال - تعالى - : ﴿ حَمِّمْ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا^(٤).

والتفهم مع قلة القرآن أفضل... فإن النبي ﷺ قام ليلة بآية واحدة! وهى قوله - تعالى - : ﴿ إِن تَعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾^(٥).

قال أبو سليمان الداراني - رضى الله عنه - أنى لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال وخمس ليال ولولا أنى أقطع الفكر فيها ما جاوزتها إلى غيرها...!

وقال على بن أبى طالب - رضى الله عنه - : لو شئت أوقرت سبعين بغيراً من تفسير فاتحة الكتاب.

وحكى أبو طالب المكي - رضى الله عنه - عن بعض العلماء: إن لكل آية ستين ألف فهم، وما بقى من فهمها أكثر...!

(١) لم نقف عليه، انظر: الجامع الصغير.

(٢) روى أبو نعيم فى الحلية.

(٣) سورة إبراهيم - الآية رقم ٥٢.

(٤) سورة فصلت - الآيات ١ - ٤.

(٥) سورة المائدة - الآية رقم ١١٨.

وحكى عن بعض السلف انه بقى فى سورة ستة أشهر يكررها ولا يفرغ منها...!

خاتمة... فى الدعاء

وأما الدعاء فإنه لازم للعبودية لاتصاف العبد بالفقر، قال - تعالى - :
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١).

والعبد لا يستغنى عن فضل سيده فى كل حال من الأحوال، من صحة أو مرض، أو غنى أو فقر، أو عز أو ذل، أو قوة أو ضعف، أو شدة أو رخاء، أو قرب أو بُعد، أو غير ذلك... كما قيل:

كُلُّى إِلَيْكَ مَعَ الْأَنْفَاسِ مُحْتَاجٌ لَوْ أَنَّ فِى مِفْرِقَى الْإِكْلِيلِ وَالْتَّاجِ
[من البحر البسيط]

﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (٢) فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ.

وقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ يَسْتَحْيِ مِنَ الْعَبْدِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ فَيَرُدَّهُمَا خَائِبَتَيْنِ» (٣).

وقال عليه السلام: "مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُو إِلَّا اسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ دَعْوَتُهُ أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِثْلَهَا سَوْءًا أَوْ حَطَّ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدَرِهَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ" (٤).

وفى رواية: "مَا مِنْ أَحَدٍ يَدْعُو بِدُعَاءٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا سَأَلَ أَوْ كَفَّ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهُ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ".

(١) سورة فاطر - الآية رقم ١٥.

(٢) سورة النساء - الآية رقم ٣٢.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده، والطبرانى فى معجمه الكبير، وابن حبان والحاكم فى مستدركه.

(٤) رواه الترمذى فى سننه.

وقال ﷺ: " إِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَأَعْظِمُوا الْمَسْأَلَةَ فَإِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ " (١).

وقال ﷺ: " الدُّعَاءُ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِ وَعِمَادُ الدِّينِ وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ " (٢).

وهو مخ العبادۃ لما يلازمه من الافتقار والرجوع إلى الله بنعت الضعف والاضطرار والذلة والانكسار، وهذا وصف العبد.

ووعد الله - سبحانه - الداعي بالإجابة، فهي مضمونة على كل حال، قال - تعالى - : ﴿ أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا ۖ ﴾ (٣).

وقال - تعالى - : ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۖ ﴾ (٤) صدق الله العظيم... فإذا وجد العبد من قلبه رقة أو حلاوة عند الدعاء فليعلم أنها ساعة رحمة، وليغتنمها، بقوله ﷺ: " التَّمَسُّوا الدُّعَاءَ عِنْدَ الرِّقَّةِ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ رَحْمَةٌ " (٥).

وقال سعيد بن جبیر - رضى الله عنه - علامة الإجابة حلاوة الدعاء ولا يستعجل الداعي الإجابة فإنها وإن كانت محققة ففي الوقت الذى يريد الله تعالى وفيما يختاره لعبده، فقد يدعو العبد بما لا ينفعه، ويستعجل ما يضره لأنه متصف بالجهل.

قال فى الحِكم: فهو ضمن لك الإجابة فى الوقت الذى يريد لا فى الوقت الذى تريد وفيما يختار لك لا فيما تختاره أنت لنفسك.

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه أبو يعلى فى مسنده والحاكم فى مستدركه.

(٣) سورة البقرة - الآية رقم ١٨٦.

(٤) سورة غافر - الآية رقم ٦٠.

(٥) لم نقف عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى - رضى الله عنه - : لا يكن همك فى دعائك الظفر بحاجتك فتكون محجوباً وليكن همك مناجاة مولاك .

وليس الدعاء سبباً فى حصول المطلوب ، فإن الله سبحانه من سعة فضله وكرمه ، يعطى قبل السؤال فوق ما يطمع به العبد أو يخطر له ببال ، وأى دعاء سبق حين أعطانا الإيمان وغيره؟

وكيف يكون دعاؤنا اللاحق سبباً فى عطائه السابق؟ كما قال الشيخ ابن عطاء الله - رضى الله عنه - وإنما ذلك صنع الله فى الأزل ومشيتته النافذة ، وعلة كل شىء صنعه ، ولا علة لصنعه .

فلم يبق إلا التعبد بالدعاء لقوله ﷺ : "الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ" (١) . وعلى كل حال فصاحبه لا يعدم خيره إذا كان الداعى مستحضر القلب مجموع الفكر ، قاطعاً نظره عن الأسباب .

تنبيه....!

لا يطلب الداعى إلا ما دعت الضرورة إليه ما جرت به الآلئنة من غير حضور ولا اضطرار .

قال الشيخ سيدى أحمد زروق - رضى الله عنه - : ومن آدابه أن لا يسأل إلا ما يقابله فى الوقت والمحتاج إليه .

قال ﷺ : "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ دَعَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ غَافِلٍ" (٢) .

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ، وابن أبى شيبه ، والبخارى فى الأدب ، وابن حبان والحاكم فى مستدركه .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والمنذرى فى الترغيب .

فإذا استجمع الداعي الشروط فلا يستعجل الإجابة، لقوله ﷺ: "يَسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، فيقول: دَعَوْتُ فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي" (١).

ومن أكد الآداب تجنب الحرام مأكلاً، ومشرباً، وملبساً، ومركباً، ومسكناً، ثم الوضوء، واستقبال القبلة، والصلاة، والجثو على الركب، والثناء على الله تعالى بما هو أهله، والصلاة على النبي ﷺ أولاً وآخرًا.

فإنها مقبولة، ومولانا - سبحانه - أكرم من أن يدع ما بينهما، ولا تكن هذه الصلاة هنا لهذا الغرض فقط فيبطل العمل، وإنما تكون عبادة، وهى أهم من مطلب حظوظه لحديث: "لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ وَمَالِهِ" (٢).

ومن ذلك: الدعاء بأسماء الله الحسنى، والتوسل بجاه النبي ﷺ لقوله - تعالى - : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (٣)، ولقوله ﷺ: "تَوَسَّلُوا بِجَاهِي فَإِنَّ جَاهِي عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ" (٤).

وملازمة الخشوع مع خفض الصوت، والاضطرار، والإلحاح، وتعميم الجماعة إن كان إمامهم، ولا يخص نفسه دونهم فيكون غاشاً لهم، لأنهم ما قدموه إلا ليتشفع إلى ربه، للحديث: "أُئْتِكُمْ شُفَعَاؤُكُمْ" (٥).

ومن أوقات الإجابة السجود لقوله ﷺ: "أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ" (٦).

(١) حديث "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل. يقول: قد دعوت فلم يستجب لي". رواه الشيخان وأبو داود في سننه والترمذى وابن ماجه في سننهما (الجامع الصغير).

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) سورة الأعراف - الآية رقم ١٨٠.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) أخرجه الدارقطنى والبيهقى.

(٦) رواه مسلم في صحيحه وأبو داود والنسائى.

وعند ختم القرآن، وعقب القراءة، ونزول المطر، وإذا استيقظ من الليل وقال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله اللهم اغفر لي أو يدعوا فيستجاب له.

وليكن أهم ما يطلبه مرضاة الله تعالى، وتوفيقه للقيام بحقوقه الواجبة عليه، مع علمه بأنه لا يستحق ذلك فيكون عبد الله تعالى.

قال في الحكم: خير ما تطلبه منه ما هو طالبه منك.

فائدة...

قال الشيخ أبو المحاسن الفاسي - رضى الله عنه - : الدعاء يكون على امتثال الأمر، وإظهار الفاقة ظاهراً، والرضا والتسليم باطناً.

وقال الشيخ القشيري - رضى الله عنه - : شرُّ الناس من يتهل إلى الله تعالى عند هجوم البلاء فإذا زالت شكايته، ورفعت عنه آفته ضيع الوفاء، ونسى البلاء، وقابل الرfid بنقض العهد، أولئك الذين أبعدهم الله في سابق الحكم وخرطهم في سلك أهل الرد.

ومتى أطلق الله تعالى لسان عبده بالطلب فهو دليل العطاء، قال ﷺ: "مَنْ فُتِحَ لَهُ فِي الدُّعَاءِ مِنْكُمْ فَتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْإِجَابَةِ".

قال في الحكم: متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه أراد أن يعطيك.

وقيل:

لَوْ لَمْ تُرِدْ نَيْلَ مَا أَرْجُو وَأَطْلُبُهُ مِنْ فَيْضِ جُودِكَ مَا عَلَّمَنِي الطَّلْبَا

[من البحر البسيط]

وقد شرع لنا رسول الله ﷺ الدعاء، وبين كيفيته، وعلم آدابه في أحاديث كثيرة منها: قوله ﷺ وكان أكثر دعائه: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" (١).

وقيل له في ذلك فقال: "إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ".

وقوله ﷺ: "سَلِ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (٢).

وقوله ﷺ: "اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (٣).

وقوله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (٤).

وقوله ﷺ: "قُلْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (٥).

وقوله ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالسَّلَامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بَرٍّ وَالْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارِ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ" (٦).

وقد رتب الأئمة - رضوان الله عليهم - أدعية مخصوصة مستنبطة من

(١) روى الدارقطني في كتاب الصفات.

(٢) رواه البخاري في التاريخ، والحاكم في مستدركه.

(٣) انظر: كنز العمال.

(٤) رواه الشيخان في صحيحيهما، والإمام أحمد في مسنده، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه.

(٥) رواه مسلم في صحيحه والإمام أحمد في مسنده وابن ماجه.

(٦) رواه الحاكم في مستدركه.

حديث النبي ﷺ، لأن أثر أسرار الأولياء مقيدة بأسرار الشريعة، فمن أراد
نجح مقصده فليقدم الشرعيات ثم يتبعها بما هو من نوعها.

قاله الشيخ زرُّوق - رضى الله عنه -، ثم قال: واعلم أن الذكر
والدعاء وغيرهما لا يبدل قدرًا، ولا يغير قضاء وإنما هي عبودية اقترنت
بسبب كاقتران الصلاة بوقتتها، ورَبَّ عليه الإجابة، كما رتب ثواب الصلاة
عليها.

والدعاء يفيد عين المقصود، أو اللطف فى القضاء، وسهولة الأمر على
النفس حتى تبرد حرارة الاحتياج التى هى مقصد الطالب.

فتوجَّه أيها الداعى إلى مولاك مفوضًا مستسلمًا، حسن الظن بالله فيما
تطلب، وأتبع ذلك بالرضا والتسليم، وربك هو الفتح العليم، انتهى بالمعنى.

فائدة..

فإن قيل: لم جعلت هذه الأحزاب والأدعية المرتبات، ولم تكن فى
الصدر الأول من الصحابة والتابعين؟

فالجواب ما قاله الشيخ أبو المحاسن الفاسى - رضى الله عنه - فيما
كتب به لبعض أصحابه: واعلم أنه لو كان الناس على القدم الأولى، وما كان
عليه السلف الصالح من سلامة الدين، والرسوخ فى اليقين، لم تر للقوم
اورادًا موظفةً، وأحزابًا مكلفة.

فلما قصرت المقاصد، وذهبت المشارب والموارد، جعل الأئمة رضى الله
عنهم، تلك الوظائف للمبتدئين، ومنارًا للطالبيين، حتى قيل إنها من روائع
الدين، ومنسأة له. وأما من قوى يقينه، وانشرح صدره، فهو فى غنى عن
ذلك كله، ومن هنا يفهم حال أكابر العلماء والعارفين.

حيث لم يواظبوا على قراءة الأحزاب المرتبة لاستغنائهم بما هم فيه من

غيتهم فى بحر التوحيد، ودوام الشهود والمراقبة، فهم وإن حضروا لذلك لا يتقيدون بما تتقيد به العامة، فهم حاضرون بالأشباح، غائبون بالأرواح، انتهى.

وقالوا: إذا ثبتت عدالة المرء يُترك وما فعل، لأن الانتقاد على الأكابر يلحق بالكبائر.

فائدة...

قال الشيخ أبو العباس زرّوق - رضى الله عنه - : إذا أردت العمل بذكر ورد عن ولىّ فى باب فقدّم ما ورد عن الشارع ﷺ فى ذلك ثم مثّل ذلك بمن أراد الخروج من الضيق إلى السّعة، فعليه بما كان الشيخ يعلمه أصحابه لذلك من قوله: يا واسع يا عليم يا ذا الفضل العظيم أنت ربى، وعلمك حسبى، إن تمسنى بضراً فلا كاشف له إلا أنت، وإن تردنى بخير فلا راد لفضلك، تصيب به من تشاء من عبادك وأنت الغفور الرحيم.

وليقدم ملازمة الاستغفار إذ جاء: إن الله يجعل لملازمه من كل أمر فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب^(١).

وليستعمل دعاء الكرب المروى فى البخارى وغيره: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم.

وفى رواية: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم^(٢).

وما فى (أبو داود) من حديث أبى أمامة الذى اشتكى ديوناً وهموماً اعترته، فعلمّه النبى ﷺ: اللهم إنى أعوذ بك من الهمّ والحزنّ وأعوذ بك من

(١) رواه أبو داود فى سننه وابن ماجه.

(٢) رواه الشيخان فى صحيحهما، والإمام أحمد فى مسنده، والترمذى فى سننه.

العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال^(١)، وقال: قلُّهُ بعد الصبح والمغرب.

وقال - رضى الله عنه - عن الشيخ أبى الحسن - رضى الله عنه - :
إذا أردت أن لا يصدأ لك قلب، ولا يلحقك هم ولا كرب، ولا يبقى عليك ذنب فأكثر من سبحان الله العظيم لا إله إلا الله، اللهم ثبت علمها فى قلبى واغفر لى ذنبى واغفر للمؤمنين والمؤمنات الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

وليستعمل معه: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فى حكمك، عدلٌ فى قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك.

أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور بصري، وجلاء حزني وذهاب همي وغمّي. فما قاله أحدٌ إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً^(٢). وهو حديث أخرجه ابن أبى الدنيا، والطبرانى والحاكم.

وقال عليه السلام: "ما أكربنى أمرٌ إلا تمثّل لى جبريلُ فقال: يا مُحمد قلْ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَى الَّذِى لَا يَمُوتُ، وَالْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِىٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبَّرَهُ تَكْبِيرًا"^(٣).

وأخرج ابن أبى الدنيا أيضاً عن أسماء، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وصححه السيوطى - الجامع الصغير

ج ١ ص ٦١.

(٢) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن أبى شيبه والحاكم فى مستدركه.

(٣) رواه ابن أبى الدنيا فى الفرج والبيهقى فى الأسماء.

"مَنْ أَصَابَهُ هَمٌّ أَوْ غَمٌّ أَوْ سَقَمٌ أَوْ شِدَّةٌ، أَوْ ذُلٌّ أَوْ لَأَوَاءٌ فَقَالَ: اللَّهُ اللَّهُ رَبِّي لَا أَشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، كَشَفَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُ" (١).

وقال الطرطوشي (٢) في سراج الملوك، عن بعضهم - رضى الله عنه - : عجبت لمن ابتلى بأربعة كيف يغفل عن أربعة!!، من ابتلى بالضرَّ كيف ينسى أن يقول: ربُّ مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾ (٣).

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف ينسى أن يقول: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤).

وعجبت لمن خاف كيف ينسى أن يقول: حسبي الله ونعم الوكيل. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ﴾ (٥).

وعجبت لمن مكر به كيف ينسى أن يقول: وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد.. والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ (٦).

وعجبت لمن أنعم الله عليه بنعمة خاف زوالها، كيف ينسى أن يقول: ما شاء الله لا قوة إلا بالله. كذا سنة الله تعالى فيمن صدق قلبه في اللجأ إلا إليه، ولم يتوكل في مهماته إلا عليه (٧)، انتهى.

(١) الجامع الصغير.

(٢) هو الإمام العلامة القدوة الزاهد شيخ المالكية أبو بكر محمد بن الوليد الأندلسي الطرطوشي الفقيه عالم الإسكندرية. وطرطوشة هي آخر حد المسلمين من شمالي الأندلس وقد استولى عليها العدو سنة ٥٤٣ هجرية.

(٣) سورة الأنبياء - الآية رقم ٨٤.

(٤) سورة الأنبياء - الآية رقم ٨٨.

(٥) سورة آل عمران - الآية رقم ١٧٤.

(٦) سورة غافر - الآية رقم ٤٥.

(٧) ذكر رحمه الله خمسة ابتلاءات وليس أربعة.

وقال ﷺ: " من كان دعاؤه اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، مات قبل أن يصيبه البلاء " (١).

ومن توقع بلاء أو أمراً مهولاً قال: حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا.

ومن استصعب عليه أمرٌ قال: اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن سهلاً إذا شئت (٢).

ومن ابتلى بالدين قال: اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمن سواك (٣). وفي رواية: اللهم فارج الهم كاشف الغم مجيب دعوة المضطرين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمني فارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك (٤).

وفي رواية: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، رحمن الدنيا والآخرة، تعطيهم من تشاء، وتمنع منهما من تشاء ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك. علّمهُ ﷺ لمعاذ وقال له: لو كان عليك مثل أحد ذهباً لوفاه الله عنك. وكل ذلك مروى عن النبي ﷺ.

وروى: " مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فِي مَرَضِهِ أَرْبَعِينَ مَرَّةً فَمَاتَ أُعْطِيَ أَجْرَ شَهِيدٍ، وَإِنْ بَرَّأَ بَرَّأً وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ جَمِيعَ ذُنُوبِهِ " (٥).

(١) رواه الطبراني في معجمه الكبير.

(٢) رواه ابن حبان وابن السني في عمل اليوم والليلة.

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه وقال حسن غريب والحاكم في مستدرکه

وسعيد بن منصور في سننه.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء.

(٥) أخرجه الحاكم.

"وَمَنْ قَالَ فِي مَرَضِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمَهُ النَّارُ" (١).

وقال ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ» (٢). انتهى.

(١) لم نقف عليه.

(٢) رواه الشيخان في صحيحيهما والإمام أحمد في مسنده والترمذي في سننه وابن ماجه.

obeikandi.com

خاتمة

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، ورضى الله تعالى عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم صلّ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.
كامل نسخاً ومقابلة من نسخة نسخت من نسخة بخط مؤلفة، غفر الله له ولوالديه آمين.

وكان الفراغ منه فى سابع شوال الأبرك رزقنا الله خيرَه ووقانا شرَّه سنة ١٢٩٥ هجرية بمدينة مراكوسه عمرها الله بالإسلام على يد ناسخه الجيلانى بن المصطفى العريفى، لملكه ومن رغب فى نسخه والتبرك به... على بن حجاج العريفى.

اللهم انفع به مؤلفه وكاتبه وكاسبه وقارئه ومستمعه ومن سعى فى تحصيل شىء منه وارحم الجميع يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الكائنات وبعد... .

obeikandi.com

الفهرس العام

الموضوع	الصفحة
مقدمة التحقيق	٥
ترجمة العلامة الشيخ محمد الطيب بن مسعود المريني	٩
صور من المخطوطة	١٣
الأصل المحقق	١٧
مقدمة المصنف	١٩
الباب الأول: فى تنبيه الساهى وإرشاد اللاهى	٢٥
الباب الثانى: فى التوبة والاستغفار من الحوبة	٥٣
الباب الثالث: فى التقوى، والاعتصام بحبل الله الأقوى	٦٣
الباب الرابع: فى آداب الصلاة وفضلها، وذكر أحوال أهلها	٨١
الباب الخامس: فى شكر النعمة، وما ورد فيه من فوائد وحكمة	١٠٠
الباب السادس: فى ذكر بعض ما علينا من فضل الله تعالى ورحمته، وما أنعم به علينا من توحيده ومعرفته	١٠٧
الباب السابع: فى ترك التدبير مع الله، والاعتماد على سواه	١٣٠
الباب الثامن: فى ذكر القدر والقضاء، وما وجب من الصبر والتسليم والرضا	١٣٨
الباب التاسع: فى معرفة النفس ومثاليها وعلامة صاحبها	١٦٧
الباب العاشر: فى التواضع وحسن الخلق	١٨٩
فصل: فى مكارم الأخلاق	٢٠١
الباب الحادى عشر: فى ذم الدنيا وأهلها وذكر الآخرة وفضلها	٢١٣

الباب الثاني عشر: فى التعريف ببعض سيرة النبى ﷺ،	
وشمائله، وذكر نبذة من فضائله	٢٣٩
فصل: فى فضل الصلاة عليه ﷺ	٢٦٧
الباب الثالث عشر: فى علامة السعادة، وتذكرة أهل الاستفادة	٢٧٣
الباب الرابع عشر: فى القناعة، وذم الاغترار والطمع	٢٩٥
الباب الخامس عشر: فى التحذير من خلطة الغافلين، والحض	
على معرفة الصالحين	٣١٢
الباب السادس عشر: فى الذكر وفضيلته، والدعاء، وكيفيته	٣٣١
خاتمة	٣٦١
الفهرس العام	٣٦٣